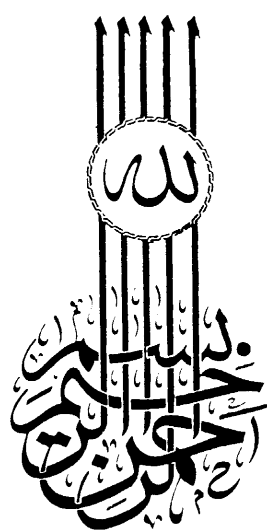

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات تاريخ الجزيرة العربية

هذا عنوان لسلسلة جديدة من الدراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، تحتوى على الأبحاث التي كانت قد قدمت في الندوتين العالميتين الاولى والثانية اللتين كانتا قد نظمتا في كلية الآداب بجامعة الرياض ، وعلى الأبحاث التي ستقدم للندوات التي ستنظم فيها مستقبلا بمشيئته تعالى · وكانت الندوة العالمية الاولى قد نظمها قسم التاريخ ، بكلية الآداب ، بجامعة الرياض في جمادى الاولى ١٣٩٧هـ (ابريل ١٩٧٧م) وموضوعها **مصادر تاريخ الجزيرة العربية** ، ويحوي أبحاثها هذا الكتاب في جزئيه · أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الاعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها ، في جمادى الاولى ١٣٩٩هـ (ابريل ١٩٧٩م) وتناولت موضوع **الجزيرة العربية قبل الاسلام** · وستظهر أبحاثها في الكتاب الثاني للسلسلة ·

أما الندوة العالمية الثالثة فان القسمين يعدان لها أيضا لتعقد بجامعة الرياض في أول عام ١٤٠٢هـ (نوفمبر ١٩٨١م) بمشيئة الله تعالى ، وسيكون موضوعها : **الجزيرة العربية في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين** · وفيما يلي عناوين كتب السلسلة :

الكتاب الأول : جزءان

مصادر تاريخ الجزيرة العربية

(مطبعة جامعة الرياض ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)

الكتاب الثاني :

الجزيرة العربية قبل الاسلام

(مطبعة جامعة الرياض ، تحت الطبع)

صور الغلاف

طبعت باذن خاص من ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، المملكة العربية السعودية ·

الأرضية : منظر لجمل ونقوش سبئية (نجران) ·
في حركة دائرية من اليمين لليسار : مسجد الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه (الجوف) ؛ مسجد من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي : بني خالد ، جزيرة جنا) ؛ بئر تعود لما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين (الحناء ، غرب الجبيل) ·

مصادر تاريخ الجزيرة العربية

الجزء الثاني

حقوق الطبع

الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة والسلام على
أفضل المرسلين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

١٣٧٩ هـ/ ١٩٧٩م

دراسات تاريخ الجزيرة العربية

الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية
في ٥ - ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣ - ٢٨ ابريل ١٩٧٧م
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية

الكتاب الأول

مصادر تاريخ الجزيرة العربية

الجزء الثاني

وقف على طبعه وتصحيحه

الدكتور عبد القادر محمود عبد الله — الدكتور سامي الصقار — الأستاذ ريتشارد مورتيل

باشراف

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري

مطبوعات جامعة الرياض

مطابع جامعة الرياض

لجنة تحرير الكتاب

أعضاء اللجنة الذين راجعوا الأبحاث وأعدوها للنشر كل في تخصصه

الأستاذ الدكتور عبد الحميد محمد البطريق	(التاريخ الحديث)
الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود	(التاريخ الاسلامي الوسيط)
الأستاذ الدكتور ابراهيم على طرخان	(التاريخ الاسلامي الوسيط)
الدكتور عبد القادر محمود عبد الله	(التاريخ القديم والآثار)
الدكتور سامي الصقار	(التاريخ الاسلامي)
الدكتور محمد عبودى ابراهيم	(الدراسات اليونانية الرومانية)
الأستاذ رتشارد مورتيل	(التاريخ الاسلامي)

الاشراف العام

الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصارى (تاريخ وآثار الجزيرة العربية القديمة)

الكتـــاب الأول : الجـــزء الثـانـــي

(القســم العــربــي)

المحتويـــات

* ينظر في القسم الآخر للأبحاث المكتوبة بغـير اللغة العربية .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

لله الحمد والشكر اذ أنعم علينا بتقديم الجزء الثاني من الكتاب الذي يضم بعض البحوث التي قدمت في الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية والتي انعقدت في ٥ ـ ١٠ جمـادى الأولى ١٣٩٧هـ المـوافق ٢٣ ـ ٢٨ أبريل ١٩٧٧م ٠

وان لم يكن بمقدوری بحكم تخصصي الحكم على المستوى العلمي لكل هذه البحوث فان الـذي يمكنني قوله هو أن كتابها هم من الطليعة في تاريخ وآثار الجزيـرة العربية ، وأنهم بذلـوا جهدا في كتـابة أبحاثهـم يستحقون عليه الشكر والتقدير ٠ ولا أشك في أن كثيرا من الأبحـاث تعد اضافـة جديـدة لتـاريخ الجزيرة العربية كما أن هذا الجزء والجزء الأول سيسدان فـراغا كبيرا في المكتبة العربية عن مصادرها ٠

واذا كان من حقي أن أوجـه الشكر فانني أوجهه للجنـة تحرير الكتـاب التي بذلت جهـدا مضنيا في سبيل اخراجه في صورة علمية مشرفة ٠ وأستميح أعضاء اللجنة في أن أقدم باسمهم الشكـر خاصة الى كل من الدكتور عبد القادر محمود عبد الله والدكتور سامي الصقار والاستاذ رتشارد مورتيل على الطريقة الطيبـة التي أخرجوا بها هذا الكتاب ٠

ولعل من واجبنا أن نتقـدم بأجزل الشكر لسعادة عميد كلية الآداب الذي كان خير عون لنا ٠ أما معالي مدير الجامعة فقد كان حفيا بهذا العمل منذ بدايته ، فله شكر كل دارس ومستفيد من هذا الجزء . كما نقـدم شكرنا الى سعاد ةوكيل الجامعة للدراسات العليـا والبحث العلمي وسعادة وكيل الجامعة للشئون الادارية والمالية ، كما لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر لكل الذين أسهموا معنا في طباعـة هذا الكتـاب وفي مقدمتهـم الأستاذ موسى اسماعيل مدير المطابع بالجامعة على حدبه وتعاونه معنا ٠ وختاما أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهـه . انه نعم المولى ونعم النصير ٠

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصارى

رئيس الندوة العالميـة الأولى لدراسات تاريخ
الجـزيـرة العـربيـة

مقدمة الجزء الثاني

هذا هو الجزء الثاني من الكتاب الأول للندوة العالمية الأولى عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية في سلسلة دراسات عن تاريخ الجزيرة العربية ۰ وتتكون أبوابه من الآتي :

خامسا : مؤرخو الجزيرة العربية

سادسا : الجزيرة العربية في الوثائق

سابعا : الجزيرة العربية في كتب الرحالة المسلمين

ثامنا : الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين

أما الجزء الأول فيتكون من :

أولا : القرآن الكريم والحديث الشريف

ثانيا : الجزيرة العربية في الكتب القديمة وفي الآثار

ثالثا : الجزيرة العربية في كتب التراث

رابعا : مصادر أخرى متعلقة

وقد اجرينا تعديلات طفيفة في عناوين بعض الموضوعات عما كانت عليه في برنامج الندوة المطبوع . وهو تعديل اقتضته الظروف بعد دراسة المادة العلمية دراسة متأنية ۰ وفي اعتقادنا ان ذلك أدى الى تحسين هيكل المواد العام ۰

ولقد اتبعنا نظاما معينا في ترتيب الابحاث بالعربية والانجليزية (بالاضافة الى بحث الاستاذة جاكلين بيرين وهو بالفرنسية) في جزئي الكتاب يمكن تلخيصه فيما يلي :

(١) جعلت الأبحاث المكتوبة باللغة العربية في شق من الكتاب والأخرى المكتوبة باللغة الانجليزية في الشق الآخر منه ، وصنفت كل مجموعة منها تحت موضوعها الرئيسي ، وحسب تسلسلها الموضوعي واتصالها ۰

(٢) قد حاولنا أن تكون الابحاث منتظمة حسب التسلسل الموضوعي والزمني اللازمين ۰ كما قدمنا الموضوعات العامة على الخاصة ۰ ولذا لم نعن بكتابة عناوين تعين المكان المدروس وتحدد العام والخاص ۰

(٣) وقد وضعنا في مقدمة كل ناحية من الكتاب ثبتين ، الاول منهما عام يجمع الأبحاث باللغتين ، وقد وضعت نجمة فوق اسم المؤلف لتشير الى أن بحثه ليس مكتوبا بلغة ثبت المحتويات المنظور فيه وانما باللغة الأخرى ، ولذا لزم البحث عنه في الوجه الآخر من الكتاب ، والثاني يضم الابحاث باللغة التي كتب بها الثبت ۰

وقد تولت تحرير أبحاث الكتاب في جزئيه لجنة مؤلفة من الاساتذة المذكورة اسماؤهم في غير هذا الموضع ، وأشرف على الكتاب اشرافا علميا قبل اعداده للطبع وخلاله الاستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري رئيس الندوة ورئيس قسم التاريخ آنذاك (رئيس قسم الآثار والمتاحف حاليا) ۰ ولولا جهوده الطيبة التي بذلها لتذليل عقبات اعترضت سير عمل الكتاب لربما تأخر عن صدوره في حينه ۰ فله منا الشكر الجزيل ۰

وقد استعانت اللجنة بعدد من الأفاضل الذين تكرموا فراجعوا بعض تلك الابحاث في مراحل مختلفة من اعدادها ، وقاموا بجهد مشكور بهذا الصدد ، ولاسيما الاساتذة :

الاستاذ الدكتور حسن ظاظا	(اللغة العربية والدراسات السامية)
الدكتور احمد سيد احمد	(التاريخ الحديث)
الاستاذ الدكتور جمال مختار	(التاريخ القديم والآثار)
الدكتور وفيق غنيم	(التاريخ القديم والآثار)
الدكتور عبد الله العيثمين	(التاريخ الحديث)
الدكتور سعد الراشد	(الآثار الاسلامية)

ولا يفوت اللجنة أن تشيد بالجهد الذي بذله السادة محمود الروسان طالب الدراسات العليا والفني بقسم الآثار وخلفه في فترة غياب قصيرة له محمد كمال صدقي الفني بالقسم نفسه لمعاونتهما في قراءة أصول الابحاث المطبوعة باللغة العربية ، والاستاذ ابراهيم عبد القادر أخصائي الترميم بقسم الآثار لتصميمه الغلاف ، والسيد ب٠أ٠هـ٠ تريل المحاضر بقسم اللغة الانجليزية على مشاركته في قراءة الأصول الانجليزية لهذا الكتاب ، والسيد زاهد أكبر سكرتير ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية لنسخه وحفظه للمواد المتعلقة بالكتاب ٠

وتشكر اللجنة كذلك كل من قدم لها مساعدات في مهمتها وفاتها ذكره في هذا الموضع ٠ والله تعالى الموفق والمسدد للخطى ، له الحمد والشكر على كل شيء ٠

لجنة تحرير الكتاب

١٥ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ
الموافق
١٣ مارس ١٩٧٩م

ثبت موحد بجميـــع الأبحاث

ثبت موحد بجميع الأبحاث *

خامسا : ـ مؤرخو الجزيرة العربية

---

* تعنى علامة النجمة الموضوعة أمام اسم المؤلف أن بحثه مكتـوب باللغة الانجليزية وأنـه في القسم الخـاص بالأبحـــاث الانجليزيـة .

سادسا : ـ الجزيرة العربية في الوثائق

سابعا : ـ الجزيرة العربية في كتب الرحالة المسلمين

ثامنا : ـ الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين

ثبت الأبحــاث العــربية

ثبت الأبحاث العربية

خامسا : ـ مؤرخو الجزيرة العربية

سادسا : ـ الجزيرة العربية في الوثائق

سابعا : ـ الجزيرة العربية في كتب الرحالة المسلمين

ثامنا : ـ الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين

مقدمو الأبحاث العربية

مقدمو الابحاث العربية

أسماء مقدمي الأبحاث العربية
تخصصاتهم ، شهاداتهم العلمية الأخيرة وعناوينهم الحالية

الاستاذ الدكتور/أبو القاسم سعد الله

التاريخ الحديث والمعاصر ـ دكتوراه جامعة مينيسوتا (أمريكا ، ١٩٧٦ م) ـ حاليا : دائرة التاريخ ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، الجمهورية الجزائرية ٠

الدكتور/أحمد ابراهيم دياب

التاريخ الحديث والمعاصر ـ دكتوراه جامعة القاهرة فرع الخرطوم (السودان ، ١٩٧٥ م) ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة أم درمان الاسلامية ، أم درمان ، السودان ٠

السيد/أحمد العنّاني

حاليا : رئيس قسم الترجمة والوثائق ـ مكتب سمو امير دولة قطر ، الدوحة ، قطر ٠

الدكتور/بشير ابراهيم بشير

التاريخ الاسلامي ـ دكتوراه جامعة لندن (انجلترا ، ١٩٧٠م) ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، السودان ٠

الدكتور/بهجت كامل التكريتي

التاريخ الاسلامي ـ دكتوراه جامعة ادنبره (اسكتلندا ، ١٩٧٢م) ـ حاليا : عميد كلية الآداب ، جامعة البصرة، البصرة، الجمهورية العراقية ٠

الدكتور/جعفر شهيدي

التاريخ والأدب العربي ـ دكتوراه (١٩٦٤م) ـ حاليا : مؤسسة لغت نامه ، دهخدا ، طهران ، ايران ٠

الاستاذ الدكتور/جمال زكريا قاسم

تاريخ العرب الحديث ـ دكتوراه جامعة عين شمس (مصر ، ١٩٦٤م) ـ حاليا : رئيس قسم البحوث والدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ٠

الدكتور/حسنين محمد ربيع

التاريخ الاقتصادى للعصور الوسطى ـ دكتوراه جامعة لندن (انجلترا ، ١٩٦٩) ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ،القاهرة ، جمهورية مصر العربية ٠

الاستاذ الدكتور / حسين أمين

التاريخ الاسلامي – دكتوراه جامعة الاسكندرية (مصر ، ١٩٦٢م) – **حاليا : الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ، حى ١٤ تموز ، محلة رقم ٥٠٨ ، دار رقم ٣ ، بغداد ، الجمهورية العراقية ·**

الاستاذ الدكتور / خليل ساحلي أوغلي

التاريخ الاقتصادي التركي – دكتوراه جامعة اسطنبول (تركيا ، ١٩٧٤م) – حاليا : كلية الاقتصاد ، جامعة اسطنبول ، تركيا ·

الاستاذ الدكتور/رشاد محي الدين الامام

تاريخ العرب الحديث – دكتوراه الجامعة الامريكية ببيروت (لبنان ، ١٩٧١م) – حاليا : كلية الآداب والعلوم الانسانية ، شارع ٩ ابريل ١٩٣٨، تونس، الجمهورية التونسية ·

الدكتور/سليمان محمد الغنام

التاريخ الحديث – دكتوراه جامعة مانشستر (انجلترا، ١٩٧٤م) – حاليا : قسم التاريخ، كلية الآداب ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية ·

الدكتور/صالح محمد العمرو

التاريخ الحديث – دكتوراه جامعة ليدز (انجلترا ، ١٩٧٤م) – حاليا : رئيس قسم التاريخ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ·

الدكتور/صلاح العقاد

التاريخ الحديث – دكتوراه الدولة جامعة باريس (فرنسا ، ١٩٥٦م) – حاليا : كلية البنات ، جامعة عين شمس ، مصر الجديدة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ·

الاستاذ الدكتور / عباس الجرّاري

الادب المغربي والادب الشعبي – دكتوراه جامعة القاهرة (مصر ، ١٩٦٨م) حاليا : كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المملكة المغربية ·

الدكتور/عبد الامير محمد امين

التاريخ الحديث – حاليا : قسم التاريخ، كلية التربية ، جامعة بغداد ، بغداد ، الجمهورية العراقية ·

الاستاذ الدكتور/عبد الحميد محمد البطريق

التاريخ الحديث – دكتوراه جامعة لندن (انجلترا ، ١٩٤٧م) – حاليا : قسم التاريخ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، المملكة العربية السعودية ·

الاستاذ الدكتور/عبد الشافي غنيم عبد القادر

التاريخ الاسلامي ـ دكتوراه جامعة القاهرة (مصر ، ١٩٥٣م) ـ حاليا : رئيس قسم التاريخ، كلية التربية للمعلمين ، الدوحة ، قطر ٠

السيد/عبد العزيز بنعبد الله

التاريخ الحديث ـ حاليا : مدير مكتب تنسيق التعريب ، ص٠ب ٢٩٠ ، الرباط ، المملكة المغربية ٠

الشيخ عبد القدوس الانصاري

العلوم العربية والتاريخ والآثار ـ الشهادة العالية من مدرسة العلوم الشرعية (المدينة المنورة ، ١٣٤٩هـ) ـ حاليا : مكتب مجلة المنهل، ٤٤ شارع عرفات، الشرفية ، جدة ، المملكة العربية السعودية ٠

الاستاذ الدكتور/عبد الكريم كريّم

تاريخ المغرب الحديث ـ دكتوراه جامعة عين شمس (مصر ، ١٩٦٩م) ـ حاليا : كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المملكة المغربية ٠

الاستاذ الدكتور/عبد اللطيف ابراهيم

التاريخ الحديث ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، القاهرة، جمهورية مصر العربية ٠

الدكتور/عبد اللطيف بن دهيش

التاريخ الحديث ـ دكتوراه جامعة ليدز (انجلترا ، ١٩٧٤م) ـ حاليا : رئيس قسم التاريخ، كلية الشريعة ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ٠

الدكتور/عبد الله حامد الحُبَيِّد

التاريخ الحديث ـ دكتوراه جامعة ادنبرة (اسكتلندا ، ١٩٧٣م) ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الشريعة ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ٠

الدكتور/عبد الله عقيل عنقاوي

التاريخ الاسلامي الوسيط ـ دكتوراه جامعة كمبردج (انجلترا ، ١٩٦٩م) ـ حاليا : قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، المملكة العربية السعودية ٠

السيد / عبد المجيد الذويّب

تفقد مادتي التاريخ والجغرافيا ـ دبلوم الدراسات العليا من السوربون (فرنسا ، ١٩٥٥م) ـ حاليا : ١٣ نهج عاصمة الجزائر ، باردو ، الجمهورية التونسية ٠

الدكتور/فاروق عمر فوزي

التاريخ الاسلامي ـ دكتوراه جامعة لندن (انجلترا، ١٩٦٧م) ـ حاليا : قسم التاريخ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، بغداد ، الجمهورية العراقية .

الاستاذ/فهيم محمد شلتوت

التراث الاسلامي ـ حاليا : مدير عام مركز تحقيق التراث ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الاستاذ / محمد المنوني

تاريخ المغرب الحضاري ـ شهادة العالمية من جامعة القرويين بفاس (المغرب ، ١٩٦٢م) ـ حاليا : ص.ب ٣٥٧ ، الرباط ، المملكة المغربية .

الأستاذ الدكتور / محمد محمود الصياد

التاريخ الحديث ـ دكتوراه (١٩٤٨م) ـ حاليا : معهد البحوث والدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الدكتور/محمد داود التميمي

الاقتصاد ـ حاليا : كلية الاقتصاد ، جامعة اسطنبول ، تركيا .

القاضي محمد بن علي الأكوَع

تاريخ اليمن ـ حاليا : القصر الجمهوري ، صنعاء ، اليمن .

الدكتور/محمد سعيد الشعفي

التاريخ الحديث ـ دكتوراه جامعة ليدز (انجلترا ، ١٩٦٧م) ـ حاليا : رئيس قسم الاعلام، كلية الآداب ، جامعة الرياض ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

الدكتور/مصطفى عبد القادر النجار

تاريخ الخليج العربي الحديث ـ دكتوراه جامعة عين شمس (مصر ، ١٩٧٠م) ـ حاليا : مدير مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، البصرة ، الجمهورية العراقية .

الدكتور/مصطفى كريّم

دكتوراه الدولة (فرنسا ، ١٩٧٦م) ـ حاليا :
Service Culturel de l'Ambassade de Tunisie, 25 rue Fortuny 75017 ,Paris, France.

الدكتور/مصطفى محمد رمضان

التاريخ الحديث والمعاصر ـ دكتوراه جامعة الازهر (مصر ، ١٩٧٤م) ـ حاليا : كلية اللغة العربية ، جامعة الازهر ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الدكتور/ناصر بن سعد الرشيد

التاريخ الاسلامي ـ حاليا : مدير البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ٠

الاستاذ الدكتور/نقولا زيادة

التاريخ الحديث ـ دكتوراه جامعة لندن (انجلترا ، ١٩٥٠م) ـ حاليا : كلية الآداب، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، لبنان ٠

ثبت اللوحات والخرائط

اللوحـات : ـ

الوثيقـة رقـم ٢٠٠ ص ٩٥ سجـل ١ ديوان عـالى (صرة الخاصكية القديمة سنة ١١٥٤هـ) ٠

اللوحة رقم (١٤) : (أ) الوثيقة رقم ٩٢ ؛ (ب) الوثيقة رقم ٩٣ ص ١٠٦ سجل ١٠ ديوان عالى (صرة أوقاف الحرمين سنة ١٢٧٣هـ) ٠

اللوحة رقم (١٥) : تابع الوثيقة رقم ٩٣ ٠

اللوحة رقم (١٦) : (أ) تكملة الوثيقة رقم ٩٣ البادئة على اللوحة رقم (١٤) ؛ (ب) الوثيقة رقم ٩٤ ص ١٠٧ سجل ١٠ ديوان عالى (مجمل الاموال المرسلة الى الحرمين في سنة ١٢٧٣هـ) ٠

اللوحة رقم (١٧) : تابع الوثيقة رقم ٩٤ ٠

اللوحة رقم (١٨) : (أ) تكملة الوثيقة رقم ٩٤ ، البادئة على اللوحة رقم (١٦) ؛ (ب) بداية الوثيقة رقم ٩٥ ٠

. . . بعد ص ٢٧٤

الخرائـــط :

الخارطة رقم (١) : طريق سادلر في عام ١٨١٩م ٠

الخارطة رقم (٢) : طريق لويس بيلى في عام ١٨٦٥ ٠

الخارطة رقم (٣) : طريق بلجريف في عام ١٨٦٢م ٠

الخارطة رقم (٤) : طريق راونكاير في عام ١٩١٢م ٠

الخارطة رقم (٥) : طريق شيكسبير في عام ١٩١٤م ٠

الخارطة رقم (٦) : منازل القبائل الوارد ذكرها في رحلة شيكسبير ٠

. . . بعد ص ٤٨٤

خامسا : ـ مؤرخو الجزيرة العربية

ثبت الأبحاث

« تاريخ المدينة المنورة »

تأليف عمـر بن شبة النمـيري

فهيـم شلتـوت

من أهم مصادر التاريخ عن الحياة الدينية والثقافية والسياسية والحربية والعمرانية في مدينـة النبي صلى الله عليه وسلم في الصدر الاول للاسلام ، كتاب « تاريخ المدينة المنورة » ، للحافظ المحدث أبي زيد عمر بن شبة المتوفي سنة ٢٦٢ هـ ٠

واذا كان قد سبقه ابن اسحاق المتوفي سنة ١٥١هـ في تأريخه لسيرة النبي صلى الله عليـه وسلم ، من مولده الى أن لحق بالرفيق الأعلى ، ومـا يتصل بحياته من صحابته وعمـاله والتشريع للمجتمـع الاسلامي ، وذلك في كتابه الذي وصلنا برواية يونس بن بكير المتوفي سنة ١٩٩هـ ، تلك التي لم تأخذ طريقها الى الطباعة بعد (١) ، وأيضا برواية ابن هشام المتوفي سنة ٢١٣هـ ٠ وهي التي بين أيدينـا ٠

وكذلك اذا كان قد سبقه الحافظ المؤرخ محمد بن عمر الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧هـ في كتابه « المغازي » الذي أخذ مكانه بين الكتب المنشورة ، وكتابه التاريخ الذي لم يعثر عليه بعـد (٢) وان كـانت كتب التاريخ والسير اللاحقة له قد احتفظت لنا بنقول كثيرة عنه ٠

واذا كان الحافظ محمد بن سعد كاتب الواقدي المتوفي سنة ٢٣٠هـ ، قد أرخ لصحابة الرسول وتابعيهم وقدم لنا في ذلك حياتهم مبسوطة واضحة ، معتمدا في ذلك على استاذه الـواقدي ، وذلك في كتـابـه المعروف بالطبقات الكبـرى ٠

فانه يلاحظ أن التأريخ لمدينة الرسول صلى اللهعليه وسلم أتى عرضا في كثير من المؤلفات السابقة واذا كانت قد اهتمت بها في مواضع ، فتلك التي كانت في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

واذا كان أول مؤلف أفرد لتاريخ المدينة هو كتاب « تاريخ المدينة » لمحمد بن الحسن بن زبـالة الذي كان حيا سنة ١٩٩هـ ، الا أنه لم يعثر عليه بعد ، ولولا نقول السمهودي (٣) عنه لظللنا نجهـل تلك النقول حتى وقتنا هـذا ٠

ويأتي الزبير بن بكار المتوفي سنة ٢٥٦هـ ، وقد كان معاصرا لابن شبة فيؤلف أيضا كتـابا في أخبـار المدينة ، لم نعثر عليه بعد ، وقد ذكره السيوطي في كتابه « شرح شواهد المغني » (٤) ٠

لقد ظللنا زمنا طويلا نعتقد بفقد كتاب عمر بن شبة الذي أرخ فيه لمدينة الرسول اعتمـادا على عـدم ذكر بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » وجود نسخة من الكتاب في المكتبات التي نشرت فهارسها ، كما ظللنا نعتمد على النصوص التي نقلها السمهودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبـار دار المصطفى » عن ابن شبـة ٠

وقد شاء الله أن يهتدي أحد السادة الافاضل الى وجود نسخة من الكتاب في مكتبة السيد محمد مظهر الفاروقي بالمدينة المنورة كان قد أوقفها سنة ١٢٩١هـ على مدرسته بالمدينة ٠ وذلك الفاضل هو السيد حبيب محمود أحمد ، رئيس مجلس الاوقـاف بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أتيح له الحصول على نسخة مصورة عن تلك المخطوطة ، وأسند الـيَّ مهمة القيام بتحقيقهـا ٠

والمخطوطة التي نعتمد عليهـا في التحقيق تقع مرقمة في ٢٠٢ ورقة تساوي ٤٠٤ لوحة مصورة ، ورقم المخطوطة بالمكتبة هو ١٥٧ تاريخ ، ومتوسط عدد سطور صفحات المخطوطة ٢٧ سطرا ، وقد كتبت بخط دقيق غـير منقوط في أغلبـه ، وغـير محرر الرسم للكلمـات والحروف ، بحيث لا يستطيع قـارىء مهمـا أوتى من الخبرة والدراية والحفظ أن يقيم قراءة سطر من سطوره دفعة واحدة ٠

ولعل مما يذهب الغرابة والعجب في وصفنا هذا لتلك المخطوطة ، أن نقول بأنهـا كتبت بخط الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وشهرة غموض خط ابن حجر قد طبقت الآفاق ، ولعله كـان يكتب بعض هذه الكتب لنفسه فقط ٠

ومما يؤكد كتابة ابن حجر لهذه النسخة ما ذكره السخاوي المتوفي سنة ٩٠٢ هـ في كتـابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (٥) في حديثه عن الكتب التي ألفت عن المدن الاسلامية ، فقد قال : « المدينة النبوية لعمر بن شبة كما في ترجمته وهو عند صاحبنا ابن فهد نقله من نسخة بخط شيخنا (أي ابن حجر العسقلاني) كانت عند ابن السيد عفيف الدين » ٠

ولقد كانت اشارة السخاوي دافعا لنا لدراسة ما خطه ابن حجر مما هو موجود بين مخطوطات دار الكتب المصرية (٦) ، وقد خرجت أنا وصفوة من زملائي وابنائي العاملين بمركز تحقيق التراث من هذه الدراسة بما يقطع بأن النسخة التي بين أيدينا هي التي كتبها ابن حجر ، وأشار اليها السخاوي ٠

واذا كنا قد وجدنا بعض الكتب التي خطها ابن حجر بيده، يسهل قراءتها الا أن طريقة رسمه للحروف والكلمات مطابقة لنسخته من «تاريخ المدينة» ، لكنها كبيرة الحجم مفسرة الكلمات والحروف ٠

وقد لاحظنا أن ابن حجر فيما ينسخه من كتب الآخرين ، يغلب عليه صفة السرعة في الكتابة مما يجعلـه لا يوضح معالم الحروف والكلمات٠ وفيما يسوده لنفسه من مؤلفاته يغلب عليه الاضطراب وسوء الخط والسقط، مما يضطره الى الاكمال بالهامش والاحالات بالتصويب الى الهوامش والشطب وترك الفراغات بقصد استكمالها عند المراجعة ، أما فيما بيضه من مؤلفاته التي طالعناها فاننا رأيناه ينمق فيها قدر استطاعته ، ولكنه لا يتخلى عن طبيعته في رسم الحروف وهندسة الكلمات ٠ ولعل من حسن الطالع لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يتتلمذ السمهودي على ابن فهد الذي كانت عنـده نسخة من « تاريخ المدينة » لابن شبة التي أشرنا اليها وبذلك حفظ لنـا السمهودي في كتابه ما نقلـه من « تاريخ المدينة » الذي كان يعد مفقودا الى ما قبل التعرف عليه ٠ وبذلك نستطيع القول بوجود مختصر للكتاب يتمثل في نقول السمهودي عن ابن شبة ٠

ونسخة « تاريخ المدينة » لابن شبة التي بين أيدينا مع عسر قراءتها لسوء خطها بها نقص في بدايتها وفي نهايات وبدايات أقسامها ٠ وكذلك أيضا يوجد بها بياض في أثناء صفحاتها يتراوح مقداره بين الكلمة والسطر ونصف الصفحة ، هذا بالاضافة الى أن تبويبها كتاريخ للمدينة افتقد الترتيب الطبيعي الذي نلاحظ عند غيره ممن أرخوا للمدينة المنورة مثل السمهودي ٠

ولعل هذا النقص يرجع الى ان الاصل الذي نقلت عنه هذه النسخة قد تناولته يد العبث فأتلفته ، ولـم يتهيأ اعادته الى اصله ، فبقي لنا بحالته التي وصلتنا ممثلة في هذه النسخة ٠

ولا يستبعد ذلك فان مؤلفنا الحافظ ابن شبة قد امتحن في حياته بمدينة سر من رأى ومزقت كتبه ، فقد روى الخطيب البغدادي (٧) في ترجمته لابن شبة خبرا « عن ابي علي العنزي قال : امتحن عمر بن شبة بسر من رأى بحضرتي فقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، فقالوا له : من توقف فهو كافر ؟ فقال : لا اكفر احدا ، فقالوا له : أنت كافر ، ومزقوا كتبه ، فلزم بيته وحلف ألا يحدث شهرا ٠٠٠ »

ونرجح ان اصل كتاب « تاريخ المدينة » كان من بين تلك الكتب التي تناولها العبث والاتلاف ٠

ومؤلف « تاريخ المدينة » هو ابو زيد عمر بن شبة بن عبيدة النميري البصري ، مولى بني نمير ولد سنة ١٧٣هـ وتوفي سنة ٢٦٢هـ ٠ ترجم ابن النديم (٨) وياقوت (٩) وابن خلكـان (١٠) والخطيب البغدادي (١١) والنـووي (١٢) والـذهبي (١٣) وابن حجـر (١٤) والسيوطي (١٥) ٠

فهيم شلتوت

وقد اجمع كل من ترجم له على انه صادق اللهجة ، غير مدخول الرواية ، عالم بالآثار ، راوية للاخبار ، أديب فقيه ، صاحب نوادر واطلاع كثير ، عالم بالقراءات ، ثقة فيما يروي ، صاحب تصانيف ، بصير بالسير والمغازي وايام الناس ٠

وقد سمع وروى وحدث عن ثقات علماء عصره مثل : جبلة بن مالك ، ومحبوب بن ابي الحسن ، وعبد الوهاب الثقفي ، ومحمد بن جعفر غندر ، وابي زكريا يحيى بن محمد بن قيس ، وعلى بن عاصم ، ويزيد بن هارون ، ومؤمل بن اسماعيل ، وعمر بن شبيب ، وحسين الجعفي ، وابي بدر السكوني ، ومعاوية بن هشام ، وعبد الوهاب بن عطاء ، وابي عاصم الشيباني النبيل ، ويحيى القطان ، ويوسف بن عطية ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وابراهيم بن المنذر ، وهارون بن عبد الله وغيرهم ٠

وروى عن ابن شبة وحدث عنه : ابو بكر بن ابي الدنيا ، وعبدالله بن سليمان ، وعبد الملك بن عمرو الوراق ، واحمد بن فرج ، وابو شعيب الحراني ، وابو قاسم البغوى ، ويحيى بن صاعد ، واسماعيل بن

[illegible]

« معجم الادباء » في ترجمته ايضا ، وهذه المؤلفات فيها التاريخ والادب والاخبار واللغة وعلوم الدين ٠ واسماء كتبه على ما اوردها ابن النديم هي : كتاب الكوفة ، كتاب البصرة (١٦)، كتاب امراء المدينة (١٧)، وكتاب امراء مكة (١٨) ، كتاب السلطان ، كتاب مقتل عثمان (١٩) ، كتاب الكتاب ، كتاب الشعر والشعراء (٢٠) ، كتاب الاغاني (٢١) ، كتاب التاريخ ، كتاب اخبار المنصور ، كتاب اخبار محمد وابراهيم ابني عبد الله بن حسن ابن حسن ، كتاب اشعار الشراة ، كتاب النسب ، كتاب اخبار بني نمير ، كتاب ما يستعجم الناس فيه من القرآن ، كتاب الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات ، كتاب الاستعظام للنحو ٠ وقد اورد ياقوت الفقرة الاخيرة على النحو التالي : كتاب الاستعظام ، كتاب النحو ومن كان يلحن من النحويين ٠

هذا ما كان عن ابن شبة قدمناه موجزا ، اما كتاب « تاريخ المدينة » فحديثنا عنه الان بشيء من الايجاز ايضا ، فهو في صورته التي وصلتنا يضم ثلاثة اقسام :

اولها عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وهو ناقص من اوله ومن آخره ، ويليه قسم اخر عن حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو ناقص من اوله واخره ، ويليه قسم اخر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو ناقص أيضا من اوله وآخره ٠ والملاحظ ان مخطوطة الكتاب لا تضم تاريخالخليفة رسولالله ابي بكر الصديق رضى الله عنه ، وهذا يدعو الى افتراض احد فرضين ، اما ان المؤلف قد ضمنه كتابه هذا ، ولكنه فقد عند محنته كما اشرنا ، او انه اهمل تاريخ ابي بكر لان عصره كان قصيرا ، قضاه ابو بكر مشتغلا بحروب الردة ، مما صرفه عن الاهتمام بالحياة العمرانية وغيرها من امور الدنيا ٠

والقسم الاول يمكن ان يقال بشأنه انه يؤرخ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة منذ الهجرة الى ان لحق بالرفيق الاعلى ، ويعالج من خلال ذلك الحياة العمرانية للمدينة من حيث اقامة المساجد وتخصيص الصدقات وما يتصل بذلك مما يحتاجه المجتمع من مرافق ، كالاسواق والابار والعيون ، وبيان حدود المدينة وما حولها ومجتمع مياهها ومفايضها واوديتها ٠ وطال حديث ابن شبة عن دور اهل المدينة ومنازلهم ، ومحال القبائل من المهاجرين ، ومنازل القبائل الاخرى بالمدينة ٠

وهو في ذلك يعد اقدم نص وصلنا عن تاريخ العمران في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

والقسم الثاني : يؤرخ لحياة امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في المدينة منذ تولي الخلافة حتى لحق بالرفيق الاعلى شهيدا ، على يد ابي لؤلؤة المجوسى .

وقد عنى المؤلف خاصة بالاصلاحات التي ادخلها عمر بن الخطاب على مرافق المدينة ، والتوسيعات التي اجراها في مسجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسياسة الخليفة عمر في ارساء قواعد العدل، ومراقبته للولاة وأولى الامر في ادارة شئون الرعية ، ومعالجته الازمات الاقتصادية وبخاصة في عام الرمـادة ، وتنميـة بيت المال بحيث اصبح يضمن رزقا لكل مسلم حتى الطفل الرضيع ، بالاضافة الى حمايته للاحماء لترعـى فيها خيول الجهاد وابله ، وكذلك رحلاته الى الشام وتفقده لاحوال المسلمين ، وارسائه اسس العلاقة مع اهل الذمة في تلك البلاد .

واذا كان هناك من كتب عن حياة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ممن وصلتنا كتبهم كابن الجوزي في مناقب عمر والبلازري في كتابه « انساب الاشراف » ، وابن سعد فـي « الطبقات » وابـن عنان في « الغوث الاكبر في مناقب الجد الاعظم عمر » وغيرهم ، الا ان ما كتبه ابن شبة عن عمر رضى الله عنه يعتبر النص الرائد في هذا المجال ، من حيث غزارة المادة ، وتوثيق الاخبار والنصوص ، والصدق في عرضها .

والقسم الثالث : يؤرخ لحياة الخليفة عثمان بن عفان رضى اللـه عنه ، فـي المدينة المنورة منـذ تولي الخلافة حتى استشهد في الفتنة الكبرى التي فتن بها المسلمون ، ويعني خاصة بالتوسيعات التي ادخلها على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جد في المدينة من اتساع حدودها والاحماء التي حماها ، ثم تناول بتوسع الاحداث التي سبقت الفتنة الكبرى ، ثم تطور تلك الاحداث ، وما قيل عن مواقف بعض الصحابة منها وبخاصة امير المؤمنين على بن ابي طالب رضى الله عنه ، ونتائج تلك المواقف والاحداث .

ولعلنا لا نجد نصا قديما قد عالج حياة عثمان رضى الله عنه ، واحداث الفتنة بالدقة والتوسع والاسناد والاستيثاق ، والحيدة المطلقة في الاحكام ، يضارع او يقرب مما كتبه ابن شبة في هذا القسم .

واذا كنا لم نعثر بعد على كتاب « مقتل عثمان » لابن شبة التي تحدثـت عنـه المراجـع ، فانني اعتقد ان ما في هذا القسم يعزينا عن فقد هذا الكتاب .

واذا كان أبو عبيدة معمر بن المثنى المتـوفي سنة ٢١١ هـ ، قد ألف كتابا عن مقتل عثمان كما يذكر ابن النديم (٢٢) ، الا ان هذا الكتاب لم يعثر عليه بعد .

وقد تيسر لنا ونحن نبحث عن اصول تساعدنا في تحقيق هذا القسم، ان نهتدي الى كتاب ابي عبدالله محمد بن يحيى بن محمد بن سعد الاشعري المالكـي ، المعروف بابن أبي بكر المتوفـي سنـة ٧٤١ هـ والذي سماه : « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان » (٢٣) ، وقد أشار ابن ابي بكر في مقدمة كتابه ، الى انه توخى فيه العدل من غير ميل وتعصب ، وذكر ما نقله الائمة العلماء في كتبهم وتواريخهم ، وسمى مـن هذه الكتب « كتاب المقتل » لعمر بن شبة النميري ، وقد حوى الكتاب نقولا كثيرة عن ابن شبة ، لا نراها تختلف كثيرا عما جاء في القسم الثالث من كتابنا هذا ، وقد أفاد هذا الكتاب كثيرا في تحقيقي للقسم الثـالث من الكتاب .

وقد ذكر السخاوي (٢٤) عدة مؤلفات في تاريخ المدينة وفضائلها ومآثرها ومعالمها الا ان اكثرها لا نعرف له وجودا ، وبذلك يعد كتاب ابن شبة من اهم النصوص الاصيلة بين ايـدينا التي تـؤرخ لمدينـة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

فهيم شلتوت

واخيرا ، فاذا كان هذا الكتاب قد مني بحظ عاثر فتأخر تحقيقه بسبب ما اشرنا اليه في وصف النسخة، فقد قيض الله له ان تتضافر خبرات في مجال نسخ المخطوطات والبصر بقرائتها ، وعزز تلك الخبرات جهود تمثلت في مراجعة ما تم نسخه ، ومقابلته وتقويمه في ضوء معرفة بعلوم الحديث ، والتاريخ واصوله ومراجعه ، ومناهج تحقيقه ٠

وحان الوقت الذي نستطيع فيه ان نقول : اننا نضم الى الاصول الرائدة في تاريخ السيرة النبوية والحياة الاسلامية الاولى في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا اخر هو : « تاريخ المدينة » لعمر بن شبة الذي قد تم تحقيق القسمين الاول والثاني منه ، وهما تحت الطبع (٢٥) الذي سيتولاه الفاضل سماحة السيد حبيب محمود احمد رئيس مجلس الاوقاف بالمدينة المنورة ، على نفقته ، اما القسم الثالث فقد نجزنا تحقيق نصفه ، وندعو الله تعالى ان يفسح في الاجل وان يسدد الخطى في العمل ، وان يبارك في الجهد حتى ينجز تحقيق بقية الكتاب ، وهو وحده نعم المولى ونعم النصير ، ومنه العون ، وبه التوفيق ٠٠٠

الهــوامـــــش

(١) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة القرويين بفـاس برقـم ٧٢٧ ٠

(٢) ينسب لـه « سيرة الرسول » ، توجد منهـا ٣٥ قطعـة متفرقة في تاريخ العهـد السابـق على الرسول وتاريخه قبل البعثة ، في برلين برقم ٩٥٤٨ ، انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة) ٣/١٩٠

(٣) نشر فستنفلد ١٨٦٤م مستخرجا من كتاب ابن زبالـة ، اعتمـادا على نقول السمهودي ٠ انظر « تاريخ الادب العربي » لبروكلمان ٣/٢٤ ٠

(٤) « شواهد المغني » ص ١٧٨ ٠

(٥) نشر ضمن كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » تأليف فرانز روزنثـال وترجمة د٠ صالح أحمد العلي في بغداد سنة ١٩٦٣م والنص ص ٦٤١ ٠

(٦) منها : « المجمع المؤسس للمعجم المفهرس » من تأليفه وهو محفوظ برقم ٧٥ مصطلح ، وايضا كتابته لعنوان الجزء الاول من كتابه « الاصابة في تمييز الصحابة » وهـو محفوظ برقـم ٢٢٩ مصطلح حديث

(٧) « تاريخ بغداد » ، في الترجمة رقم ٥٩١٤ حـ ١١/ ٢٨

(٨) « الفهرست » ط القاهرة سنة ١٩٢٨م ص ١٦٣ ــ ١٦٤ ٠

(٩) « معجم الادباء » ط القاهرة حـ ١٦/٦٠ ــ ٦٢ ٠

(١٠) « وفيات الاعيان » ط الميمنية حـ ١/٣٧٨ ــ ٣٧٩

(١١) سبق الاشارة اليه ٠

(١٢) « تهذيب الاسماء واللغات » ط القاهرة الجزء الاول القسم الثاني ص ١٦ ــ ١٧ ٠

(١٣) « تذكرة الحفاظ » ٢/٩٠ ٠

(١٤) « لسان الميزان » ٣/١٢٧ ٠

(١٥) « بغية الوعاة » ط القاهرة سنة ١٣٢٦هـ ٠ ص ٦١

(١٦) استفاد منه ياقوت في « معجم البلدان » ، راجع فهرس الاعلام ٠

(١٧) لعله ما نعرفه بتاريخ المدينة ٠

(١٨) وهو ما نعرفه بتاريخ مكة ، ولقد نقل عنه الطبرى في تاريخه ، والبخاري في صحيحه والسمهـودي في وفـائـه ٠

(١٩) وقد نقل عنه ابن ابي بكر في « كتابه التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمـان » كمصدر مـن مصادر تأليفه على ما سنذكره فيما بعد ٠

(٢٠) ذكره ياقوت بعنوان « كتاب طبقات الشعراء » ٠

(٢١) وقد استفاد منه الاصفهاني في كتابه « الاغاني » ، راجع فهرست الاعلام ٠

(٢٢) « الفهرست » ص ٨٠ ٠

(٢٣) سيصدر بتحقيقنا باذن الله في القريب ٠

(٢٤) «الاعلان بالتوبيخ » ص ٦٤١ ــ ٦٤٣ ضمن كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » ٠

(٢٥) علمت اليوم (اي يوم ٥ـ٥ـ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣ـ٤ـ١٩٧٧ م ، وهو يوم القاء هذا البحث في الندوة العالمية الاولى لمصادر تاريخ الجزيرة) من فضيلة استاذنا الشيـخ حمـد الجاسر بـأن الاستاذ الدكتور سليمان غنام قد اعد رسالته لنيل درجة الدكتوراه في « ابن شبة » وانه حقق بعض الكتاب ، وهـذا الخبر بقدر ما يسعد ، فانه يبعث على الالم لفقدان التنسيق والاتصال العلمـي بين العلماء والهيئـات المعنية بتحقيق التراث حتى نتلافى تكرار الجهود وازدواج العمل ٠

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجد والحجاز
خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

جمال زكـريا قاسم

تحفل حركة الارتياد والكشوف الجغرافية في الجزيرة العربية بكثير من العلماء والمغامرين الذين كشفوا معالمها وتوغلوا في دواخلها مدفوعين الى ذلك بدوافع مختلفة وعلى الرغم من ان الدوافع العلمية كانت هي الدوافع الغالبة لتلك الحركة الكشفية خاصة بما ترتب عليها من نتائج علمية ذات اهمية بالغة بالنسبة للجزيرة العربية كالتعرف على معادنها وتكويناتها الجيولوجية وظواهرها الجغرافية الى جانب الكشف عن آثار حضاراتها القديمة الا انه بجانب تلك الاسباب العلمية كانت هناك دوافع سياسية قائمة بذاتها او اختلطت في بعض الاحيان بالاهداف العلمية بحيث غدا من الصعوبة بمكان الفصل فيما بينهما او ربما اضاف بعض اولئك المغامرين اهدافا سياسية الى رحلاتهم كنوع من اضفاء الاهمية على انفسهم او على رحلاتهم عندما قاموا بنشرها ٠

وسوف نحاول في هذه الدراسة ان نركز على الدوافع السياسية لرحلات الاوروبيين الى نجد والحجاز خلال الفترة المشار اليها وليس من شك في ان اختيارنا لذلك الجزء من الجزيرة العربية يرتبط بعدة اعتبارات من ابرزها ان ذلك الجزء اصبح منذ القرن التاسع عشر يشكل هدفا هاما من اهداف الرحالة الاوروبيين اذ انه منذ رحلات الرحالة الدانيماركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr (١) اصبح الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية معروفا اكثر من جزئها الاوسط الذي يعنينا في هذه الدراسة والذي لم يكن اي رحالة اوروبي قد اجتازه بعد وعلى هذا الجزء كان اهتمام الرحالة الاوروبيين مركزا منذ بداية القرن التاسع عشر على ان هناك الى جانب ذلك اعتبارات سياسية اخرى دفعت اوروبا الى الاهتمام بهذا الجزء من الجزيرة العربية ونعني بذلك النجاح الذي حققته الدعوة الاصلاحية الكبيرة التي تزعمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما ترتب عليها من ظهور سلطة سياسيةودينية قوية كان على رأسها امراء من البيت السعودي بذلوا جهودهم من اجل توحيد الجزيرة العربية وضم شتاتها الى سلطتهم الجديدة الناشئة ٠ وقد لفتت تلك السلطة السياسية الجديدة انظار العالم الخارجي الى نجد والحجاز واصبح لما يكتبه الرحالة الاوروبيون اهمية خاصة رغم القصور الواضح في تلك الكتابات اذ اننا لو فحصنا الكتب والتقارير المختلفة التي تركها الرحالة الاوروبيون خاصة الانجليز منهم في النصف الاول من القرن التاسع عشر لوجدنا انها مذكرات تزدحم بالمعلومات عن مظاهر الحياة المختلفة وهي في الغالب معلومات جمعت في سرعة وبدون تبصر لتحمل اكبر قسط من المعرفة دون ان يكون هناك ترابط فيما بينها او جمال في اتساقها وعلى عكس ذلك الكتابات التي ظهرت في الفترة الواقعة من منتصف القرن التاسع عشر حتى السنوات الاولى من القرن العشرين التي تميزت بنضج المعرفة ولا غرو في ذلك اذ ان تلك الفترة كانت تعد بحق بمثابة العصر الذهبي للارتياد الاوروبي للجزيرة العربية وظهرت اسماء كثيرة من امثال والان Wallin وجورماني Guarmani وبلي Pelly وبلجراف Palgrave وهيبرت Hubert وبيرتون Burton وان بلنت Blunt ودوتي Doughty وغيرهم كثيرون (٢)

على انه يجدر الاشارة هنا ان بدء حركة الارتياد الاوروبي في نجد والحجاز في السنوات الاولى من القرن التاسععشر لم تكن مرتبطة فقط بالحركة السلفية وما ترتب عليها من نتائج سياسية بالغة الاهمية كان لها اثرها الكبير في شد الانتباه الى ما يجري في الجزيرة العربية وانما يمكن ان نضيف الى ذلك عاملا اخر وهو الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ اذ ان تلك الحملة كان لها اثر كبير من حيث تأكيدها لانجلترا بصفة خاصة عن الاهمية السياسية والاستراتيجية التي يمكن ان تكون لبلدان الشرق العربي بالنسبة لامبراطوريتها في الهند وبالتالي فلم تعد الجزيرة العربية بعيدة الاهمية عن عالم السياسة الدولية وخاصة فيما يتعلق بالصراع والتنافس الاستعماري الذي كان قائما بين انجلترا وفرنسا في ذلك الوقت ٠

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجد والحجاز

لقد اثر هذان العاملان على رحلات الاوروبيين الى نجد والحجاز في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر واصبح واضحا ان كثيرا من تلك الرحلات كانت تحركها الدوافع السياسية التي كانت تستهدف في الدرجة الاولى التعرف على القوة الناشئة في وسط الجزيرة العربية ومحاولة الاستفادة منها والتودد والتقرب اليها كما ظهر ذلك واضحا في البعثات المختلفة التي اوفدت من قبل الانجليز والفرنسيين لخطب ود السعوديين ومحاولة مصادقتهم ٠

ولعل اول مبعوث سياسي ارسل الى نجد كان مبعوثا انجليزيا هو المستر رينو Reinaud مساعد القنصل البريطاني في البصرة وفد الى الدرعية في عام ١٧٩٩ لمقابلة الامام عبد العزيز بهدف اعادة العلاقات الودية مع آل سعود ٠ وكان الامام عبد العزيز في ذلك الوقت قد حقق نجاحا كبيرا في نشر الدعوة الدينية الاصلاحية ودانت له بالخضوع بلاد نجد بكاملها بينما كان ابنه سعود يقود الحملات العسكرية بهدف توحيد شبه الجزيرة العربية وباتت هذه القوة وتلك الفتوحات تحدث تغييرا كبيرا في اوضاع الجزيرة العربية ٠

وعلى الرغم من ان رينو قد فشل في مهمته السياسية اذ لم يتمكن من الحصول على وعد من الامام عبد العزيز بتأمين البريد الذي يمر بالطريق الصحراوي من البصرة الى حلب الا ان رينو كان الاوروبي الوحيد الذي التقى بالامام عبد العزيز الذي وصفه بانه ذو اخلاق على درجة عالية من التحضر كما كان اول اوروبي يزور الدرعية عاصمة الدولة السعودية الاولى (٣) ٠

واذا كانت هناك بعض المصادر قد تشككت في أمر هذه البعثة بحجة عدم العثور على ما يؤيدها في الوثائق البريطانية (٤) الا انه من الثابت ورود انباء كثيرة عن هذه البعثة في المصادر المعاصرة لها ونخص منها مؤلفات بريدجس وروسو القنصل الفرنسي في البصرة هذا بالاضافة الى ان هوجارث Hogarth اشار الى رسالة شخصية بعث بها رينو الى سيتزن Seetzen كانت بمثابة تقرير عن تلك الرحلة ٠ وقد سجل رينو في هذه الرسالة التي كتبها في عام ١٨٠٥ انطباعاته عن رحلته الى نجد وقد عنى رينو على ان يؤكد فيها انه بناء على اوامر من ماينستى قام برحلته هذه على أثر ما قام به السعوديون من اغارات على بريد الشركة وكان هدفه من رحلته هذه اعادة العلاقات الطيبة مع السعوديين (٥) ٠ وانه مكث بالدرعية اسبوعا واحدا وانه ذهل لرؤيته المدينة بالغة الصغر رغم موقعها الممتاز كما ذهل لبساطة معيشة الامير الشديدة التناقض مع سلطته الواسعة الانتشار (٦) ٠

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا ان السبب في فشل بعثة رينو يعود الى عدة عوامل من بينها عدم موافقة الامام عبد العزيز على ان يلتزم بوعد بتأمين البريد البريطاني الذي يمر بالطريق الصحراوي من البصرة الى حلب في الوقت الذي كانت فيه العلاقات متدهورة بينه وبين والي بغداد حتى انه اشترط ان يقوم الصلح بينه وبين والي بغداد قبل اصدار أي وعد من جانبه غير ان العامل الهام في فشل بعثة رينو انما يرجع في تقديرنا الى ان السلطات البريطانية اخذت تنظر بعين العداء الى نمو القوة السعودية خاصة بعد ان تأكد لديها ان هذه القوة كانت اكبر حافز لنشاط القواسم على الساحل العماني وما تعرضت له المصالح البريطانية من اضرار جسيمة نتيجة لذلك (٧) ٠

ولم تكد تمضي خمس سنوات على رحلة رينو حتى بلغ النفوذ السعودي درجة كبيرة من القوة بنجاح السعوديين في الاستيلاء على مكة في عام ١٨٠٥ ولجأ شريف مكة باسلحته وامتعته الى جدة ٠ وكان استيلاء السعوديين على مكة يعد بمثابة تعد خطير على الدولة العثمانية واحرج مركزها امام العالم الاسلامي ٠ وفي نفس الوقت خشيت بعض الدول الاوروبية من وقوع اضطراب في المنطقة قد يؤثر على مصالحها فيها وكان نابليون قد وصل في ذلك الوقت الى عرش الامبراطورية الفرنسية وكانت تحدوه آمال كبيرة في اعادة النفوذ

الفرنسي الى الشرق ومن المحتمل ان يكون الامبراطور نابليون الاول قد رغب فـي ان يعلم شيئا عـن موقف مسلمي المشرق العربي من الحركة الدينية القائمة في اواسط شبه الجزيرة العربية او ان يكون قد فكر فـي الاستفادة من النتائج السياسية التي سوف تترتب على تلك الحركة لتحقيق مخططاته في الشرق ومن ثم أوفد أحد عملائه الاسبان وهو دومينجو باديـا لبليخ (٨) ليتعرف على الاوضاع في نجد (٩) ولكي يجمع معلومات عن موقف العالم الشرقي ازاء الدعوة الجديدة وعلاقتها بمخططاته في مصر والشام والشرق عموما (١٠) وقد انتحل ذلك العميل الفرنسى لنفسه اسما ونسبا ودينا عربيا (١١) ووفد الى مكة بحجة تأدية فريضة الحاج وكان يحمل معه اجهزة علمية وآلات قياسية كما احاط به جيش كبير من الخدم والاتباع (١٢) واشتهر باسم على بك العباسى حيث ادعى انه اخر سلالة العباسيين وبلغ من تضلعه فـي اللغـة العربيـة وقواعـد الديـن الاسلامي ان احدا من العرب لم يشك في امر هذا الامير المكرم والعالم المحترم والحاج الورع ولكنه على ما يظهر لم يفلح حتى النهاية في تنكره فعندما قصد الى المدينة زائرا صده عنها السعوديون فعاد الى ينبع ومنها الى مصر حيث اجتمع بنابليون وعين في حاشية اخيه جوزيف بونابرت (١٣)٠ وبعد عام من عودته الى باريس ترجمت مخطوطته من الاسبانية الى الفرنسية حيث نشرت في عـام ١٨١٤ (١٤) وتبعتهـا الترجمة الانجليزية التـي نشرت بعد ذلك بسنتين ١٨١٦ (١٥) ٠ وفي عام ١٨١٨ غادر دمشق ليعود ثانية الى مكة حيث فاجأته المنية وهو على بعد عشرين ميلا من جنوب دمشق ويقال انه مات بسبب مؤامرة انجليزية حيـث قـام احـد العملاء الانجليز بدس السم له ظنا منه انه جاسوس فرنسى (١٦) ٠ واذا صرفنا النظر عن مهمة على بك السياسية فمما لا شك فيه انه كان عالما صادق الرواية فقد اجهد ذهنه كما سبق ان اشرنـا فـي دراسة اللغـة العربيـة وشعائر الدين الاسلامي كما كان عالما مبرزا في بعض المجالات العلميـة الاخرى خاصة الجيولوجيـا والنبات والفلك (١٧) ٠

وهناك من ينفي عن على بـك العباسى صفـة التجسس ويؤكد انه كان احـد موظفـي امـارة البحر الفرنسية ارسل الى البحر الاحمر لتدويـن ملاحظات فلكية ومما يؤكد ذلك انه كـان مزودا بآلات دقيقـة كمقياس الرطوبة الجوية وآلة السدس والمرقب وغيرها وقد تمكن بالفعل ان يزود علم الجغرافيـة بمعلومـات قيمة كما تمكن بواسطة ملاحظاته الفلكية ان يحدد مواقع كثير من الاماكن التي زارها على ساحل البحر الاحمر بالنسبة الى متوازيات العرض الاستوائية مثل مينائي ينبع وجدة وغيرهما كمـا حدد بصورة تقـريبية موقع المدينة المنورة التي لم يصل اليها وموقع مكـة التي وصلها بصورة صحيحة وفيها ركز بصفة خاصة الجانب الاكبر من رحلته وبالذات على الكعبة وشعائر الحج (١٨) الا انـه عنى الـى جانـب ذلـك بوصف التكويـن الجيولوجي للجبال التي اجتازها بين ينبع والمدينة وجمع كثيرا من النباتات والحشرات وان كان قد اضطر الى اتلاف مجموعته كلها كي لا يثير الشكوك في الظروف الخطيرة التي مر بها ٠

وعلى اية حال فان رحلات على بك العباسى تستمد اهميتها في كونها عاصرت تقدم السعوديين الى مكـة وجلها معلومات كتبها شاهد عيان عن الحجاز تحت الحكم السعودي وقبيل التدخل المصري التركي (١٩) ، وقد كتب على بك عن السعوديين في الجزء الاول من رحلاته (٢٠) ووصف صلابتهـم فـي الحق وبما انهم يطيعون اميرهم طاعة عمياء فهم يحتملون من اجله كـل شدة ساكتين صابرين ويسيرون اذا امرهم الى اقصى اطراف الارض (٢١) كما عنى على بك بوصف مناسك الحج وحياة الحاج وتفوق في وصفه ذلك على غيره مـن حيث الدقة والتفصيل كما عنى بتسجيل معيشة السعوديين الاول وعن المجاعة الكبيرة التي حدثت بين سنتـي ١٨٠٤ و١٨٠٥ وعانت منها بلاد نجد اكثر من ست سنوات وزاد من خطورتها ما تعمـده السعوديون مـن منع القوافل العثمانية من المجيء الى مكة خوفا من ان يجد شريف مكة امدادات لـه فـي تلك القوافـل حيث كان يسعى الى استعادة شرافته ولعل ذلك مما يفسر لنا ما لاحظه على بك على سكان مكة من ضعف وهزال (٢٢) ٠

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجد والحجاز

وعلى الرغم مما اظهره على بك في رحلاته من انه مسلم يحترم الفرائض والمعتقدات الدينية الا انه ابدى بعض الملاحظات التي اثارت الشك في صحة معتقده الديني وحملت على الاعتقاد بتظاهره بالاسلام وانه ظل محافظا على نصرانيته ويؤكد ذلك ان صليبا كبيرا وجد عند وفاته المفاجئة مختفيا تحت ملابسه (٢٣)٠ ومن ناحية اخرى فقد ذكر بانكس Bankes في تقديمه لرحلات فيناتي Finati الايطالي التي نشرت في عام ١٨٣٠ بانه كان يهوديا كما اكد بانه كان جاسوسا لنابليون (٢٤)٠

ومهما يكن من امر فانه اذا اعتبرنا رحلات على بك العباسى تدخل ضمن المخططات النابليونية لاعادة النفوذ الفرنسى في الشرق فانها تسجل بذلك اول محاولة قام بها نابليون حينما وصل الى عرش الامبراطورية الفرنسية للتعرف على الاوضاع في قلب الجزيرة العربية حقيقة انه سبقت ذلك محاولات اخرى كان يستهدف بها بونابرت حينما كان على رأس الحملة الفرنسية على مصر الاتصال بالامير السعودي الا ان تلك المحاولات لم تنجح ولم يستطع بونابرت آنذاك ان يتعرف حتى على اسمه بالضبط رغم اتصالاته بكثير من الامراء العرب والمسلمين كما هو واضح في مراسلاته (٢٥) ٠

على أن نابليون لم يفقد طموحه في الشرق حتى بعد فشل الحملة الفرنسية واضطرارها الى الانسحاب عن مصر وكان يحرك بونابرت امل كبير هو غزو الهند وتسديد ضربة قاضية للنفوذ البريطاني (٢٦) ولعل ذلك ما يفسر لنا تأثيره على الحكومة الفرنسية لكي توفد بعثتين هامتين الى الشرق هما بعثة الكولونيل سبستياني Sebastiani الى سوريا في عام ١٨٠٢ وبعثة الجبرال ديكان Deccan الى الهند في عام ١٨٠٣ ٠

وقد حاول نابليون خلال حروبه في القارة الاوروبية ان يضم السلطان سليم الثالث في تحالف معه ضد بريطانيا ولكنه عندما فشل في ذلك اقترح لدى القيصر اسكندر الاول قيصر روسيا تقسيم الامبراطورية العثمانية وفتح ابواب الشرق وكان ذلك عند توقيع صلح تلست في عام ١٨٠٧ بين نابليون وقيصر روسيا ٠

ولما كانت الدولة السعودية لا يمكن تجاهلها في تلك الفترة فقد زود نابليون بعثة جاردان ١٨٠٨ التي كانت موجهة اساسا الى فارس ومسقط بتعليمات من شأنها ان يمتد نشاطها الى الاتصال بالامير السعودي ولكن لم تتمكن بعثة جاردان من تنفيذ تلك التعليمات خاصة وانها كانت مواجهة بالتقدم المطرد للنفوذ الانجليزي في المناطق التي وصلت اليها ولعل فشل تلك البعثة في الاتصال بالامير السعودي كان حافزا لنابليون فيما يقال ان يرسل مبعوثا سياسيا من قبله هو المسيو دى لاسكارس M.de Lascaris الى الدرعية في عام ١٨١١ حيث اجرى مجموعة من اللقاءات السياسية مع الامير السعودي وفي تلك اللقاءات طلب لاسكارس من الامير سعود ان يساعد نابليون في ضرب الامبراطورية العثمانية وتسهيل مرور الفرق الفرنسية الى الهند (٢٧) ٠

وقد ذكر ميشن Mechin ان الامام السعودي استمع الى هذه المشروعات باهتمام كبير لانها كانت تتمشى مع اهتماماته الخاصة بغزو سوريا ولكن الانجليز كانوا منتبهين الى ذلك فلديهم عملائهم في السويس وجدة ومسقط وعدن الذين علموا بالمفاوضات التي كانت تجري في الدرعية بين الامام سعود والمبعوث الفرنسي ولذلك كتبوا الى حكومتهم التي بادرت بدورها بارسال مبعوثين من قبلها الى الامير سعود وذهب اللورد كاسلريه وزير خارجية انجلترا الى درجة تقديم وعود الى الامير سعود بان تتخذ بريطانيا مساعيها الحميدة لدى السلطان العثماني للاعتراف بسلطته اذا وعد بمهاجمة تركيا ووازن سعود بين العرضين الفرنسى والانجليزي فوجد ان العرض الفرنسى يتمشى مع طموحه وقام بغزو العراق ووصل الى ضواحي سوريا عن طريق وادي السرحان على ان ميشن Mechin وقع في خطأ كبير حينما اعتبر عام ١٨١٢ هو عام الهجوم على سوريا وعزى فشله الى تحطم قوة نابليون في روسيا وانهيار التحالف الفرنسى السعودي (٢٨) في الوقت الذي

تجاهل فيه الاحداث التي وقعت في نجد قبل ذلك بعام واحد ونعني بذلك الحملة المصرية التركية بقيادة طوسن باشا في عام ١٨١١ ٠

وبمقارنة الاحداث نجد ان قبول رواية وصول بعثة فرنسية او انجليزية الى الدرعية وما ترتب على كل منهما من نتائج امور مشكوك فيها وربما كان امر ارسال بعثة فرنسية الى الدرعية مجرد مشروع فرنسي لم يتم تنفيذه (٢٩) اذ ان وثائق حكومة بومباي لا تذكر اي شيء عن تلك البعثة رغم التفصيلات الكثيرة التي اوردتها تلك الوثائق عن الاتصالات التي جرت بين الانجليز والسعوديين ٠ كما ان اخر غزو سعودي لبلاد الشام وقع في عام ١٨١٠ اي انه تم قبل عام من وصول البعثة الفرنسية الى الدرعية وبالتالي فانه من المتعذر الربط بين وصول البعثة الفرنسية وبين مهاجمة السعوديين لبلاد الشام (٣٠) ٠ ومن ناحية اخرى ان تاريخ وصول البعثة الفرنسية الى الدرعية يوافق تقدم القوات المصرية التركية الى نجد في عام ١٨١١ حيث بدأت تلك القوات صراعها ضد آل سعود واضحى السعوديون في حاجة الى اقامة علاقات ودية مع الانجليز وبالتالي فانه من غير المعقول ان يوافق السعوديون على تحالف مع فرنسا يهدف الى مساعدة نابليون في الوصول الى الهند في الوقت الذي كان فيه مركز السعوديين يعاني الكثير من الازمات التي ادت الى انهياره في نهاية الامر٠

كان من فضل السعوديين بفتحهم الحجاز انهم لفتوا أنظار العالم الخارجي

الوقت جوهان لودفيغ بوركهارت (٣٩) الذي كان يعمل لحساب الجمعية البريطانية الافريقية African Association وعلى عادة كثير من اولئك الرحالة فانهم كانوا يتخذون في البداية طريقهم الى الشام لتعلم اللغة العربية والالمام بالشعائر الاسلامية (٤٠) الى جانب التمرس الجسدي على حياة العرب الحقيقية وقد اضاف بوركهارت الى ذلك كله جهودا ذهنية مضنية بالاطلاع اطلاعا كبيرا على القرآن الكريم وشروحه التي كتبها كبار علماء الدين المسلمين الى درجة انه لم يتمكن فقط من الظهور بين الناس باسم الشيخ ابراهيم بن عبدالله بل انه اشتهر بكونه عالما عظيما في شئون الدين خلال اقامته بين ظهراني البدو واستطاع ان يضع كتابا اكثر تفصيلا مما وضعه سيتزن واسماه ملاحظات عن البدو والوهابيين (٤١) وتمكن ان يقدم فيه لوحة عن المجموعات القبلية والمميزات السياسية الخاصة بكل منها الى جانب اوضاعها الاقتصادية وتنظيماتها الاجتماعية ومبادئها الاخلاقية وعاداتها وتقاليدها (٤٢) ٠

وفي عام ١٨١٤ وصل بوركهارت الى جدة في الوقت الذي كان فيه السعوديون قد تراجعوا تاركين الحجاز والمدن المقدسة للاتراك والمصريين وعلى الرغم من ان بوركهات كان مقربا من محمد على ، الا ان ثقة محمد على فيه كانت تأخذ طريقها الى الانهيار خاصة بعد ان انتشر كتاب على بك العباسى في القاهرة وبات

السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) ولذا فان سياستها ازاء القـوة الجديـدة اصبحـت تقوم على اساسين يهدفان الى الحيلولة دون قيام وحدة سياسية قوية على الخليج والوقوف ضد التوسع المصري ولتنفيذ تلك الاهداف اتجهت السياسة البريطانية الى محاولة اقحام ابراهيم باشا في مطاردة السعوديـين وحلفائهـم القواسم بقصد التخلص النهائي منهم (٤٧) ولعلها وجدت في احتلال قوات ابراهيم باشا لنجد والاحساء فرصة طيبة لايجاد ادارة منظمة على سواحل الخليج تتعاون معها في قمع حركة الملاحة العربية التي لا تلتزم بانظمة الملاحة الدولية (٤٨) ٠

وكان هدف السلطات البريطانية من ذلك انهاك القوة المصرية التركية في عمليـات حربية برية وبحرية الى جانب التعرف على الاغراض التي كان يرمي اليها ابراهيم باشا في حروبـه وغزواتـه القادمة نحو الخليـج والتحالف معه باعتباره الرجل الجدير بان تطلق يده فـي المنطقـة وقـد كلف الكـابتـن جورج فورستـر سادلر (٤٩) للقيام بهذه المهمة حيث اوفد من قبل حكومة الهند في بعثة الى نجد لمقابلة ابراهيم باشا وتهنئته على نجاحه في القضاء على الدولة السعودية (٥٠) وان كان لم يستطع ان يحقق اهدافه اذ انه لم يحصل مـن ابراهيم باشا على موافقة صريحة على المقترحات الانجليزية التي قدمها اليه لان تعليمات والده كانت تحذره من الاتصال بالانجليز في ذلك الوقت (٥١) ٠

ابحرسادلر وهو منفرقة صاحبة الجلالةالسابعة والاربعين كمبعوث دبلوماسى من بومباي على بارجة حربية دخلت الخليج في صيف عام ١٨١٩ لمقابلة ابراهيم باشا على ساحـل الاحساء وكانـت الخطـة البريطانيـة تستهدف تكتيل قوة محمد على وسلطان مسقط ضد السعوديين والقواسم للقضاء على الملاحـة المضطربة في الخليج وقد زود سادلر بالفعل برسائل الى كل من ابراهيم باشا والسيد سعيد بهدف توثيق اواصر الصداقة فيما بينهما (٥٢) ٠ وكانت التعليمات الصادرة اليه هي ان ينزل بمسقط اولا وبعد ان يكشف للسلطان عن طبيعة مهمته مع ابراهيم باشا ويتفق معه بشأن مدى وحدود المساعدة التي على السلطـان تقديمهـا للحملـة المصرية يواصل السير الى معسكر ابراهيم باشا في الاحساء (٥٣) وكانت التعليمات الصادرة له تقضى بان يؤكد له انه بمجرد انتهاء موسم الرياح الحارة وامكان بدء العمليات العسكرية من الهند فـان قوة بريطانيـة بحرية وعسكرية كافية سترسل للتعاون مع القوات المصرية التركية في اخضاع مدينة رأس الخيمة وان هذه المدينة ستسلم بعد اخضاعهـا لاحتلال قوة مصرية تركية ٠ واما الخطابات التي كان يحملها سادلر معه كانت تهنىء ابراهيم باشا على الانتصارات التي احرزها وكان على سادلر طبقا للتعليمـات التـي زود بهـا ان يقوم بدراسة موقف القوات المصرية التركية في وسط الجزيرة العربية وان يحاول التعرف بالدرجة التي يتمكـن فيها من ذلك دون ان يكشف اهتمامه الكبير بخطط ابراهيم باشا المستقبلة تجاه منطقة الخليـج ومهما كانـت هذه الخطط فقد كان عليه الا يقدم لابراهيم باشا ضمانا باسم الحكومة البريطانية ابعد من عملية رأس‌الخيمة وكان على سادلر ايضا ان يجمع المعلومات التي يستطيعان يجمعها بالنسبة لجغرافية وسط الجزيرة العربيـة ومصادرها (٥٤) ٠

وقبل ان يصل سادلر الى مكان الاحداث كانت الظروف السياسية قد تغيرت بحيث جعلت تحقيق اهم جانب من جوانب مهمته امرا مستحيل الحدوث الا ان الجهود التي بذلها من جانبه قد اثبتت انه يتمتع بطاقة كبيرة وقدرة على الاستمرار وتحمل المشاق هذا الى جانب انه احرز السبق كأول اوروبي يستطيع ان يقطع القارة العربية من الشرق الى الغرب في اكثر فصول السنة حرارة واشدها لهيبا ٠ وصل الكابتن سادلر الى مسقط في ٧ مايو ١٨١٩ واستمر بها حتى ١٨ مايو (٥٥) ونجح في خلال زيارته ان يحصل من السيد سعيد على تقدير دقيق عن الوضع السياسي للقواسم وقوتهم العسكرية الى جانب وعد مـن السلطان بـان يتعاون شخصيا مع الحملة البريطانية على رأس قوات كثيرة العدد وتحديدا دقيقا للدور الذي يستطيع ان يؤديه في هذه الحملة قدم السيد سعيد تعهدا تفصيليا بالمعاونة في النقل والشحن البحري ٠ على ان شيئا واحدا رفضه

السيد سعيد واصر على رفضه وهو عدم قبوله التعاون بين قواته وقوات المصريين بالنظر الى ان الاطاحة بحكمه كانت في عداد الاعمال التي صدر الامر لابراهيم باشا بالقيام بها وبالاضافة الى ذلك كان السيد سعيد يرى في تعاون المصريين في حملة رأس الخيمة أمرا يهدد اقاليمه ابلغ تهديد كذلك افصح السلطان لسادلر عن اعتقاده بان ابراهيم باشا لن يستطيع البت في المقترحات البريطانية دون الرجوع الى محمد على باشا كذلك كان مقتنعا بان رحلة الكابتن سادلر لن يمكن اتمامها قبل الموعد المحدد الحملة الا لو تم تأجيل موعدها واثبتت الاحداث التالية صدق توقعه في الحالتين اذ تأخر الكابتن سادلر في رحلته من مسقط الى بوشهر نتيجة الرياح المعاكسة ولم يستطعان يصل الى القطيف التي كان مفروضا ان يبدأ فيها اتصالاته مع القائد المصري قبل يوم ٢١ يونيه ١٨١٩ (٥٦) وهناك وجد المصريين قد انسحبوا وانتهى احتلالهم القصير لشرق الجزيرة العربية وهكذا بدلا من ان يجد سادلر السلطة المصرية التركية الجديدة مستتبة وجد ممثلا لابراهيم باشا لا سلطة فعلية له متأهبا للانسحاب مع فصيلة الجند التابعة له ومع ذلك فقد ظل سادلر على يقينه بأن مهمته لا زالت مستمرة وعليه ان يوصل الخطابات التي يحملها الى هدفها ٠ وقد علم سادلر ان ابراهيم باشا لا بد وان يكون في مكان ما في نجد ولكنه لم يتمكن من حمل احد على ان يذكر له اسم المكان الذي يستطيع ان يجده فيه لانه عوضا عن الاحتفاظ بالاماكن التي افتتحها كما كانت تأمل انجلترا كان الباشا قد غادر الدرعية وبدأ الجلاء التام عن المنطقة ٠ وقد اصطحب سادلر جماعة من بني خالد ليصحبوه في رحلته من القطيف الى الهفوف وفي هذه الرحلة تعرض سادلر لمتاعب شديدة وفي الهفوف استقبل استقبالا حسنا من قبل محمد اغا الكاشف الحاكم المصري في الاحساء الذي ابدى اهتماما كبيرا بمهمة سادلر (٥٧) ومن الهفوف التي وصل اليها سادلر في ١١ يوليه ١٨١٩ صحب بقية القوات المنسحبة بغير نظام الى الدرعية وشقرة ثم رأس القصيم حيث وصلها في ٢٦ اغسطس وليعرف هناك ان ابراهيم باشا قد غادرها منذ يومين فقط الى المدينة ومن رأس القصيم كان يستحيل على سادلر بحكم جغرافية البلاد نفسها ان يرجع الى الخليج وكان عليه ان يستمر في صحبة القوات المصرية الى المدينة فوصلها في ٦ سبتمبر ١٨١٩ (٥٨) وفي ٨ سبتمبر استطاع سادلر في النهاية ان يلتقي بابراهيم باشا (٥٩) وفي اليوم التالي سلمه الخطابات المرسلة اليه من الحاكم العام بالهند وحاكم بومباي مع سيف هدية من الحاكم الاول للباشا المنتصر غير ان الباشا أوضح لسادلر أنه لا يستطيع أن يقرر أي شيء الا بعد رفع مقترحات الحكومة الهندية رغم استحالة تنفيذها في ذلك الوقت الى ابيه في القاهرة ثم سار الباشا بعد ذلك للحج الى مكة واضطر سادلر للذهاب الى ينبع مع حريم الباشا وفي ينبع ظل سادلر ينتظر نتائج بعثته حيث أصابته حمى عنيفة عانى منها كثيرا وبعد انقضاء فترة كافية لوصول الرد من القاهرة تبع الكابتن سادلر ابراهيم باشا الى جدة غير انه تبين له ان لهجة الباشا التي كانت من قبل ودية ولينة قد اصبحت الآن جادة وعنيفة كما ظهر له ان الباشا لم يعد مهتما أي اهتمام بالخليج العربي ومشاكله وأخيرا وبعد أن تعمد ابراهيم باشا اهانة حاكم الهند فيما يتعلق بالهدية التي كان عليه ان يردها اليه حيث سلم سادلر بصورة لا تخلو من السخرية بعض الخيول الرديئة انهى سادلر مفاوضاته في ٢٤ نوفمبر ١٨١٩ ولكنه ظل محتبسا أربعة أشهر أخرى في جدة الى أن حدث في ٢٣ يناير ١٨٢١ أن كانت احدى سفن شركة الهند الشرقية البريطانية East India Company في زيارة لجدة فاستقلها سادلر وعاد بواسطتها الى بومباي بعد رحلة استغرقت حوالي تسعة أشهر بذل فيها سادلر كل ما يمكنه من جهود للتغلب على عقبات ومشاكل كثيرة صادفته (٦٠) وفي شهرابريل ١٨٢١ قرىء أول تقرير كتبه سادلر عما قام به في رحلته في الجمعية الادبية في بومباي (٦١) ولكن قصة رحلته لم تنشر الا بعد ذلك بنصف قرن وعلى وجه التحديد في عام ١٨٦٦ بعد أن اثارت رحلة وليم جيفورد بالجراف الاهتمام ببلاد نجد واواسط الجزيرة العربية (٦٢) ٠

وقبل أن نأتي الى رحلة بالجراف ينبغي أن نشير هنا أنه كان من أبرز آثار الحكم المصري لنجد ١٨١٨-١٨٤٠ أنه أفسح المكان لبزوغ نجم آل الرشيد الذين كانوا يتزعمون آنذاك عشيرة شمر ونجح زعيمهم عبد الله

ابن الرشيد في تأسيس امارة له في القسم الشمالي من نجد وأتخذ من مدينة حائل مـركزا لامارتـه منذ عام ١٨٣٥ ويبدو أن موقف آل الرشيد الذين اتخذوا فيهجانب الحياد حينما قام المصريون بمهاجمـة السعوديين كان السبب في بزوغهم الى السلطة اذ اعتبرهم محمد علي ميالين اليه ولذلك لم يعامل سكان نجد الشمالي المعاملة القاسية التي استهدف لها سكان نجد الجنوبيبل اكتفى أن يترك في حائل حامية عسكرية ثابتة ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أنه على الرغم من معاهدة لندن ١٨٤٠ كانت تلـزم محمد علي بالانسحـاب من المناطق التي توسع فيها في كل من الشام والجزيرة العربيـة الا أن محمد علي لم يتخل عن أملـه بالاحتفـاظ بسلطته في شبـه الجزيرة العربيـة اذ اتـاح الفرصة لفيصل بن تركي الذي كان قد احتجزه في القاهرة منذ عام ١٨٣٥ لاستعادة سلطته في الريـاض ١٨٤٢ تحت السيادة المصرية وأصبح عبـد الله بن الرشيد تابعـا لفيصل بن تركي لكن في الـواقع كان التابع الاقـوى بين الاميرين خاصة بعد أن أمتدسلطان الرشيد سلميا فشمل جميع انحاء نجد ولعل هذا الوضع هو الذي كان يشغل بال محمد علي فيتساءل ما هي حقيقة منافس فيصل هذا وما هو المدى الحقيقي لسلطته (٦٣) ولعل ذلك كان دافعا لكي يبعث محمد علي بأحد الرحالـة الاوربيين الذي كان مقيما بمصر في ذلك الوقت وهو والان (٦٤) وهو عالم فنلندي من رعايا روسيا القيصرية كان يعمل استاذا بجامعة هلسنفورس Helsingforth وكان مهتما بشؤون الجزيرة العربيـة لكي يذهب الى حائل ويتعرف على الاوضاع السياسية في تلك المنطقة التي باتت تسترعي انتبـاه محمد علي وربما كان مكلفا بغرض سياسي أكثر تحديدا كما يقرذلك كل من لوريمر (٦٥) وهو جارث وان كان كرنان يعتبر ذلك لا أساس له من الصحة (٦٦) وعلى أية حال فقد كان معروفا عن الهدف الظاهري لرحلة والان أنه ارسل من قبل محمد علي الى حـائل ليشتـري خيـولا للباشا وهو أمر غير منطقي بالنسبة لمحمد علي الذي كان عنده بلا شك كثير من الوطنيين المهتمين بتلك التجارة أكثر من اهتمام ذلك العالم الاوروبي الشاب (٦٧)٠ وقد قام والان برحلتين متتاليتين الى حائل كانت الرحلة الاولى من الشمـال حيث سلك والان في عـام ١٨٤٥ طريق سينا متوجها الى عمان حتى لا يثير الشبهات حول نفسه في حالة قدومه من مصر مباشرة أما المرة الثانية فقد كانت عن طريق مكة والمدينة مع القافلة القادمة من بلاد مـا بين النهرين وكـان ذلك في عـام ١٨٤٨ حيث تمت هذه الزيارة بعد سنة واحدة من وفاة عبد الله بن الرشيد (٦٨) وقد استطاع والان ان يقدم معلومـات فريدة عن آل الرشيد كما دون ملاحظات كثيرة عن مدينة حائل فوصف شوارعها ومنازلها وقصر اميرها الذي ذكر انه لا يختلف عن غيره من المنازل الا بكبره وامتداد مساحته اللازمين لايواء اسرته الكثيرة العدد والجمهور الغفير من الضيوف الذي كان يقدم لهم الطعام طول السنة وتحدث والان كثـيرا عن شخصية عبد اللـه بن الرشيد وعنابنائه متعب وطلال والنفوذ المتصاعد لعمهما عبيد بن الرشيد والأمر الذي لا شك فيه أن بعثـة والان لم تؤد الى نتائج ملموسة بالنسبة لآمال محمد علي في نجـد حيث أخذت اهتماماتـه تتلاشى نهـائيا بالجزيرة العربية خاصة في سنواته الاخيرة ٠

على أن الاهتمام بشئون نجد كان يدفع الامبراطور نابليون الثالث الى تمويل عدة رحلات قام بها كل من وليم بالجراف وكارلو جورماني اذ كان نابليون الثالث متطلعا الى استعادة مركز فرنسا في الشرق أو على الاقل بعض ما كان لها من نفوذ وان كانت هزيمة فـرنسا امام المانيا في الحرب السبعينية قـد حالت بينها وبين المضي في تنفيذ أهدافها (٦٩) ومما يؤكد لنا اهتمام فرنسا بالشرق تدخل نابليون الثالث في حـوادث الستين في سوريا ولبنان وارساله حملة عسكـرية احتلت ميناء بيروت وتلكأت الحملة في الانسحاب حتى بعد قمع الفتن الطائفية حتى وضح أن لفرنسا هدفا آخر أكثر من حماية المسيحيين في سوريا ولبنان كما صرح بذلك اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية ٠ وفي اعقاب حوادث الستين استدعى الامبراطور نابليون الثالث القس بالجراف الذي كان يعمل باحدى المؤسسات الفرنسية التبشيرية في زحلة بلبنان باسم الأب ميخائيل حيث عهد اليه القيام بمهمة سياسية في بلاد العرب (٧٠) ومما يؤكد الاهداف السياسية لرحلة بالجراف ما ذكره الامام فيصل بن تركي في محادثـاته مع الكولونيل لوسي بلى Pelly في الرياض

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجد والحجاز

في عام ١٨٦٥ من أنه تلقى مرتين عروضا سخية من الحكومة الفرنسية بالعون والمساعدة وكان العرض الثاني يتفق في توقيته تماما مع رحلة المستر بالجراف حيث طلب المبعوث الفرنسي من الامام فيصل أن يبلغ رده للقنصل الفرنسي في دمشق ولكن الامام فيصل شكر المبعوث الفرنسي وأوضح له انه ليس في حاجة الى مساعدة فرنسا في ذلك الوقت (٧١) ٠

ومن المؤرخين الذين يؤيدون البواعث السياسية لرحلة بالجراف يجدر الاشارة الى كل من لوريمر

وقد درس بالجراف الطب باعتباره وسيلة التفاهم بين شعوب الشرق في ذلك الوقت واتخذ طريقه أولا الى شمر التي تقع في القسم الشمالي من نجد والتي بدأت في الظهور منذ العهد الاول لحكم الامام فيصل ابن تركي وعلى وجه التحديد في عام ١٨٣٥ تحت التبعية المصرية السعودية (٧٤) وقد جاء بالجراف الى نجد في العهد الثاني للامام فيصل بن تركي ١٨٤٢ ـ ١٨٦٥ فساح في الجبيل والقصيم ونزل من بريدة الى العارض عن طريق سدير وأقام في الرياض وضواحيها خمسين يوما ثم رحل الى الاحساء ومنها الى الخليج العربي في عام ١٨٦٣ (٧٥) ٠

وقد أورد بالجراف تفصيلات كثيرة عن رحلته فهو يستهل كتابه (٧٦) بقوله « ربما تساءل القارىء عن غرضي الخاص من تلك الرحلة المليئةبالمخاطر والبواعث الدافعة اليها ٠٠٠ لقد دفعني ذلك الامل الى الاسهام في تقدم هذه المناطق الاجتماعي والرغبة في بعث ماء الحياة الشرقية الراكدة بملامسة التيار الاوربي السريع والرغبة الملحة في الاطلاع على ما لا يعلمه أحد غيري وأخيرا روح المغامرة التي فطر عليها قومي الانجليز تلك كانت هي الدوافع الرئيسية للقيام بمغامرتي هذه ولأضف الى ذلك أنني كنت مرتبطا آنئذ بالمنظمة اليسوعية الشهيرة في الخدمات الانسانية الجريئة المخلصة واعترف في نهاية الامر أن الامبراطور الفرنسي هو الذي قدم لي بسخاء الاموال التي احتجتها لرحلتي هذه (٧٧) والواقع ان علاقة فيصل بفرنسا تبدو سرا غامضا وهي تعزى الى بالجراف الذي كما هو واضح من كتاباته يعزى أن نابليون الثالث هو الذي كان يدفع له نفقات رحلاته (٧٨) ٠

وواضح أيضا ان بالجراف يقرر أن الغرض الاساسي من رحلته هو التبشير بالحضارة الاوربية في بلاد الشرق وهو يتعمد بذلك اضفاء نواح حضارية على رحلته هذه ولكن الوقائع التي رواها تدل على انه كان مكلفا بمهمة سياسية واسعة النطاق والثابت انه كانت هنالك رغبة من الامبراطور الفرنسي في معرفة مقدار القوة

اعجابه بامارة آل الرشيد وبتنظيماتهـا الداخلية ومحاولتها الانفصال والاستقلال عن آل سعود وما تتطلع اليه من تجميع القبائل تحت لوائها (٨٠) ٠

وعلى الرغم من أن بالجراف كان عنيفا في الافصاح عن كراهيته للسعوديين الا أنه انصف الامـام فيصل ووصف حكمه بالعدل وحـرية التجارة (٨١) فقد قـال يصف حكمه « ان القوافل تجتاز القصيم وسديـر والوشم ومقاطعات نجد الاخرى آمنة بفضل الحكم السعودي شـر البدو وتعديـاتهم ويسير التجـار والحجـاج والفلاحون في البلاد بأمن وسلام » ٠ (٨٢) ٠

ومما لا ريب فيه أن نابليون الثالث قد احس بانزعاج شديد حينمـا نشر كتاب بالجراف وظهر فيه تمسيحات واضحة الى الاوامر السرية التي تلقاها من الامبراطور الفرنسي ولعل ذلك يجعلنـا نتساءل عما اذا كان ادعاء بالجراف بكـونه مبعوثا سريا مكلفا بمهمـة سياسية أمر حقيقي أو أنه مجرد ادعاء زائف من قبل بالجراف ويتساءل البعض عما اذا كان من المنطقي أن يفشي بالجراف مهمته السرية فور عودته من بلاد نجد بحيث تبدو وكأنها لا تهدف الى شيء سوى اثارة شبه الجزيرة العربية (٨٣) ٠ ومن ناحيـة اخرى ظهـر ان بالجـراف كـان شخصـا غـير جـدير بالثقـة اذ كـان متـرددا في شخصيتـه وفي اهـدافـه وفـي وفي ميـوله فقد كان يهوديا ثـم تكثلك وعمل في سلك الجـزويت ثم عـاد الى البروتستانتيـة (٨٤) بل أن فيلبي Philby يفتـرض أن بالجـراف لـم يذهب الى الجـزيرة العربيـة وانمـا ارسـل انـاسـا الى هنـاك لجمـع المعلـومـات التـي تساعده علـى الاجـابة فيما كـان مكلفـا بـه من مهام سياسية والجدير بالذكر أن فيلبي أفـرد ما يقرب من أربعين صفحة في كتـابه استند فيها على اخطـاء بالجراف الطبوغرافية بالتأكيد على انه لم يقم بالرحلة التي ادعى القيام بها كما استنـد فيلبي ايضا على مـا ذكره بلي في تقريره عن زيارته للرياض في عام ١٨٦٥ ان الامام فيصل أكد له انه اول من جـاء الى الرياض من الاوربيين (٨٥) وان كان ذلك في اعتقادنا لا يقلل من احتمال ذهاب بالجراف الى الرياض متخفيـا ولم يفصح عن جنسيته الحقيقية لدى الامام فيصل ٠

على أنه مما يؤكد لنا الاهتمام الفرنسي بشئون الجزيرة العربية أن الامبراطور نابليون الثالث مـول رحلة كارلو جورماني Carlo Guarmani التي قام بها في عام ١٨٦٣ الى امير شمر وكان هـدف رحلته الظاهري شراء خيول للاصطبل الامبراطوري (٨٦) وكان لكتابه الذي قام الآباء الفرنسيسكان بطبعه طباعة متواضعة وترجم على الفور الى اللغة الفرنسية يحتوي على معلومات كثيرة عن بلاد شمر وأمراء آل الرشيد وعلى الرغم من المعلومات الكثيرة التي أتى بها جورماني ومن قبله والان السابق اشارتنا اليه عن زيارته لشمالي نجد فان الشهرة لم تكن من نصيب اي منهما بل كانت من نصيب بالجراف الذي أحدث كتـابه دويا بالغـا حيث أستقبل لدى نشره في عام ١٨٦٥ باللغة الانجليزية كأعظم كتاب وضع عن شبه الجزيرة العربية وترجم بعد سنة من صدوره الى الفرنسية ثم الالمانية وبعد انقضاء عشر سنوات على ذلك نشرت التـرجمـة الفـرنسية مختصرة وتمكن جيل بكامله من معرفة شبه الجزيرة العربية بعيني ذلك المؤلف الساحر (٨٧) وذلك قبل أن يقوم دوتي Doughty بعمله الرائع بعد ذلك (٨٨)٠

وقد اثارت رحلات بالجـراف وغـيره من الرحالة الذين كانوا يعملون لحساب الامبراطور نابليون الثالث روح التنافس بين انجلترا وفـرنسا على اكتساب النفوذ في الشرق اذ خشيت بريطانيا ان تؤدي تلك الرحلات الى نتائج ضارة بمصالحها ولعل ذلك كان دافعا لقيام الكولونيل لويس بلى برحلته المشهورة الى الرياض لمقابلة الامام فيصل بن تركي والحصول على صداقة الامير السعودي الذي كـان يهم بريطانيا أكثر من اهتمامها بالامـير الرشيدي وذلك بسبب انتشار النفوذ السعودي على سواحل الخليج العربي والى جانب الهدف السياسي لرحلة بلى فقد ارتبطت رحلته أيضا بتحقيق بعض المشكلات العلمية اذ من المعـروف أن رئيس الجمعيـة الجغرافية الملكية في بومباي انتهز فرصة سفر الكولونيل بلى الذي كان يعمل آنذاك مقيما سياسيا لبريطانيا في بوشهر

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجـد والحجاز

لكي يلفت نظره الى التقرير الذي قدمه بالجراف (٩٠) واقنعه بالقيام برحلة الى تلك المناطق مظهرا له أهمية تحديد المواقع الجغرافية لكل من الرياض والهفوف وكان بلى يهدف الى اثبات أن وسط الجزيرة العربية ليس منطقة يصعب اقتحامها علىضابط بريطاني يؤدي وظيفته كما كان يأمل أن يلقي الضوء على جغرافية هذه البلاد وشيئا من تاريخها الطبيعي ٠

على أن الهدف الرئيسي لرحلة بلى كان واضحا بتكليف صريح من حكومة الهند التي كانت تخشى من أن يترتب على استمرار معاداتها للسعوديين أن ينتشر نفوذهم على سواحل الخليج فيضروا بتجارتها خاصة بعد أن انضم كثير من الرؤساء المهادنين الى فيصل بن تركي بحيث اصبح من المشكوك فيه ابقاء تعهداتهم الخاصة مع الحكومة البريطانية ولذلك كان من أهداف زيارة بلى الحصول على وعد من الامير السعودي بعدم اضرار رعاياه بالتجارة البريطانية في الخليج وكذلك التباحث معه في الامور الناتجة عن تضارب المصالح الانجليزية والسعودية في منطقة الخليج ٠

وكانت الكويت هي نقطة البدء في رحلة بلى التي وصل اليها في يناير ١٨٦٥ وكان يصحب الكولونيل بلى دكتور و٠هـ٠ كولفيل Colvill طبيب المقيمية البريطانية والذي جعله الكولونيل بلى مسئولا عن بعثته من الناحية الصحية ومسئولا عن بعض الابحاث المتعلقة بالجيولوجيا وعلم النبات والملازم ديفز E. Davies من البحرية الهندية وكانت مهمته مراقبة خطوط الطول والعرض ثم مترجما اسمه ، لوكاس وهو مسيحي من أهل الموصل اعتنق الاسلام وتسمى بعبد الله وكانت قافلة بلى كلها تضم حوالي ثلاثين بعيرا وجماعته بما فيها الحرس الهندي والخدم ورجال الابل لاتزيد عن ثلاثة وثلاثين رجلا (٩١) ٠

وقد بدأت القافلة سيرها من الكويت في ١٧ فبراير ١٨٦٥ واتخذت طريق وفرة ووبره ورميحية الى سدوس في عريضة ومنها عادت لتأخذ طريقها هبوطا في وادي حنيفة الى الرياض فوصلتها في ٥ مارس وفي اليوم التالي قام الكولونيل بلى ومعه مساعدوه جميعا بزيارة الامام فيصل زيارة للتحية في قلعته بوسط المدينة في الرياض وفي اليوم التالي تم عقد اجتماع خاص بينهما لم يصحب المقيم فيه سوى مترجمه فقط وكان الامام فيصل في ذلك الوقت قد تقدم به السن وفقد بصره تماما ٠

وفي كلتا المقابلتين كان حديث المقيم البريطاني مع الامير حديثا شاملا احتلت الموضوعات السياسية الجانب الاكبر منه وفي خلال الحديث أشار الامير فيصل اشارة عارضة على ان له السيطرة المطلقة على كل شرق الجزيرة من الكويت الى رأس الحد وما وراءها (٩٢) ٠

وفي لقاء بلى الاخير مع الامير فيصل طلب الامير فيصل أن يبلغ فيما بعد بالمخالفات التي يرتكبها رعاياه على الساحل وأكد الامام فيصل صداقته لبريطانيا وعزأمله في أن تنتظم المراسلات بينهما وفي مساء ٨ مارس تركت قافلة بلى الرياض ووصلت في ١٨ منه الى مرسى سفينة المقيمية في العقير (٩٣) ٠

والتفاصيل الكثيرة عن رحلة بلى والنتائج التي توصل اليها بعث بها في تقرير الى حكومة بومباي يحتوي ذلك التقرير على معلومات ذات أهمية بالغة عن علاقة بريطانيا بأمور نجد حتى وفاة الامام فيصل في ٥ ديسمبر ١٨٦٥ (٩٤) وكان بلى فيما يبدو مقدرا لقوة الامام فيصل وأكد انه كان يهدف من هذه الزيارة اقامة علاقات صداقة مع الحاكم السعودي (٩٥) وجاء في تقريره « لقد شعرت واثقا أنه اذا ما استطعت أن أعيد اقامة العلاقات مع حاكم مثله فاننا نستطيع أن نتوقع فائدة من نفوذه على رؤساء الساحل دون أن نخشى من أن هذا النفوذ سيبذل في اتجاه يتنافى والاتجاه التمديني (٩٦) » وأكد بلى أن جميع الاطراف تعترف بأن الامير فيصل هو حاكم فريد عادل لم يسبق له مثيل في النجاح فهو يكبح جماح قبائله ويوجه افكارهم نحو الزراعة والتجارة ويود أن يزرع بينهم عادات المتحضرين (٩٧) ٠

ولكن بلي كان يدرك مع ذلك ضعف الامام وفقده لبصره وشبح الحرب الاهلية التي كان متوقعا حدوثها والتي حدثت بالفعل بين ابناء الامام فيصل عقب وفاته في ديسمبر ١٨٦٥ (٩٨) ٠

على أن قوة الامام فيصل كانت قد بلغت ذروتها عند زيارة بلي ويتضح ذلك من البيان الذي قدمه الامام فيصل عن مدى اتساع املاكه فذكر انها تضم أراضيجزيرة العرب من الكـويت الى القطيف ورأس الخيمـة وعجمان ورأس الحد وفيما وراءها ، ولا يطعن بلي في دقة هذا البيان سواء في الحديث الذي دار بينه وبين الامام او في تقريره الى حكومة بومباي فذكر عن الدولة السعودية انهـا تسيطر على ساحل الخليـج الغربي وساحل عمان وتتلقى الاتاوات نقدا أو عينا من رؤساء البحرين وأبو ظبي ودبي وام القوين والعجمان والشارقة ورأس الخيمة كما انها تملك مركزا عسكريا بارزا يقع على مسافة من ممتلكات أولئك الرؤساء وسلطنة مسقط التي تدفع الجزية دون مقابل ما من مساعدة أو حماية (٩٩) ٠

وتحدث الامام فيصل عن عمان فذكر أن العلاقات كانت منتظمة بينها وبين السعوديين على عهـد السيد سعيد ولكن السيد ثويني يختلف عن ابيه ويجب اخضاعه بالقوة وعلى الرغم من أن بلي قد أوضح عن رغبته في أن تعيش القبائل العربية في سلام الا انه رفض عقد اتفاقية اقترحها عليه احد مستشاري الامام فيصل تنص على أن تدفع حكومة الهند مبلغا من المال لعرب صور وعمان وغيرهم من قبائل الخليج في نظير أن يمتنع هؤلاء عن الحاق أية خسائر بمنشآت البرق البريطانية الموجودة في أراضيهم ٠

حققت بعثة بلي نجاحا كبيرا في تحسن علاقة الانجليز بالسعوديين اذ أظهر الامير فيصل استعداده كما سبق أن أشرنا بمعاقبة رعايـاه الذين يخلون بأمن الملاحة البحرية الذي فرضته بريطانيا على سواحل الخليج وبعث بتعليماتـه الى الحكام التـابعين له على ساحل الخليج بمراعاة ذلك في مقابل تعهد بريطانيا بحماية مصالحه وعقب وفاة الامام فيصل بعث أبنـه عبد الله بتعهد من قبله بعدم الاعتداء على الامارات التي ترتبط مع الحكومة البريطانية بمعاهدات خاصة سيما سلطنة مسقط بخلاف تلقى الزكاة المتفق عليها وسوف يتكرر ذلك النص في المعاهدات البريطانية السعودية التالية كما هو واضح في اتفاقية دارين « القطيف » ١٩١٥ واتفاقية جـدة ١٩٢٧ (١٠٠) ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن الرحلات الاوروبية الى نجد قد توقفت منذ أيام الرحالة الذين ارتادوها في سبعينيـــات وثمـــانينيـات القـرن التـاسع عشـر من أمثـــال دوتي Doughty (١٠١) وبلنت Blunt (١٠٢) وهيبرت Hubert (١٠٢) وانقضت بعد ذلك عدة سنوات قبل أن يعاود الرحالة الاوربيون الاهتمام بشئون نجد ويرتادها رحالة آخرون من أمثال جيرارد ليشمان Leachman والوي موصل ولم يكن لاولئك الرحالة فيما يبدو أهداف سياسية وان كانت رحلاتهم قد استغلت فيما بعد لتحقيق أهداف سياسية فيقرر لورنس مثلا أنه استفاد من رحلات دوتي في التنقل من مكان الى آخر في الجزء الغربي من الجزيرة العربية (١٠٣) ٠ ومن ناحيـة أخرى فقد استغل بعض اولئك الرحالة لتحقيق أغراض سياسية محلية ولعل أبرز مثل على ذلك ما حـدث مع الرحالـة جيـرارد ليشمان الذي وصل الى نجد في عـام ١٩١٣ قادما من الشام بطريق الجوف وكان يهدف اجتياز الربع الخالي من واحة جبرين الى عمان ولكن الامـام عبد العزيز بن سعود اعتقد انه يتجسس لحساب الاتراك في الوقت الذي كان قد اعتزم فيه ضم الاحساء وانتزاعها من الدولة العثمانية ولذلك رأى أن يستخدم ذلك الرحالة لازالة ريب الاتراك في امـره فبعث به الى متصـرف الاحساء التركي باعتبـاره مجهول الهوية وليس معه توصية من الحكـومة البـريطانية حيث ادعى انـه رعية انجليزية وواضح ان الامام عبد العزيز فعل ذلك من أجل تغطية استعداداته العسكرية في الوقت الذي كان يتأهب فيه لاسترداد الاحساء والجدير بالذكر أن جيرارد ليشمان قد عين فيمـا بعد مستشارا في حكومـة العراق ولما اشتعلت ثورة العشرين كان حاكما سياسيا فـي لـواء الدليـم وقـد قتل خـلال انـدلاع تلـك الثورة (١٠٤) ٠

الدوافع السياسية لرحلات الاوربيين الى نجد والحجاز

على انه ينبغي أن نشير الى أن الاحداث المضطربة في أواسط الجزيرة العربية كانت عائقا دون قيام الرحالة بارتيادهم خلال الفترة من اواخر القرن التاسع عشر وحتى السنوات الاولى من القرن العشرين اذ تميزت تلك السنوات بالصراع بين آل سعود وآل الرشيد بالاضافة الى الجهود التي قام بها الامام عبد العزيز ابن سعود لاسترداد حكمه وما تبع ذلك من ضمه للقصيم ووصوله الى سواحل الاحساء حيث أصبح في ملتقى التيارات السياسية المختلفة والثابت ان فرنسا تقربت اليه فأرسلت اليه مبعوثا منقبلها تقابل معه في الرياض وتباحث معه في تجارة الاسلحة وبيعها في مواني العقير والقطيف (١٠٥) كما أوفدت بريطانيا اليه وكلائها في البحرين والكويت اجتمع بهم في العقير ولكن نشوب الحرب العالمية الاولى كان دافعا لبريطانيا على وجه خاص لمواصلة نشاطها في الجزيرة العربية لكي تكتسب الزعماء الى جانبها (١٠٦) ففي خلال المرحلة الاولى من الحرب رأت الحكومة البريطانية أن تحدد موقفها من الحركة العربية والزعماء العرب فقررت عقد مؤتمر في القاهرة ضم جميع المتخصصين في المسائل العربيةوحضره موظفو المكتب العربي وممثلون عن حكومة الهند كما وصل السير برسي كوكس ليمثل رأي موظفي الخليج وعقد الاجتماع برئاسة السير وينجات المندوب السامي في مصر وقد ركز برسي كوكس خلال الاجتماع على امكان التفاهم مع عبد العزيز بن سعود تقديرا للمركز الذي وصل اليه في اواسط الجزيرة العربية وسواحل الخليج خاصة بعد ضمه للاحساء ١٩١٣ (١٠٧) وكان ذلك مما اتاح لشكسبير الوكيل البريطاني في الكويت زيارة الرياض بهدف مقابلة عبد العزيز بن سعود والحصول منه على ضمانات ودية لصالح الحلفاء (١٠٨) والحقيقة أن عبد العزيز بن سعود وجد نفسه عند نشوب الحرب تتجاذبه تيارات عنيفة وقد حاول الاعتماد على رؤساء العرب فسعى الى مراسلة الشريف حسين وابن الرشيد وابن الصباح وطلب اليهم الاجتماع للمذاكرة والاتفاق وكان مما كتبه اليهم قوله « لقد علمتم ولا شك بنشوب الحرب فأرى أن نجتمع للمذاكرة علنا نتفق وننقذ العرب من اهوالها ونتحالف مع دولة من الدول لصيانة حقوقنا وتعزيز مصلحتنا » ٠ وبعد أن بعث الرسل بهذا الكتاب جاء طالب النقيب من قبل الاتراك يسترضي ابن سعود ولكن الانجليز كانوا في اثناء ذلك قد احتلوا البصرة وجا الكابتن شكسبير الذي كان قد اجتمع بابن سعود من قبل ذلك في العقير يحمل في حقيبته تفويضات لا قيد يقيدها سوى المصلحة البريطانية واقترانها بمصلحة نجد (١٠٩) ولا شك انه كان من نتيجة بعثة شكسبير عقد معاهدة بين بريطانيا وابن سعود وهي المعاهدة المعروفة بمعاهدة دارين ديسمبر ١٩١٥ ٠

وقد بعث شكسبير بتقرير مفصل الى حكومته عن مشاهداته في نجد واكد في تقريره نجاح ابن سعود في السيطرة على القبائل وكبح جماح عوائدها المتوارثة واشاعة الامن في البلاد بعد ان كانت صحراء نجد موطنا للقتال والنهب وكان شكسبير مزودا بتعليمات من برسى كوكس الذي كان يشغل في ذلك الوقت القائد السياسى لقوات حملة العراق بان يستغل طموح عبد العزيز بن سعود فيجعله يعلن الحرب على تركيا على ان تتعهد بريطانيا بمساعدته اذا ما قام بهجوم على الشام او العراق لتحريرهما من سيطرة الاتراك (١١٠) كما عرض عليه شكسبير ان يعاون الجيش الانجليزي في الهجوم على البصرة ولكن ابن سعود وقد ادرك خطورة هذه المغامرة رفض الاجابة على طلب شكسبير واوضح له انه يود من صميم قلبه تحرير البصرة من الحكم التركي ولكنه يرى ان تعقد بينه وبين انجلترا معاهدة صريحة محددة الشروط والاهداف اذ كان ابن سعود يخشى ان تحتل انجلترا موانىء نجد والاحساء باعتبارها من ممتلكات الدولة العثمانية ولذلك كان في أمس الحاجة الىعقد اتفاق مع بريطانيا تعترف له فيه بأنهذه البلاد بلاده وانه مستقل فيها (١١١) ومن ناحية اخرى كان الانجليز يرون ان عقد هذه المعاهدة ستؤمن احتلالهم للبصرة اذ باستطاعة ابن سعود ان يجعل قبائل شمر ورئيسها ابن الرشيد والمنتفق ورئيسها عجمي السعدون مضطرة للبقاء على الحياد بدلا من تهديدها الجناح الايسر للقوات البريطانية عند تقدمها من الفاو الى الشمال ٠

كان الهدف من رحلة شكسبير تحقيق امرين اولهما الهاء السعوديين عن متابعة توسعهم في الخليج

بتوجيههم لمحاربة آل الرشيد والامر الثاني اضعاف قوة الاتراك بمحاربة حلفائهم آل الرشيد (١١٢) ولذلك لم يكد ينقضي وقت طـويل على وصول شكسبير الى الرياض حتى كانت الحرب المتوقعة بين حائل والرياض قد بدأها ابن الرشيد بوحي من الاتراك وبالفعل وصلت القوات التابعة لال الرشيد الى حدود الرياض في اواخر يناير ١٩١٥ ورافق شكسبير مضيفه في هذه الحملة وفيمـا يبدو ان اصرار شكسبير على الاشتراك فـي هذه الحرب كان بقصد الوقوف بالذات على المقدرة الحربية التي تتمتع بهـا القوات السعوديـة وبالفعـل اشترك شكسبير في المعركة التي نشبت بين قوات الاميرين في موقع قريب من زلفى ولدينا تصريح ادلى به الامام ابن سعود وفيه مـا يؤكد اشتـراك شكسبير في الحـرب بتعليمات من حكومته وقد اقتطف ويلسون جزءا مـن هذا التصريح في كتابه عـن الولاءات Loyalties ذكر فيه (لقد حاربنا ابن الرشيد في ارطـاوي ٠٠ وتلت ذلك معركة كبيرة يا للخسارة ان صديقنـا المخلص والشخص النادر الذي يتمنى لنا الخير قد اصيب من بعد ومات وكنا قد ألححنا عليه ليتركنا قبل القتال ولكنه أصر على ان يخوضه قائلا ان اوامـري أن أكون معكم وفي ذهابي مخالفة لشرفي واوامري) ٠

وقد عرفت المعركة التي قتل فيها شكسبير معركة اجراب وفي هذه المعركة اصيب شكسبير برصاصة اودت بحياته حيث كان باعتباره قائدا في المدفعية البريطانيـة يشرف على اطلاق النيران مـن مدفـع للميدان غنمته القوات السعودية من الاتراك (١١٣) ٠

وعلى الرغم من النهاية الاليمة التي انتهت بها حياة شكسبير الا انه استطاع خلال اقامته القصيرة في نجد ان يتفهم مشاكل ابن سعود كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الى برسى كوكس في ١٦ يناير ١٩١٥ طالب فيها بضرورة عقـد معاهدة معـه لان موقفه غير المحدد يسبب له حرجا بالغا ولذلك يمكن القول ان المعاهـدة التي عقدت بين برسى كوكس وعبد العزيز بن سعود في ديسمبر ١٩١٥ انما يرجع الفضل فيهـا الـى الجهود التي قام بها شكسبير ٠

وفي ختامنا لتلك الدراسة يتضح لنا ان الجزيرة العربية شهدت عددا كبيرا مـن الرواد والمستكشفـين الاوروبيين في العصر الحديث وكان هؤلاء تحركهم اهداف ودوافع مختلفة وقد تعاظمت حركة الارتياد والكشف خلال القرن التاسع عشر والسنوات الاولى من القرن العشرين واذا كان من المعروف ان الحركة الاستكشافية تعد مقدمة طبيعية لحركة التبشير والاستعمار كما حدث مثلا في القارة الافريقية فان الحركـة الكشفية فـي الجزيرة العربية لم تؤد الى تلك النتائج ويرجع ذلك في تقديرنا الـى عاملـين رئيسين اولهمـا قوة العقيدة الاسلامية حيـث الجزيرة العربية منبعها وبالتالـي لم تنجح اية محاولة من محاولات التبشير لاقتلاع جذور العقيدة من صدور معتنقيها ولم يحدث ذلك الا نادرا وبصورة فردية على اطراف الجزيرة العربية (١١٤) اما في داخل الجزيرة العربية فقد وقفت العقيدة الاسلامية حائلا خاصة بعد انتشار الحركة الاصلاحيـة الكبـيرة التي تزعمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب اما العامل الثاني فيرجع الى ان الجزء الاعظم من الجزيرة العربية شهد حركات توحيدية كبيرة تزعمها الامراء والملوك من آل سعود وما تمخضت عنه تلك الحركات من ظهور سلطة قوية حاكمة حمت الجزء الاعظم من الجزيرة العربية من الاستعمار الاوروبي في العصر الحديث ٠

الهـــوامـــش

(١) يعد كارستن نيبور رائدا من رواد حركة الكشــوف الجغرافية في شبه الجزيرة العربية ، وقد قام برحلاته بين عامى ١٧٦٤ و ١٧٦٥ ، وترك مؤلفين هامين هما «وصف بلاد العرب» وقد طبع في كوبنهاجن عام ١٧٧٢م ثم مختصر لذلك الكتاب بعنوان «رحلة الى بلاد العرب » وطبــع في عــام ١٧٧٤ · وتوجد ترجمــة فرنســية وانجليزية لمؤلفات نيبور ، أنظر :

Description de l'Arabie, 2 tomes; Paris, LXXIX. *Travels Through Arabia and Other Countries in the East*. 2 Vols.

(٢) Bayley Winder, *Saudi Arabia in the Nineteenth Century* (New York, 1965), p. 219.

(٣) D.G. Hogarth, *The Penetration of Arabia, A Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula*, (London, 1901), p. 75.

(٤) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربى ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٣ · ص ٩٥ ·

(٥) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت ـ اصدار لجنة تاريخ الكويت ، القســم الاول من الجزء الاول · ص٢٦٢/٢٦٣ ·

(٦) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العــرب (مترجم) ، دار الكاتب العربى ، بيروت · ص ١٨٣ ·

(٧) جمال زكريا قاسم : موقــف الكويت من التوســـع السعودى في نجد وسواحل الاحساء ـ المجلــة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع عشر · ص ٦٨

(٨) Domingo Badiay Leplich.

(٩) أمــين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاتــه ـ الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٤ · ص ٧٨ ·

(١٠) D.G. Hogarth, *The Penetration of Arabia*, p. 81.

(١١) أمين الريحانى : المصدر السابق · ص ٧٨ ·

(١٢) D.G. Hogarth, *op. cit.*, p. 79.

(١٣) امين الريحانى : ـ المصدر السابق · ص ٧٨

(١٤) D.G. Hogarth, *op. cit.*, p. 80.

(١٥) *Travels of Ali Bey*, 2 Vols., (London, 1816).

(١٦) D.G. Hogarth, *op.cit.*, p. 96.

(١٧) *Ibid.*, p. 80.

(١٨) *Ibid.*, p. 81.

(١٩) *Ibid.*, p. 82.

(٢٠) *Travels of Ali Bey*. Vol. I, pp. 72ff.

(٢١) أمين الريحانى : المصدر السابق ص ٧٩ ·

(٢٢) جاكلين بيرين (مترجم) : المصدر السابق· ص١٩٨ ـ ١٩٩ ·

(٢٣) جاكلين بيرين : المصدر السابق ص ١٨٦ ·

(٢٤) D.G. Hogarth, *op. cit.*, p. 80.

(٢٥) *Cf. Correspondances de Napoleon*, Tome III, pp. 361-389.

(٢٦) عن سياسة نابليون في الشرق ، أنظر :
Driault, *La Politique Orientale de Napoleon,* (Paris, 1904), pp. 170-173.

(٢٧) Jacques Benoist Mechin, *Arabian Destiny,* (London, 1924), p. 51.

(٢٨) *Ibid.*, p. 52.

(٢٩) عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الاولى · ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ·

(٣٠) المصدر السابق

(٣١) Ultrich Jaspar Seetzen

(٣٢) D. G. Hogarth, *op. cit.*, p. 82.

(٣٣) *Reisen durch Syrien, Palastina, Phonicien die Transjordan — Land der Arabia Petraea und Unter Aegypten.* 4 Vols (Berlin, 1854-1859).

(٣٤) أمين الريحاني : المصدر السابق · ص ٧٩ ·

(٣٥) جاكلين بيرين : المصدر السابق· ص ٢١٠ ـ ٢١٣

(٣٦) وضع جومار كتابا أسماه « نبذة جغرافية عن بلاد نجـد » ·

(٣٧) D.G. Hogarth, *op. cit.*, p. 85.

(٣٨) F. Mengin, *Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammad Aly*, 2 Vols, (Paris, 1823).

(٣٩) Johan Ludvig Burchardt.

(٤٠) قام بوركهارت برحلته منانجلترا قاصدا بلاد الشام في عام ١٨٠٩ وقضى فيها سنتين ·

(٤١)
J.L. Burchardt, *Notes on the Bedouins and Wahabys*, 2 Vols, (London, 1831). See also: *Travels in Arabia*. 2 Vols, 1829.

(٤٢) جاكلين بيرين : المصدر السابق· ص ٢١٦/٢١٧ ·

(٤٣) جاكلين بيرين : المصدر السابق · ص ٢٣٣/٢٣٤·

(٤٤) أنظر أيضا ، أحمد عسه : معجزة فـوق الرمال ، الطبعة الثالثة لبنان ١٩٧٢ ، ص ٢٧
وكذلك D.G. Hogarth, *op. cit.*, p. 86.

(٤٥) أمين الريحاني : المصدر السابق ص ٧٧ ·

(٤٦) صـلاح العقاد : الحملـة المصرية الى شبه الجزيرة العربيـة (١٨١١ ـ ١٨١٨) ـ مجلة دراسات الخليـج والجزيرة العربية ، العدد السادس ، السنة الثانية ، أبريـل ١٩٧٦ ·

(٤٧) عبد الرحيم عبد الرحمن ـ الدولة السعودية الاولى · ص ٢٧٠ ·

(٤٨) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربى · ص ١٣٥ ·

(٤٩) Captain G. Forester Sadlier.

(٥٠) عبد الحميد البطريق ـ ابراهيم باشا وحروبه في بـلاد العرب · ص ٢٦ ·
وكذلك Perrin, *Relation de la Campagne d'Ibrahim Pacha contre les Wahabites*, pp. 4-5.

(٥١) جمال زكريا قاسم : دولة بو سعيد في عمان وشرق افريقيا · ص ١٧٠ ·

(٥٢) Ruete, *Said bin Sultan*, pp. 37-38.

(٥٣) ج·ج· لوريمر : دليل الخليج ـ القسم التاريخى حـ ٢ ص ١٠١٠ ـ مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ·

(٥٤) ج٠ج٠ لوريمر : المصدر السابق ، حـ ٢ ، ص ١٠١١ ٠ ومما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك ان السياسة البريطانية طيلة القرن التاسعءشر وحتى السنوات الاولى من القرن العشرين كانت تقصر اهتماماتها على سواحل الخليج والجزيرة العربية ٠ ويبدو أن الظروف الجغرافية في داخل الجزيرة العربية كانت تكبح الانجليز عن القيام بعمليات عسكرية في الداخل ، حتىاستخدم الطيران كسلاح جوى وبدأت السياسة البريطانية تتحول الى الاهتمام بالداخل منذ الثلاثينيات من ذلك القرن ٠

(٥٥) Winder, Bayley, *Saudi Arabia in the Nineteenth Century. Captain Sadliers's Mission.* (New York, 1965), pp. 40-49.
See also, D.G. Hogarth, *op. cit.* pp. 104-159.

(٥٦) ج٠ج٠ لوريمر: جـ٢ ، المصدر السابق٠ ص ١٠١٢

(٥٧) ج٠ج٠ لوريمر : المصدر السابق، حـ٠٣ ص ١٤٣٠

(٥٨) ج٠ج٠ لوريمر : المصدر السابق، جـ٠٢ ص ١٠١٢

(٥٩) يذكر صلاح العقاد في كتابه « التيارات السياسية في الخليج العربى » أن ساد لر وصل الى الاحساء بعد قرار محمد على بالانسحاب من بلاد العرب ، وأنه اضطر لعبور شبه الجزيرة كلها دون أن يتمكن من اللحاق بابراهيم باشا ـ أنظر : ص ١٣٥ ٠

(٦٠) ج٠ج لوريمر : المصدر السابق ، جـ٢٠ص ١٠١٣

(٦١) *Cf.* "An Account of a Journey from Katif on the Persian Gulf to Yanboo." *Transactions of the Literary Society of Bombay*, III, 1823, pp. 449-493.

(٦٢) *Diary of a Journey across Arabia. Compiled by Ryan.* (Bombay. 1866).

(٦٣) جاكلين بيرين : المصدر السابق ٠ ص ٠٢٧٢

(٦٤) George Augustas Wallin

(٦٥) ج٠ج لوريمر : المصدر السابق، جـ٠٣ ص ١٧٢٨

(٦٦) Kiernan, Reginald. *The Unveiling of Arabia.* p. 231.

(٦٧) D.G. Hogarth. *op. cit.*. pp. 160-161.

(٦٨) *Ibid.*. pp. 243-250.

(٦٩) D.G. Hogarth. *op. cit.*. pp. 115-116.

(٧٠) *Ibid.*. pp. 244-246.

(٧١) ج٠ج٠ لوريمر : المصدر السابق ، جـ ٣ ٠ ص ١٦٦٩ ٠

(٧٢) D.G. Hogarth. *op. cit.*. pp. 243-250.

(٧٣) ج٠ج لوريمر : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١٦٦٩

(٧٤) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ص ٧٨ ٠

(٧٥) أمين الريحانى : المصدر السابق ٠ ص ٩٦ ٠

(٧٦) وضع بالجراف مؤلفا عن رحلاته فيالجزيرة العربية في عام ١٨٦٥ ، وتبعه بعد ذلك بعشر سنوات بملخص لهذه الرحلات ، هذا بالاضافة الى بعض المذكرات عن رحلاته التى نشرها في بعض المجلات العلمية أنظر :
William Gippard Palgrave. *A Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia.* 1862-1863. 2 Vols. (London. Cambridge. 1865).

See also: "Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia. Observations made in Central, Eastern and Southern Arabia During a Journey Through That Country", *Journal of the Royal Geographical Society* XXXIV (1864).

(٧٧) W.G. Palgrave, *A Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia.* Vol I, p. vii.

(٧٨) W.G. Palgrave, "Notes of a Journey From Gaza Through the Interior of Arabia to Katif on the Persian Gulf and thence to Oman in 1862-1863", *Proceedings of the Royal Geographical Society* Vol. VIII, (April, 1864).

(٧٩) جاكلين بيرين : المصدر السابق ٠ ص ٣٠١/٣٠٢٠

(٨٠) W.G. Palgrave, "Notes on a Journey from Gaza", *Proceedings of the Royal Geographical Society* Vol. VIII, No. I, II (April, 1864), p. 69. Dickson, *Koweit and Her Neighbours*, p.128.

(٨١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ــ ١٩١٤ ٠ ص ٧٨ ٠

(٨٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ٠ ص ٩٦/٩٧ ٠

(٨٣) جاكلين بيرين المصدر السابق ٠ ص ٣٠٨ ٠

(٨٤) يذكر أمين الريحانى أن بالجراف ولد عبرانيا اسم أسرته كوهن ، وصار بعد ئذ مسيحيا ثم أبا يسوعيا ثم سياسيا ملحدا، وكان فى سوريا مع الاباء اليسوعيين يدعى الاب ميخائيل ٠ **أما رفيقه بركات وترجماته فى** البلاد العربية فهو الذى ارتقى بعدئذ السدة البطريركية الرومية الكاثوليكية وصار البطريرك بطرس الجريجورى ، (امين الريحانى ــ تاريخ نجد الحديث وملحقاته ٩٧) ٠

(٨٥) St. John Philby, *Arabia*, p. 115. See also Winder, *op. cit.*, p. 222.

(٨٦) Carlo Guarmani, *Northern Nejd, A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim.* trad. Lady Capel-Cure, (London, 1938).
See also "Itineraire de Jerusalem au Nejd", *Bulletin de la Société de Géographie* (1865). pp. 241-291.

(٨٧) جاكلين بيرين : المصدر السابق ٠ ص ٢٩٠ ٠

(٨٨) Doughty, *Travels in Arabia Deserta*, 3 Vols., 3rd. ed. (London, 1964), Vol. I, p. 29.

(٩٠) *Cf.* Palgrave, *Observations made in Central, Eastern and Southern Arabia During a Journey Through That Country* (1864).

(٩١) ج٠ج٠ لوريمر : دليل الخليج ــ القسم التاريخى ، ج ٣ ، ص ١٦٦٦ ٠

(٩٢) المصدر السابق ص ١٦٦٧ ٠

(٩٣) نفسه ، ص ١٦٦٨ ٠

Cf. Lewis Pelly, "A Visit to the Wahabee Capital of Central Arabia", *Journal of the Royal Geographical Society*, XXXV (1865).

See also *Report on a Journey to the Wahabee Capital.* (Bombay, 1866).

وقد وردت مقتطفات عن هذا التقرير في : Aitchison, *A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries.* Vol. XI, pp. 44-59.

(٩٥) Philby, *Arabia*, p. 120.

(٩٦) L. Pelly, "A Visit to the Wahabee Capital", *Proceedings of the Royal Geographical Society*, Vol. X, No. IV (August, 1865).

(٩٧) أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ٠ ص ٤٣ ٠

(٩٨) Philby, *op. cit.*, p. 172.

(٩٩) F.O. 785108, *Turkish Jurisdiction Along the Arabian Coast of the Persian Gulf.* Part I, Pelly to the Government of India, 22-2-1866.

(١٠٠) جمال زكريا قاسم : الخليـج العربى ، دراسـة لتاريخ الامارات العربية ، ١٨٤٠ـ١٩١٤ ص ٨٠ ٠

(١٠١) قام شـارل دوتى بزيارة الى حائل والقصـيم في عـام ١٨٧٧ ٠

(١٠٢) قامت برحلة من دمشق الى حائل في عام ١٨٨٠ ، وعرضـت لامارة آل الرشـيد من النواحى السياسـية والادارية والاقتصادية وكذلك للادارة العثمانية في الاحســاء Cf. Blunt, Lady Annee, *A Pilgrimage to Nejd. The Cradle of the Arab Race. A Visit to the Court of the Arab Amir and Our Persian Campaign.* 2 Vols, (London, 1881).

(١٠٣) شارل هيبرت عالم طبيعى فرنسى طاف بنجد في أوائل الثمانينيات أنظر : Bayley Winder, *Saudi Arabia in the Nineteenth Century.* pp. 264-268.

ويمكن الرجوع الى رحلته المنشورة بالفرنسية في عـام ١٨٩١ بعنوان : *Journal d'une Voyage en Arabie*, 1883-1884, Paris 1891. See also Doughty, *Travels in Arabia Deserta.* Vol. I, 3rd ed. (London, 1968), p. 27.

(١٠٤) أمين الريحانى ـ المصدر السابق ٠ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ٠

(١٠٥) مجلـة لغة العرب ـ السنة الرابعـة عدد (٢) ، شـباط ١٩١٤ ٠

(١٠٦) صلاح الدين المختار المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ٠ حـ ٢ ص ١٦٣ ٠

(١٠٧) جمال زكريا قاسم : المؤثرات السياسية للحرب العالميـة الاولى على امارات الخليـج العربى ـ المجلـد السادس عشر من المجلة المصرية التاريخية ٠ ص ١٢١

(١٠٨) عن الاتصالات بين شكسبير وعبد العزيز بن سعود أنظـر :

Carruthers, "Captain Shakespear's Last Journey", *Geographical Journal* (May-June, 1922), pp. 521-527.

(١٠٩) أمين الريحانى : المصدر السابق ٠ ص ٢١٨ ٠

(١١٠) Henry Canning, *Franco-British Rivalry in the Post-War Near East. The Decline of French Influence.* p. 14.

(١١١) St. J. Philby, *op. cit.*, pp. 234-235.

(١١٢) جان جاك بيرين : جزيرة العرب ٠ ص ٥١٠

(١١٣) *Cf.* Carruthers, "Captain Shakespear's Last Journey", *Geographical Journal*, Vol. lix,, (May-June 1922), pp. 521-523.

(١١٤) نشير بذلك الى بعض المحاولات التى قامت بهـا البعثات التبشيرية في الكويت والبحرين أنظر : S. Zwemer, *Arabia "The Cradle of Islam"* (London, 1908).

الجزيرة العربية في اخبار المؤلفين الصينيين

نقــولا زيــادة

١ ـ شيء من التاريخ

مع ان المصادر الصينية المتعلقة ببلاد العرب ، والتي ستكون موضع عنايتنا في هذا البحث تخص القرنين السادس والسابع للهجرة (اي القرنين الثالث عشر والرابع عشر م) ، فاننا نرى ان نشير اشارة موجزة لتاريخ الصين في الفترة السابقة لذلك أيضا ، اذ قد تكون ثمة حاجة الى مثل هذه المعرفة ٠

كانت بلاد الصين قد عانت من غزوات خارجية ادت الى انقسام في اجزائها المختلفة ٠ لكن في العام ٥٨١م قامت اسرة سوي Sui التي اعادت الى البلاد وحدتها ٠ الا ان هذه الاسرة لم تعمر طويلا بسبب سوء التصرف الذي بدا من الامبراطور الثاني فيها (يانغ تي Yang Ti) ولما زالت خلفتها اسرة تانــغ ٠

وقد حكمت اسرة تانغ (T'ang) من سنة ٦١٨ الى سنة ٩٠٧ وكان اشهر ملوكها تاي تسونغ (T'ai Tsung) الذي تولى العرش من سنة ٦٢٩ الى سنة ٦٤٩ ٠ وفي هذه السنة تولى العرش الامبراطوري كاو تسونغ (Kao Tsung) الذي ظل على العرش الى سنة ٦٨٣ ٠ لكن الحــاكم الفعلي للبــلاد في ايامه ، والى بعد وفاته بسنوات كانت الامبراطورة ووتسي تيان (Wu Tse T'ien) وكــانت ذات شخصية قوية ٠ وقد نظمت الجيوش وقادتها في مجال المعارك ، كما انها كانت راعية للفنون والاداب ٠ وكان من مشاهير اباطرة هذه الاسرة ايضا هسوان تسونغ (Hsuan Tsung) الــذي حكم مــن ٧١٢ الى ٧٥٦ ٠ وفي ايامه حدثت معركة الطراز (على نهر طلس في بلاد ما وراء النهر) بــين الجيوش العــربية وجيش صيني ، وقد كتب فيها النصر للعرب (٧٥١م) ٠

وضعف شأن أسرة تانغ ، وتردت البلاد في حرب اهلية ثم انقــذت مرة ثانية على ايــدي الاسر الخمس (٩٠٧ ـ ٩٦٠) ٠ ثم تولت امور الصين عندئذ اسرة سونغ Sung التي ظلت تتمتــع بالسلطة من سنة ٩٦٠ الى سنة ١٢٧٩ ٠ على انه من الواجب الاشارة الى ان هذه الفترة بالذات تتكــون من قسمين ـ الاول فترة سونغ الشمالية (٩٦٠ ـ ١١٢٦) والثاني عصر سونغ الجنــوبية (١١٢٦.ـ ١٢٧٩) ٠ وهــذه الاسرة قضى عليها جنكيز خان لما اجتاح بلاد الصين ، كما اجتاح غيرها ٠

وقد برز بين اباطرة اسرة سونغ كوانغ ـ ين (K'uang — Yin) مــن سنة ٩٦٠ الى سنة ٩٧٦ ، وتشن تسونغ (Chen Tsung) من سنة ٩٩٨ الى سنــة ١٠٢٢ وهــوي تسونــغ (Hui Tsung) من سنــة ١١٠٠ الى سنــة ١١٢٥ ٠

وتعتبر فترة اسرتي تانغ وسونغ من أهم الفترت في تــاريخ الصين بالنسبة الى الكثــير مــن الانجــازات الحضارية ٠ وها نحن اولاء نجمل هذه النواحي في النقاط التالية :

١ ـ في أيام أسرة تانغ تم الفصل بين الادارة المدنية والحكم العسكري ، فاصبح اختيار موظفي الدولة المدنيين يتم عن طريق الدراسة والامتحانات الخاصة ٠ فلم يعد بامكــان الضباط والعسكــريين ان يصلــوا الى المناصب الادارية ٠ وهــذا النظام ظل معمولا به حتى العصور الحديثة ٠

٢ ـ في أيام تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الاسلامي عبر اواسط آسية ٠ ولـذلك فان الثروة التي كانت تحصل عليها من ذلك كانت عظيمة ٠ وكان ان اهتمت الصين في هذا الوقت بتصدير الشاي والصيني والورق ٠ كما اخترع الصينيون الطباعة في هذا العصر ٠

٣ ـ واذا كانت التجارة الآسيوية البرية قد أفلتت من أيدي الصين في زمن اسرة سونغ ، فان التوسع التجاري البحري عوض اهل البلاد عن خسارتهم ٠ وقد بني اول اسطول بحري في هذه الفترة ٠ وبين سنتي ١١٣٠ و ١٢٣٧ ارتفع عدد سفنه من احدى عشرة سفينة الى عشرين سفينة ، ومن ثلاثة الاف بحار الى ٥٢٠٠٠ بحـــار ٠

٤ ـ في الفترتين عـرفت الصين تقـدما في العلم والتكنولوجية والفن والادب على نحو لم يجار ٠ ولعل الفترة التي بلغ التقدم في هذه الامور أوجه هي القرنان العاشر والحادي عشر ٠

٥ ـ كان بعض الرحالين الصينيين قد وصلوا الى الخليج العربي في العصور السابقة لذلك ٠ وكـان بعض التجار والرحالة قد جاءوا الصين من بلاد ساسان وبلاد الشام ورومه ٠ لكن الاتصال المباشر لم يتم حتى في أيام تانغ وسونغ ٠ الا ان الامر المهم هو ان كثرة التجار الوافدين الى الصين من فارس وبلاد العرب وغيرهمـا اثارت في نفوس الصينيين اهتماما بالتعرف ـ بطريقـة غير مباشرة ـ الى تلك البلاد ٠

٦ ـ وكانت المـوانىء الصينيـة الرئيسة فيها مراقبون للتجارة والتجار ٠ وكان هؤلاء يدونون ما يصل الى البلاد بشيء كثير من التفصيل (راجع ٢ ـ مراقبة السفن والتجار) وقد وصلتنا بعض هذه المدونات التي ورد فيها ذكر الموانيء والبلاد التي نقلت منها المتاجر الى الصين وانـواع هـذه المتـاجر ومصادرهـا ووجـــوه استعمالها (١)

٢ ـ مراقبـة السفن والتجـار

يبدو أنه منذ القرن الثامن كانت السفن التي ترد كنتون (خانفو) بقصد نقل البضائع الصينية تخضع للتسجيل في مكتب مراقب التجارة البحرية (Shi-po-shi) ٠ وكان على ربابنة هذه السفن ان يقدموا الى المكتب المـذكور بيانـات عن البضائع التي ينـوون نقلها الى الخارج ٠ ولا يسمح لهم بالخروج من الميناء قبل ان يدفعوا رسوم التصدير والنقل (٢) ٠

وقد ورد مثل هذا في وصف سليمان التاجر للتجارة البحريـة في كنتـون (خانفـو او كـوانغ ـ تشـو Kuang — Chou) ٠ فهو يقول « واذا دخـل البحريون من البحـر قبض الصينييون متـاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا الدرك الى ستة أشهر الى ان يدخل آخر البحريين (٣) » ٠ وقد وضع سليمان اخبار رحلته هذه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)٠

ويبدو ان تنظم هذه المكاتب أعيد النظر فيه في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، كما ان الموانيء التي فتحت فيها هذه المكـاتب زاد عددها ٠ فقد كـان ثمة مراقبون في هانغ ـ تشو (Hang — chou) ومنغ ـ تشو (Ming — chou) وتسوان ـ تشو (Ts'uan — chou) الذي ورد اسمهـا زيتون ٠ أما كنتون فقد تعطل العمل فيها (٤) ٠

وفي القرن الثاني عشر عادت كنتون الى ما كانت عليه بالاضافة الى الموانيء الثلاث المذكورة سابقا واضيف على ما يبدو ، مكتب في فوتشو (Foochow) وكان يطلق على هذه المدن الموانيء الرسمية (٥) ٠

والـواضح من مدونـات المـراقبين ان الشخص المسؤول ، والذي كان يعمل نفر من الرجال تحت امرته، كان يتولى الاشراف على دخول السفن الى الموانيء وخزن المتاجر وتحصيل الرسوم المتوجبة عليهـا ٠ وبعد ان يختار صاحب السلطان ، بواسطة عملائه ، ما يريد من البضائع يسمح ببيعها (٦) ٠ ولعل هذا كان بالاضافة الى ما ذكر قبلا من مراقبة البضائع المصدرة ٠

وبسبب من العنايـة التي كـان يوليهـا هـؤلاءالمراقبون لمصادر المتاجر الواردة اليهم ، وصلت الينا ، على ما اشرنا الى ذلك قبلا ، اخبار مستقاة من التجار الاجانب عن البلاد المتعددة التي كانوا يأتون منها ٠

٣ ـ مدونة تشاو جو ـ كاو

وصلتنا ثلاث مدونات رئيسة من النوع المذكور والتي تعطينا وصفا جغرافيـا يشمل ، فيمـا يشمل ، بعض موانيء الجزيرة العربية وبعض الجزر المحيطة بها ٠ والمدونات الثلاث اثنتان منها تعـودان الى القـرن الثاني عشر ، والثالثة تعود الى القرن الثالث عشر ، وهي التي ستكون موضع اهتمامنا الخاص في هذه الدراسة المتواضعـة ٠

اما المدونة الاولى فاسمها بينغ ـ تشو ـ كو ـ تان (Ping-chou-K'o-tan) وهي من وضع تشويو (Chu Yu) ٠ وقد تم ذلك بين سنتي ١١١١ و ١١١٧ ، على نحـو مـا يتضح ذلك من الاشارة الى احداث تاريخية تقع في هذه الفترة ، وهي آخر ما دون فيها ٠ وقد كان والد المؤلف موظفا في كنتون في اواخر القرن الحادي عشر وان كان الباحثون لم يعرفوا طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها تماما ، لكن المؤلف كان دقيقا في وصف مـا كان يقـوم به موظفـوالمال والجمارك من اعمال وما يدفعه التجـار من رسوم تبلغ ٣٠ بالمئة ، وان كان الغـالب عليها ١٠ بالمئـة ٠ والتفاوت بين قيمة الرسوم يتوقف على طبيعة البضاعة، فكلما ارتفع سعر المتاجر زادت الرسوم المدفوعة عليهـا (٧) ٠

على ان هذه المدونة لا تفيدنا كثيرا فيمـا يتعلق ببلاد العـرب ٠

والمدونة الثانية هي لنغ ـ واي ـ تاي ـ (Ling - wai - tai - ta) وقد وضعها تشوكوي ـ في (Chou K'u - fei) حول سنة ١١٧٨ ٠ وقد كان المؤلف من أهل وونتشو (Won - chou) ولما وضع كتابه كان مساعـدا اداريا في عاصمة ولايـة كوانغ ـ سي (Kuang - si) ٠ ويبدو أنه جمع مادته لمدونته لما مر بكنتون في طريقه الى مقـر عملـــه (٨) ٠

اما المدونـة الثالثـة فهي تشو ـ فـان ـ تشي (Chu - fan - chi) التي كتبها تشاو جو ـ كـوا (Chau Ju - Kua) وذلـك في القرن الثالث عشر (٩) ٠

واذا نحن قبلنا بالتفسير الـذي تقدم به هـرث (Hirth) وركهل (Rockhill) كان معنى هذا ان جو ـ كوا وضع هـذا المؤلف بين سنتي ١٢٤٢ و ١٢٥٨ ٠

والمؤلف متحدر من نسل احد الاباطرة الذي عاش في اوائل القرن الحـادي عشر ٠ وكان المـؤلف يشغل منصب « مراقب التجارة الخارجية » في ميناء تسوان ـ تشو (Ts'uan - ch'ou) على شاطيء فوكين (Fu - Kien) في شرق الصين ٠ وهذا العمل هو الذي يسر له الحصول على المعلومات اللازمة من التجار الصينيين والغرباء على السواء ٠ والذي دونه جـو ـ كوا كان يتعلق بالبلاد الاجنبية ومن ثم فاسم كتابه ، مترجما الى العربية ، هـو « وصف الشعوب الاجنبيـة » (١٠) ٠

ومع ان هـذا الكتاب نقل عنه كثير من المـؤلفين الصينيين اللاحقين ، فقد ظل امـره مغمـورا ٠ ويعود السبب في ذلك الى انه كـان من المألوف عند الكتاب الصينيين ان ينقلوا عنسابقيهم دون الاشارة الى اسمائهم أو أسماء كتبهم ٠ (١١) ٠

وقد افاد المؤلف كثيرا مما اورده تشوكو ـ فيي في كتابه ، اذ نقل عنه جملا او فقـرات او حتى فصولا كاملة ٠ لكن الذين انصرفوا الى دراسة مقـارنة لهـذا النوع من الادب الجغرافي التجاري يرون ان جو ـ كوا قد حصل على مادة جديدة كثيرة من التجار اودعها كتابه وكان فيها فائدة كبرى لدراسة طـرق التجارة والبلاد التي ارتبطت بالصين تجاريا والمتاجر التي كانت تنقل وحتى أنواع السفن وبعض المعلومات عن البحارة (١٢)٠

ينقسم كتاب جو ـ كوا الى قسمين الاول يتناول الاقطار والشعوب التي كانت لها علاقات تجارية مـع الصين ، والثاني يبحث في المتاجر نفسها ٠

والقسم الاول يبدأ فيه المؤلف بتكوننغ وينتقل بعد ذلك الى أنام فكمبوديا فالملايو فبورما واندونيسيا وسيلان (سري لانكا اليوم) والهند والبلاد العربيـة والصومـال ومصر وبعض منـاطق البحـر المتوسط وجزره كالمغرب وجزيرة صقلية ٠ ويختم القسم بفصول عن جزر الفليبين وكوريا واليابان ٠ وفي هذا البحث يهتم المؤلف بالموانىء او المدن التي يرتادها التجار اكثر من اهتمامه بالوصف العام للبلاد نفسها ٠

وتنال البلاد العربية من هذا القسم حظا لا بأس به ٠ فالموضوعات التي يتعرض لها هي : العرب ومكة وصحـــار وعمـان وبغـداد والبصرة والموصل ومصر (القـاهرة) والاسكندريـة والمغرب الاقصى ٠ واذا تذكرنا ان المؤلف كتب في وقت كان الاسلام قد انتشر في رقاع اوسع من الرقعة العربية وانه كان يعتبر بـلاد العرب وبلاد الاسلام شيئا واحدا (على ما سنرى فيما بعد) فانه يتحتم علينا ان نضيف ما ذكره عن زنجبار والصومـال وجزيرة كيش (قيس) وغزنـة واسية الصغرى وجنوب اسبانية وصقلية ، وبذلك توفر لنـا ست وثلاثون صفحة من اصل ١٤٥ صفحة هي جماع ما كتبه في القسم الاول ٠ وليس ذلك بغريب فان اشتغال العرب والمسلمين بالتجارة في البحار الشرقية في ذلـك الوقت وتبادلهم السلع مع الاقطار الواسعة امر معروف٠

اما القسم الثاني من الكتاب فهو الذي يتناول المؤلف فيه اصناف البضائع التي كانت تحمل الى الصين ، ويعنى بذكر خصائصها ومنافعها وحتى اوجه استعمالها احيانا ٠ فعندما يحدثنا عن اللبان يذكر انه يوجد منه ثلاثة عشر نوعا مدرجة على اساس ما في كل نوع منها مـــن الجودة وقوة الرائحة ، ثـم يوجز هـذه الانواع جميعها مركزا على اجود ثلاثة منها (١٣) ٠ اما خشب السابان (sapan - wood) ، وهو المعروف عربيا باسم البقم ، فيذكر انه يستعمل في الدباغة (١٤) ٠ ويذكر ان زيـت الستوراكس ، وهو صمغ يشبه المر ، كان يستعمل في تهيئة المستحضرات الطبية (١٥) ٠ وعندما يتحدث عن اللؤلؤ يصف الغوص عليه في الخليج العربي (١٦) ٠

وقد ضم كتاب جو ـ كوا الى مجموعة كبيرة من الاعمال الادبية الصينيـة التـي اعدت في اوائل القرن الخامس عشر ٠ وفي سنة ١٧٨٣ طبع الكتاب لاول مرة بالصينية ثم طبـع ثانيـة في سنة ١٨٠٥ ٠ والطبعتان تكادان ان تكونا متطابقتين ٠

وكان ج٠ فوتيـه (G. Pauthier) اول بـاحث غربي اهتم بهذا الكتاب اذ نقل فصلا منه يتحدث فيه المؤلف الصيني عن بطريرك النساطرة (١٨٥٧) كما نقل هوك (Huc) الفصل نفسه حول الوقت ذاته ٠ وقد ترجم فردرك هيرث (Friedrich Hirth) الكتاب باكمله (١٨٥٨ ـ ١٨٩٥) ٠ وفي سنة ١٩١١ ظهرت ترجمة انكليزية كاملة مع الهوامش المفصلة هي نتيجة العمل المشترك الذي قام به هيرث وزميله و٠و٠ روكهل (W.W. Rockhill) ونشرت في مدينة بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) ٠ وهذه هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحـث وقـد اعيد طبعهـا في نيويورك (١٩٦٦) ٠

٤ ـ العرب عند جو ـ كــوا

يستعمل جو ـ كوا كلمة تاشي (Ta - shi) بشكل عام بحيث انها تعنــي العرب او بــلاد العرب او المسلمين او بلاد الاسلام (١٧) ، بل يستعملها احيانا في اشارته الى الجاليات العربية او الاسلامية التي كانت تقيم في جنوب شرق اسية وخاصة في جـاوه وسومطرة (١٨) ٠ ولعل خير ما يمكن ان يفعل في هذه المناسبة هو تلخيص هذا الفصل المتعلق ببلاد تا ـ شي ، وتوضيح دلالات اللفظ المختلفة ، مشيريـن الـى مـا في اخبـار جو ـ كوا ، المنقولة عمن سبقه وعن التجار الزائريـن لبلاده ، من اخطاء ٠

(١) يقول المؤلف بان بلادتا ـ شى تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين لكنهما لا تتجاوران ، بل ان المسافة بين المنطقتين بعيدة ، اذ ان السفينة تحتاج الى اربعين يوما الى مدينة لان لي (في جزيرة سومطرة) ثم الى ستين يوما حتى تصل الى مدينة على ساحل حضرموت (جو ـ كوا ص ١١٤ و١١٩ هامش ٢) ٠

(٢) بالنسبة الى المناخ يذكر شيئا واحدا وهو ان البرد في تـا ـ شي شديـد ، وان الثلوج تتساقط فيها بكثرة (ص ١١٥) ٠ وهـذا يدل على ان المؤلف جمع نتفا تتعلق بما عـرف عندهم باسم تاشي وضمه بعضه الى البعض الآخر ، ومن هنا كانت لديـه هذه الاشارة الوحيدة الى المناخ ٠

(٣) يعدد جو ـ كوا المناطق التي تتبع تاشي او تعتمد عليها (ص ١١٦ ـ ١١٧ و ١٢١ ـ ١٢٢هـ ١١ و١٢ و١٣) ٠ وسنرى من الجدول التالي انه لم تكن لديه فكرة واضحـة عـن المنطقـة العربيـة الاسلاميـة بكاملها ، بل ان الذي فعله هو انه جمع في هذا الجدول كل الاماكن ـ موانىء او مدن او مناطق صغيرة ـ التي تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين ٠ وهذا هو الجدول الذي وضعه جو ـ كوا ٠

الاسم الصيني بالحروف العربية	الاسم الصيني بالحروف الافرنجية	ما يقابله بالعربية
ما ـ لو ـ مو	Ma-lo-mo	مرباط
شي ـ هو	Shi-ho	الشحر
نو ـ فـا	Nu-fa	ظفّار
لو ـ سي ـ ميي	Lo - ssï - meï	خوارزم
مو ـ كو ـ لان	Mu-Kü-lan	مكران
كي ـ لي ـ كي	K'ie-li-ki	قلهات
بي ـ نو ـ يي	P'i-no-ye	افريقية (اي المغرب العربي)
ا ـ لو	I-lu	العراق
باي ـ تـا	Pai-ta	بغداد
سي ـ لين	Ssï-lien	سيراف او شيراز
باي ـ لين	Pai-lien	البحرين
تسي ـ كي	Tsi-ki	ميناء في مكران
كان ـ ميي	Kan-mei	جزر القمر
بوا ـ هوا ـ لو	P'u-hua-lo	بخاري
تسونغ ـ بـا	Ts'ŏng-Pa	زنجبار

بي ـ با ـ لو	Pi-p'a-lo	بربرا (الصومال)
وو ـ بـــا	Wu-Pa	صحار (؟)
وونغ ـ لــي	Wöng-li	عمان
(يونغ ـ مان)	(Yung-man)	عُمان
كي ـ شي	Ki-shï	جزيرة قيس
ما ـ كيا	Ma - Kia	مكة (المكرمة)
بي ـ سي ـ لو	Pi-ssï-lo	البصرة
كي ـ تسي ـ ني	Ki-tz'i-ni	غزنة (؟)
وو ـ سي ـ لي	Wu-ssï-li	الموصل او مصر

(٤) ومع ان جو ـ كوا يبدو متخبطا او مضطربا في معلوماته الجغرافيـة ، فانـه اكثر اضطرابا فيمـا يتعلق بالتاريخ بالنسبة الى العالم الاسلامي · وقد ابدى هيرث وروكهيل استغرابهمـا لقلـة مـا وصل الـى المؤلفين الصينيين من معرفة عن هذه القضية مع وجود هذا الاتصال التجاري الواسع مـع العرب والمسلمـين (ص ١٢٢ هـ ١٤) · والذي نجده عند جو ـ كوا ، فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي هو انـه يذكر الرسول الكريم (ص) باسمه باللفظ الصيني ما ـ هيا ـ وو · (Ma-hia-wu) ويقول ان المسلمين يصلون الى السماء (طبعا لم يكن باستطاعة جو ـ كوا ان يعبر عن عبادة الله بغير هذه العبارة) ، وانهم يصلون خمس مرات في اليوم وانهم يصومون ويحجون (١١٦) · لكنه يقول ان الصيام يتم في بدء السنة · ولسنا ندري هل قصد السنة القمرية الهجرية (وهو خطأ طبعا) او قصد التقويم الصيني (وعندها تكون عبارته غير تامة لان موقع شهر رمضان يتغير بالنسبة للسنة الشمسية) · ويذكر تبدل الدولة من الامويين الى العبـاسيين · فبنو مروان يسميهم بون ـ ني ـ مو ـ هوان (P'ön-ni-mo-huan) ويسمي ابا العباس ا ـ بو ـ لو ـ بـا (A-P'o-li-pa) · ويقول ان بني مروان كانوا يسمون « المتشحـين بالبيـاض » وان الذيـن جـاءوا بعـد ابي العباس كانوا يُسمون « المتشحين بالسواد » ·

(٥) يصف سكان بلاد تا ـ شي بانهم ممتازون وشجعان (ص ١١٥) · وهذا بطبيعة الحال تعميم قد يكون له ما يبرره ·

(٦) يشير جو ـ كوا الى عاصمة تا ـ شي ويصفها (ص ١١٥) ولكنه لا يعينها بالاسم (ص ١٢٠ هـ ٥) · ويقول عن العاصمة (؟) انها مركز كبير للتجارة وان عرض الشوارع فيها نحو خمسة عشر مترا ، وان وسط الشارع فيه مسار خاص بالدواب ، كما ان الارصفة توجـد على جوانبهـا لمصلحـة المشاة ورجـال الاعمال · ويقول عن البيوت انها تشبه بيوت الصينيين ، الا ان اهل تا ـ شي يستعملون الحجارة بدل الطوب (الآجر) · ويذكر ان اهل تا ـ شي يأكلون الارز وغيره من الحبوب ولحم الضان ويصنعون منه اصنافا مـع المعجنات · ويأكل الكثيرون منهم السمك والخضار والفواكـــه · ويفضلون المآكـل الحلوة على الحامضة · ويشربون عصير العنب اما طازجا او مخمرا · ويتناولون شرابا ساخنا مصنوعا من الافاويه بالسكر او بالعسل ، وهذا يمنحهم الدفء ·

(٦) يصف المؤلف قصر سلطان تا ـ شي · ولكن لاننا لا نعرف العاصمة التي يقصدها فاننا لا نستطيع ان نعرف اي قصر يصف (هل الاخبار التي بلغته عن القاهرة الفاطمية او بغداد العباسية او حتى دمشق ؟!) ويرى محققا (ومترجما) جو ـ كوا ان الوصف الذي أورده للعاصمة وللقصر (بما في الوصف مـن فخامـة

وابهة مثل الاشارة الى عرش فخم وثياب مصنوعة من الحرير المزوق بخيوط الذهب واعمدة من المرمر) هو جماع ما بلغه عن اكثر من مدينة من مدن منطقتنا ، ضمه الـى بعضه البعض دون ان ينتبـه الى مـا فعل تماما · كما ان وصف القصر مأخوذ مما رواه احد الوفود (التجارية) التي جاءت الصين للتجارة بين سنتي ١١١١ و١١١٨ (ص ١٢٠ هـ ٥) ·

(٧) ويحدثنا جو ـ كوا عن الوفود التي ذهبت من بلاد تا ـ شي الـى بلاط امبراطور الصين ، وهـي طبعا وفود تجارية وكانت عديدة · فقد ورد ذكر عدد منها وصل بلاد الصين في سنوات ٩٦٨ و٩٧١ و٩٧٣ و٩٧٤ و٩٧٥ و٩٧٦ و٩٧٧ و٩٩٩ و١٠٠٣ و١٠٠٤ و١٠٠٨ و١٠١١ و١٠١٩ · والذي يجب ان يذكر دائمـا ان المؤسسات الصينية الرسمية كانت تشير الى هذه الوفود التجارية بانها كانت تفد على الصين حاملة هدايا، وان الامبراطور كان يقبل هذه الهدايا ويجزي حامليها بالذهب او الفضةاو الحرير او الصيني · ذلك بـان المؤلفين الصينيين ، جريا على ما كان ملوكهم يرون ، لم يكونوا يعتبرون هذه الوفود تجـارا يحملون بضائـع يودون مبادلتها بمتاجر صينية (كان هذا ينطبق على التجار الاتين من البلاد الاخرى طبعا) ، بل انها تتودد الى الصين عن طريق الهدايا · ولم تكن لهذه الوفود صبغة رسمية ، بمعنى ان احدا من اولي السلطة فـي بلاد تا ـ شي الواسعة قد ارسلهـا لاسترضاء البلاط الصيني · لكن مصادر صينية اخرى تذكر ان الوفـد الذي وصل البلاط الصيبي سنة ٩٧٦ جاء من قبل كبير البـلاد (أي الخليفـة) الملقـب كـو ـ لـي ـ فو (K'o-li-fu) · وان الوفد كان برئاسة بو ـلو ـ هـي (Pu-lo-hai) اي ابو حامـد · كما ان وفدا ذهب الى الصين من البلاط الساماني في بخاري (١٠٠٣) ص ١١٧ ـ ١١٨ ، ١٢٠ هـ ٥ ، ص ١٢٢ ـ ٣ هـ ١٧ و١٨ و١٩ و٢٢ ·

(٨) يصف جو ـ كوا ميناء كبيرا في تا ـ شي يبلغ عمقه ما يزيد عن ستين مترا ، ومفتوح على جميع الجهات ويقيم السكان على جانبي الميناء وتقام هناك الاسواق وترسو السفـن المحملـة بكـل انواع المتـاجر (ص ١١٦) · اما اين يقع هذا الميناء ، فلا يُعرف · وقد اقترح الباحثون القلزم (مصر) او الابلة او البصرة (ص ١٢١ هـ ٩) ·

(٩) من حيـث ان جو ـ كوا كـان يتحدث عن منطقة واسعة ومن حيث ان جغرافية المنطقة قد اختلطت عليه ، فان ما ذكره عما تغله او تنتجه المنطقة اختلط عليه ايضا · لذلـك فهو ، اذ يعدد مـا تنتجه المنطقـة (حتى في اوسع حدودها) يذكر اشياء سيلانية او هندية أو اندونيسية اصلا · فهو يورد اللؤلؤ واللبان والمر ودم الاخوين والبلور والقماش بين ما ينتج في المنطقة وهذا صحيح · لكنه ذكر ما كان ابناء المنطقة يتاجرون به على انه من منتوجات تا ـ شي مثل العاج وقرن وحيدالقرن والكاسيا والزنجبيـل وجوزة الطيـب وغيرها ، وهذا خطأ (ص ١١٦) ·

٥ ـ مدن الجزيرة العربية وموانئها الوارد ذكرهـــا

الاماكن التي ورد ذكرها في كتاب جو ـ كوا والتي هي مـن مناطق الجزيرة هـي مكـــة وصحار وعمان والشحر وظفار ومرباط ، وقلهات وجزيرة سُقَطري · وها نحن اولاء ننقل اهم ما ورد في الكتاب عن هذه الاماكن ·

(أ) مكة (المكرمة) وترد عنده باسم ما ـ كيا (Ma - Kia) ويقول عنها انها تبعد مسيرة ثمانين يوما عن مرباط (في حضرموت) · وهذا الطريق الذي يشير اليه دون ان يصفه هو الطريق القديم لتجارة البخور · ويقول جو ـ كوا ان محمدا (ص) ولد في مكـة ويورد اسمه هكذا ما ـ هي ـ وو (Ma-hi-wu) ، وان فيها

بيت العبادة (ويقصد الكعبة المشرفة) ، وانه يقام فيها الحج مرة في العام (ولكنه يخطىء اذ يربط بين تاريخ الحج ووقت وفاة الرسول (ص) • ويذكر ان كسوة جديدة تعلق على الكعبة ، وان هذه الكسوة تصنع من الخز المزخرف بخيوط الذهب • ويضيف انه على مسافة ابعد من ذلك يوجد قبر الرسول (ص) • دون ان يسمي المدينة المنورة بالذات (١٩) (ص ـ ١٢٤ ـ ١٢٥) •

(ب) يرد في الكتاب اسم ميناء هي وو ـ با (Wu-pa) ويقول عنها المؤلف انها على الساحل وان طريقا بريا يصلها ببلاد تا ـ شي (ص ١٣٠) • وعبارة يصلها ببلاد تا ـ شي لا تعني شيئا محددا بسبب ما ذكرنا من قبل من اختلاط الامور الجغرافية والتاريخية على جو ـ كوا • ولكن مترجمي الكتاب يريان ان هذا المكان قد يكون صُحار لانه يتفق مع اوصاف اخرى لاماكن ذكرت بهذا الشكل (ص ١١٧ و١٢٢ هـ ١٣) •

(ج) يذكر المؤلف بين المناطق التابعة لتا ـ شي ما ـ لو ـ مو ، وشي ـ هو ، ونو ـ فا ، وكي ـ لي ـ كي (راجع الجدول فيما تقدم) • وهذه الاماكن هي على الترتيب مرباط والشحر وظفار وقلهات •

وقد جاء في مدونة تشو ـ كو ـ فيي ان مرباط فيها بيوت تتكون من خمسة ادوار وفي الميناء تتجمع السفن الكبيرة ويلتقي التجار الاغنياء • ويرد اسم هذه المدينة عند المؤلف المذكور ما ـ لو ـ يا ويقول انها هي ما ـ لي ـ با نفسها • وهذه التسمية اقرب الى مرباط من ما ـ لو ـ مو الواردة عند جو ـ كوا (ص ١٢١ هـ ١١) • ونو ـ فا يرد اسمها في مصدر صيني آخر تسو ـ فا ـ ار (Tsu-fa-ïr) (ص ١٢١ هـ ١٢) •

(د) وهناك اسم يرد بشكلين هو يونغ ـ مان (Yung - man) و وونغ ـ مان (Wöng-man) والمنطقة هي عمان • وقد ورد في رحلة سليمان التاجر « فاما المواضع التي يردونها (التجار) ويرقون اليها فذكروا ان اكثر السفن الصينية (لعل المقصود السفن المصنوعة في الصين) تحمل من سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرهما الى سيراف • فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الامواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه • والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا • فاذا عبي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها اهل البحر : يعني يقلعون ـ الى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان • والمسافة من سيراف اليه نحو مائتي فرسخ ••• وفي هذا البحر جبال عمان » (٢٠) • ويذكر المسعودي ان سفن سيراف وعمان كانت تذرع بحار الصين والهند والسند والزنج واليمن والحبشة والقلزم (٢١) • كما ان جو ـ كوا يعيد الى الاذهان ان عمان كانت تتاجر مع البصرة (ص ١٣٧) • ويقول ابن بطوطة ان اسرع الخيول التي كانت تحمل الى الهند كانت تأتي من اليمن وعمان وفارس (٢٢) • ولعل المقصود بالنسبة الى اليمن وفارس ان موانئها كانت نقاط تجمع للخيول المنقولة من اماكن اخرى •

(هـ) يقول جو ـ كوا (ص ١٣١) انه على مقربة من الصومال يوجد جبل او جزيرة (فالاشارة الصينية للاثنين كانت واحدة هي 山) • والمقصود بالجزيرة سقطرى التي يبلغ محيطها نحو ٤٠٠٠ لي (وهو قياس للمسافة يبلغ طوله نحو ٥٣٥ مترا) • واذا صح هذا التفسير فالجزيرة اولى ان تعتبر جزءا من الجزيرة العربية • والجزيرة مشهورة بدم الاخوين (dragon's blood) • وقد جاء عن سقطرى في ياقوت ما يلي :

« سقطرى ••• جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها وهي الى بر العرب اقرب ••• والسالك الى بلاد الزنج يمر عليها ••• يجلب منها الصبر ودم الاخوين وهو صمغ شجر لا يوجد الا في هذه الجزيرة ، ويسمونه القاطر وهو صنفان : خالص يكون شبيها بالصمغ الا ان لونه احمر ••• والصنف الاخر مصنوع من ذلك » • (٢٤) •

٦ ـ المتاجر : مـا ينتج في الجزيرة نفسها

يبدو ، انه في الوقت الذي وضع فيه جو ـ كواكتابه ، ان المتاجر التي كانت تنتجها الجزيرة العربية والتي كان التجار الصينيون يعنون بالحصول عليها لم تكن كثـيرة ٠ ونود ان نـذكّر الزملاء بامـرين : الاول ان التاجر الصيني المقيم في بلده كان يعني ، بالدرجة الاولى ، بالاشياء الكماليـة ، اذا جاز التعبير ٠ والثـاني اننا ، في هذا البحث المقتضب ، ننقل اخبار المؤلف الصيني بالنسبة الى اجزاء معينـة من بـلاد العرب او ديار الاسلام ، اي الموانىء او المدن او المناطق الواقعة في الجزيـرة العربيـة نفسهـا ٠ اي اننـا لا نتعرض للتجارة الصينية مع بلاد العرب والاسلام عامة ٠

ولعل المادة الكبرى التي كانت الجزيرة تزود بها الصين والبحار الشرقية بعامة هـي اللبان (البخور من الصنف الجيد) ٠ وكان اللبان الذي يحصل عليه من جنوب الجزيرة افضل أنواع البخور قاطبة ، يقـول جو ـ كوا بان اللبان الذي يمكن الحصول عليه من مرباط والشحر وظفار ، والـذي يجمع من المناطق الجبلية الداخلية ، هو اجود الاصناف ٠ وكان هذا اللبان ينقل من موانىء حضرموت الى بالمانغ Palembang فـي سومطرة حيث يحمل الى الصين ٠ وشجرة اللبان هذه مثل شجر الصنوبر ٠ اما اللبان فهو عصارتها (ص ١٩٥ ـ ١٩٧) ٠

وكان ثمة نوع ادنى من البخور هو المعروف بالمِر الذي كان ينتج في جنوب الجزيرة ، لكن الصنف الموجود هناك لم يكن جيدا ، وانما الجيد منه كان يأتي من الصومال (ص ١٩٧) (٢٣) * ٠

وكان دم الاخوين يمكن الحصول عليه من سقطرى (راجع ما سبق)٠ ومن سقطرى كان يمكن الحصول على ال aloes (ص ١٣١ و٢٢٥) ، كما كـان جنوب الجزيرة العربية ، وبخاصة مناطق ظفار ، ينتج ال aloes

وهناك الزبد Civet ، وهو مسك يفرزه حيوان خاص يوجد في منشوريا وما اليها ، كما يوجد في جنوب الجزيرة وفي الحبشة (ص ٢٣٤) ٠ ومنطقة قلهات في عمان كانت تنتج نوعا جيدا من الزبد (ص٢٣٥)٠

وكان الذبل يكثر في سقطري (ص ٢٣٨) ، ولكن بلاد العرب نفسها لم تكن فيها السلاحف الكبـيرة التي يمكن الحصول على الذبل منها ٠

واخيرا فهناك اللؤلؤ ٠ وكان الجيد منه ، بالنسبة الى الجزيرة العربيـة ، الذي يغاص عليـه في جهات جزيرة اوال (البحرين) وهو افضل اللؤلؤ اطلاقا (ص ٢٢٩) ٠ ويصف جو ـ كوا الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي وصفا دقيقا مما يدل على أن التجار كانوا دقيقين في نقل المعلومات لتأكيد جودة اللؤلؤ الذي يحملونه (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠) ٠

٧ ـ المتاجر : ما كان تجار الجزيرة يقومون بنقله

كان تجار الجزيرة العربية ينقلون الكثير من المتاجر والبضائع بين الشرق والغرب ٠ وقد اورد جو ـ كوا من المعلومات ما يؤيد الدور التجاري الكبير الذي كان هؤلاء التجار يقومون به ٠

فقد كانوا ينقلون من الصومال المر (ص ١٩٧) والعاج (ص ١٢٧ و٢٣٢) والعنبر (ص ٢٣٧) ٠ كما كانوا يحملون الذبل من الاماكن المذكورة انفا (ص ٢٣٨) ، وكذلك قرن وحيد القرن (ص ٢٣٣) ٠

* هكذا ورد بالاصل الهامش ٢٣ بعد الهامش ٢٤ (المحرر) ٠

ومع ان المر كان من منتوجات جنوب الجزيرة العربية (الى الشرق من خليج عدن) فان المر الذي كان يأتي من الصومال كان اجود ٠ وكان الطلب عليه كثيرا في البلاد الشرقية ، لذلك كان ينقل من الصومال على ايدي التجار العرب من الحضارمة وغيرهم اما رأسا الى سيلان مثلا او الى موانىء الجزيرة اولا ثم يحمل منها الى الهند وغيرها ٠

والعاج كان يجمع من الصومال وزنجبار وهما المورد الرئيسي للعاج الجيد ، ويحمل الى مرباط ومنها الى الهند والصين (ص ١٢٧ و٢٣٢) هذا مع العلم بان العاج كان يمكن الحصول عليه من الملايو وجاوه وسومطرة ٠

اما العنبر فكان يجمع في بحر الزنج وبحر العرب (او بحر عمان كما يسمى احيانا) ٠ والعنبر يفرزه الحوت الذي يعيش في البحار الدافئة وهذه المادة المفرزة تتجمع على شواطىء افريقية الشرقية كالصومال وما اليها ٠ وهناك كان يجمع ويحمل الى الموانىء العربية ، ثم ينقل الى البحار الشرقية ٠ ومن رأس الحوت ، الذي كان القوم يصطادونه هناك ، كان يستخرج دهن يستعمل في طلي السفن ، الامر الذي يعرفه البحارة في اليمن وعدن وفارس ٠ وكان العنبر يستعمل في الطهو من قبل ٠ لكن استعماله الاساسي في ايام جو ــ كوا كان ، على ما يبدو ، في صنع العطور (٢٥) ٠

وكان قرن وحيد القرن مادة يمكن الحصول عليها من مناطق مختلفة في المشرق مثل تونكنغ وانام والملايو وجاوه والهند وزنجبار ٠ لكنْ اجود انواعه ما كان يأتي من الساحل الافريقي٠ وكان القرن الواحد منه يزن عشر كتيات اي نحو ستة كيلوغرامات (ص ٢٣٣) ٠ اما سن الفيل فكان واحده يزن نحو ستين كيلو غراما (٢٦) ٠

والذبل ، وهو بيت السلاحف ، كان يأتي من الشاطىء الافريقي ، ولو ان جزيرة سقطرى وغيرها من الاماكن كانت تعده للبيع (ص ٢٣٨) ٠ وعلى كل حتى الذي كان يجمع من الشاطىء الافريقي كان يحمل الى سقطرى تمهيدا لنقله الى الخارج ٠

واورد جو ــ كوا اسماء بضائع اخرى كانت تمر بالموانىء العربية المذكورة آنفا وهي اللبان الجاوي الذي كان التجار يحملونه من بلاده الاصلية الى الهند وغيرها وموانىء الجزيرة العربية (ص ١٩٨ ــ ١٩٩) ٠ كما ذكر الزبد Civet الذي عرف في قلهات وغيرها من اقطار الجزيرة العربية الجنوبية (ص ٢٣٤) ٠ والستوراكس السائل كان يؤتى به من بغداد واسية الصغرى (ص ٢٠١) ٠ ومثل ذلك يقال بالنسبة الى صمغ يجمع في فارس وما اليها ويسمى اسا فوتيدا وينقله تجار العرب الى المشرق (ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥) ٠

والشاه بلوط وهو شجر تركي فارسي كان ينقل الى المشرق في سفن تخرج من موانىء الجزيرة (ص ٢١٥ ــ ٢١٦) ٠

وكان اجود انواع المرجان هو الذي يصطاد من البحر المتوسط ، وخاصة عند الشواطىء المغربية ، وان كان ثمة انواع تجمع في جهات اخرى مثل البحر الاحمر(ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧) ٠

وكانت صناعة البلور ، المزخرف منه والبسيط ، منتشرة في اماكن مختلفة من المشرق العربي كمصر وبلاد الشام وبغداد ٠ ويبدو ان جو ــ كوا قد عرف شيئا عن صناعة الزجاج هناك ، لذلك فانه يصفها ويقول ان الطريقة لا تختلف عن طريقة صنعها في الصين ولكنه يضيف الى ذلك قوله بان صناعة الزجاج في الصين تعتمد على نترات البوتاس واوكسيد الرصاص والجبس ، اما في بلاد تا ــ شي فان الصناع يضيفون البوراكس ومن ثم فان ما يصنعونه هو اجود مما يصنع في الصين (ص ٢٢٧) ٠ ويرى مترجما الكتاب ان كلمة ليو ــ لي Liu-Li الصينية كانت تعني اصلا الزجاج (او البلور) الملون ٠ وكان هذا الصنف من الزجاج مما يرغب الصينيون في الحصول عليه ٠

وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كان الزجاج البغدادي ، ولعل المقصود مـا كـان ينقل عن طريق بغداد ، يعتبر اجود من غيره (ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ٠ وحري بالذكر ان المؤلف وسابقه تشو ـ كو ـ فيي يشيدان بالزجاج الذي كان يصنع في بلاد الاسلام (ص ٢٢٨) ٠ ومن المؤكد ان Li وتعني الزجاج والبلور في زمن جو ـ كوا كان ينقل بحرا على ايدي التجار العرب ، ولعل الموانىء العربية التي مر ذكرها كانت تعمل على تجميعه ونقله ٠

٨ ـ خـاتمـــة

هذه خلاصة لما جاء في كتاب جو ـ كوا عن الجزيرة العربية وموانئها ومدنها ومنتوجها والمتاجر التي كانت تنقل عبرها الى الصين ٠ قد يبدو من هذا ان المتاجر كانت قليلة ، ولكن الواقع هو انها كانت كثيرة في كميتها ثمينة في اسعارها ، بحيث ان الصين شعرت بان الفضة والذهـب والحريـر والشاي والصيني التـي كانت تدفع ثمنا لها كانت كثيرة جدا ٠

والذي اود ان اقوله بهذه المناسبة ان المؤلفات والنقوش الصينية القديمة (ومثلها ما وضع في الهند) التي يمكن ان يفاد منها في دراسة تاريخ الجزيرة العربية لا يستهان بها ٠ والـى ان يقوم بيننـا من يدرس اللغة الصينية دراسة وافية لمتابعة النصوص في مظانها فلا بأس من ان نعتمد الترجمات الى اللغات الاجنبية ٠ فتاريخنا طويل في الزمان متسع في المكان ، وحري بنا ان نفتش عنه حتى « ولو في الصين » ٠

الهـــوامـــــــش

١ ـ راجـع C.P. Fitzgerald, *History of East Asia*, (London,1974) pp. 69-87.

L.C. Goodrich, *A Short History of the Chinese People* (New York, 1959) pp. 120, 137, 151.

Jannette Mirsky, *The Great Chinese Travelers* (Chicago, 1964) pp. 13-25, 237-248.

F. Needham, *History of Science and Technology in China* (Cambridge), Vol I, pp. 120ff.

K. Pratt, *Visitors to China* (London, 1968), pp. 26-46.

C.G.F. Simkin, *The Traditional Trade of Asia* (London, 1968) pp. 85-99.

E.H. Warmington, *The Commerce between the Roman Empire and India*, 2nd ed. (London, 1974), pp. 84ff.

(٢) *Chau-Ju-Kua—Chu-tan-chi* trs. and eds. Freiderich Hirth and W.W. Rockhill (St. Petersburg, 1911, reprint, New York, 1966), p. 9.

(٣) اخبار الصين والهند لسليمان التاجر تحقيق Sauvaget (باريس ، ١٩٤٨) ص ١٦ ، « من رحلات العرب » (نقولا زيادة) (بيروت ١٩٧٤) ص ٣١ .

(٤) *Ju-Kua*, p. 20.

(٥) *Ibid*., p. 22, Simkin, p. 98.

(٦) *Ju-Kua*, pp. 21-22.

(٧) *Ju-Kua*, pp. 16, 21-22.

وقد دفعت رسوم بلغت ٤٠/ (سنة ١١٤٤م) و٥٠ / (سنة ١١٧٥) .

(٨) *Ibid*., p. 22.

(٩) *Ibid*., p. 136 n. 2.

(١٠) *Ibid*., pp. 35-36.

(١١) *Ibid*., p. 36.

(١٢) *Ibid*., p. 41.

(١٣) *Ibid*., pp. 195-6.

(١٤) *Ibid*., p. 227.

(١٥) *Ibid*., p. 200.

(١٦) *Ibid*., pp. 220-230.

(١٧) *Ibid*., pp. 114-119.

(١٨) *Ibid*., pp. 204, 205, n. 1, 124, n. 25.

لا يتحدث جو ـ كوا عن مثل هذه الجاليات في الصين لانه معنى اولا وآخرا بالتجار الذين يفدون على الصين .

(١٩) يبدو ان تشو ـ كوا ـ في ، كان أول مؤلف صيني كتب عن مكة ، وعنه نقل جو ـ كوا . وثمة اشارة في مصدر صيني سابق (تانغ ـ شو T'anǵ - shu) الى محمد (ص) والمدينة المنورة والحجر الاسود ، لكن دون ذكر مكة . راجع *Ju-Kua*, p. 125, n. 1.

(٢٠) اخبار الصين والهند لسليمان التاجر ، طبعةسوفاجيه ، ص ٧ ، « من رحلات العرب » (نقولا زيادة) ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢١) المسعودي « مروج الذهب » ، ج ١ ص ٢٨١

(٢٢) ابن بطوطة طبعة باريس ج٢ ص ٣٧٤ .

(٢٣) راجع : نقولا زيادة « تطور الطرق التجارية البحرية والتجارة بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي » في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، السنة الاولى ، العدد الرابع ، ص ٦٩ ـ ٩٤ وخاصة ص ٨٣ .

(٢٤) ياقوت « معجم البلدان » (ليبزغ ، ١٨٦٨) ٣/ ١٠١ ـ ٢
راجع أيضا ٤/١٦٨ و ٤٨١ ـ ٤٨٢ عن قلهات ومرباط واللبان .

(٢٥) Mirsky, p. 245.

(٢٦) *Ibid*., p. 239.

ابن المجاور : دراسة تقويمية لكتابه « تاريخ المستبصر »

بشير ابراهيم بشير

هذه الدراسة محاولة لالقاء شيء من الضوء على سيرة ابن المجاور وعلى بعض الجوانب من كتابه « تاريخ المستبصر » ، المصادر التي اعتمدها ومنهجه ومذهبه في التصنيف ، وقيمة المادة التي يضمها الكتاب بين دفتيه ٠

ترجمة ابن المجاور :

ان اسم المؤلف المثبت في طبعة لوفغرين لكتابه هو : الشيخ المسند المحدث المؤرخ جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي ٠ ولابن المجاور الدمشقي هذا عدة تراجم (١) اهمها تلك التي اوردها له صاحب « شذرات الذهب » في حوادث سنة ٦٩٠ هـ ، والتي يقول فيها (٢) : « وفيها ابن المجاور نجم الدين ابو الفتح يوسف بن الصاحب يعقوب بن محمد على الشيباني الدمشقي الكاتب ، ولد سنة احدى وستمائة ، وسمع من الكندي ــ وعبد الجليل بن مندويه وجماعة ، وتفرد برواية « تاريخ بغداد » عن الكندي وتوفي في الثامن والعشرين من ذي القعدة ، وكان دينا مصليا ، الا انه يخدم في المكس ، قاله في « العبر » »٠

وقد تقبل جميع من تصدى لسيرة مؤلف « تاريخ المستبصر » بالدراسة الاسم على النحو المذكور ، والترجمة تلك (٣) ٠ ولكن الاستقراء الداخلي للكتاب نفسه لا يبيح ما ذهبوا اليه ٠ ولعل اول واهم تلك الادلة المستقاة من الاستقراء الداخلي ، الاسم الذي يورده ابن المجاور لابيه : « وكتب والدي محمد بن مسعود بن علي بن احمد المجاور البغدادي النيسابوري ٠٠ » (٤) ويشفع ذلك بدليل اخر في موضع اخر حيث يذكر اخاه فيقول : « وقال لي اخي احمد بن محمد بن مسعود » (٥) فالاختلاف بين اسمي الرجلين واضح جلي : فاسم والد ابن المجاور الشيباني الدمشقي هو يعقوب بن محمد بن علي ، والمؤلف يذكر ان اسم والده هو : محمد بن مسعود بن علي ، وبينما ينتسب الاول شيبانيا دمشقيا ، ينتسب الثاني بغداديا نيسابوريا ٠

ويذكر المؤلف ايضا ان خراسان هي موطنه (٦)٠٠ ويؤيد تلك النسبة الى بلاد الفرس الاشعار الفارسية التي اوردها المؤلف لنفسه (٧) ولغيره من الشعراء الفرس (٨) مع ايراده ترجمات عربية لها ٠

ومن المؤسف حقا ان المؤلف يورد اسمي ابيه واخيه كاملين ، ويكتفي بالرجوع الى نفسه في الكتاب كله باسمه العائلي : ابن المجاور ٠ ومما يزيد الامر تعقيدا ان هذا الاسم العائلي قد حمله الكثير من الافراد في مختلف البلاد الاسلامية ٠ فهناك عائلة ابن المجاور الشيبانية الدمشقية السالفة الذكر ، وفيما يبدو فان المؤلف لا تربطه صلة بهذه العائلة ، سوى ترادف الاسم العائلي ، يؤيد من ذلك الى جانب ما تقدم ، ان المؤلف لم يكن ليتغافل عن الانتساب لبني شيبان ذلك البطن النابه الذكر من بكر بن وائل ، ويكتفي بالانتساب الى بغداد ونيسابور ٠

وهناك ايضا اسرة اخرى تحمل الاسم ولها صلات ببلاد فارس ودمشق ، وقد نبغ من افرادها الوزير الايوبي المعروف ، بابن المجاور ، والذي يقول عنه المقريزي في خططه (٩) : درب ابن المجاور : هذا الدرب على يسرة من دخل من اول حارة الديلم ، كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان ، عرف به ٠ وهو يوسف بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسي الشيرازي المعروف بابن المجاور ، كان والده صوفيا من أهل فارس ، ثم من شيراز ٠ قدم دمشق واقام في دويرة الصوفية بها ، وكان من الزهد والدين بمكان ، واقام بمكة وبها مات في رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكان اخوه ابو عبد الله قد

سمع الحديث ، وحدث ، وقدم الى القاهرة ومات بدمشق اول رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة · ويبدو ان هذه الاسرة لا تمت بصلة أيضا الى بني المجاور الشيبانيين · ولكن يصعب الجزم بعدم وجود علاقة بينها وبين اسرة المؤلف ·

ويتضح مما تقدم ان اسم : ابن المجاور حملته عدة اسر في فارس والشام ومصر ، وربما غيرها من البلاد الاسلامية · وقد نبه ذكر عدد من افراد هذه الاسرات في القرنين السادس والسابع الهجري · وبينما يحق لنا ان ننسب تصنيف كتاب « تاريخ المستبصر » الى ابن المجاور البغدادي النيسابوري والذي نعرف اسم والده واخيه وعدد من اجداده ، الا انه يتعين علينا ان نتريث فيما يتصل باسمه الاول في انتظار المزيد من البحث والدراسة (١٠) · ومن البديهي يتوجب علينا ان نكف عن نسبة الكتاب الى ابن المجاور الشيباني الدمشقي ·

واذا لم يتيسر لنا الوقوف على الاسم الاول للمؤلف الان ، فاننا نعرف الكثير عن شخصيته من خلال ما ذكره عن نفسه في مصنفه · وهي نفس المادة التي اعتمدها الباحثون الذين تصدوا لدراسة سيرة ابن المجاور من قبل (١١) · وتجدر الاشارة هنا الى انه قد قلل من قيمة دراسات هؤلاء النفر ما جاز عليهم من الخلط بين ابن المجاور المؤلف وابن المجاور الشيباني ، وما ترتب على ذلك من زلل · فقد حاولوا جهدهم التوفيق بين ما جاء في التراجم العديدة الموجودة لهذا الاخير ، وبين المادة التي اوردها المؤلف عن نفسه بين دفتي كتابه · فمن امثلة ذلك ما ذهب اليه دى جويه De Goeje من ان ابن المجاور قد ولد بدمشق وترعرع ببغداد (١٢) · ولكن ما جاء في « تاريخ المستبصر » يرجح ان المؤلف قد ولد ببغداد او نيسابور وانه ترعرع بخراسان ، وان الفارسية التي يقول بها الشعر هي لسان امه او هي لسان البلاد التي نمى فيها وترعرع · ومثل آخر ، فابن المجاور الشيباني قد ولد في عام ٦٠١ـ ١٢٠٤م وتوفي سنة ٦٩٠ ـ ١٢٩١م (١٣) ·

وقد ابدى بعض هؤلاء الباحثين الاوائل الامتعاض للتناقض الواضح بين التراجم وبين مادة الكتاب فيما يتصل بذلك (١٤) ، دون ان يتهيأ لهم اكثر من ذلك ·ومرة اخرى فمادة الكتاب ترجح ان المؤلف من مواليد النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وانه ربما توفي في النصف الاول من القرن السابع الهجري.

نفس السنة الى عدن (١٦) ، واخر تاريخ ذكره المؤلف في كتابه هو سنة ٦٢٦/١٢٢٨ـ١٢٢٩م (١٧)، مما يشير الى انه انتهى من تصنيف كتابه بعد ذلك التاريخ بقليل (١٨) · ومن ناحية اخرى فمعظم الاحداث التي يذكرها المؤلف ترجع الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) (١٩) ·

وكل ذلك يجعل من العسير علينا ان نتقبل بأن المؤلف كابد ركوب البحر ومعاناته ، وهو لما يتجاوز السبعة عشر عاما من عمره ، وانه في مثل ذلك العمر يطمح الى مجالسة ملك التجار ، او انه في الخامسة والعشرين من عمره توفر على تلك التجربة الواسعة التي يزخر بها كتابه · كما لا يعقل انه عاش الى عام ٦٩٠ـ١٢٩١م ، ولم يضف الى تجاربه جديدا يضمنه كتابه · ولذلك يغلب الظن كما اسلفت ، ان المؤلف من مواليد النصف الثاني من القرن السادس الهجري وانه توفي بعد سنة ٦٢٦/١٢٢٨ـ١٢٢٩ بقليل ·

والمادة التي اوردها المؤلف عن حياته متناثرة بين دفتي كتابه ، لكفيلة بان تجلو لنا الكثير من الغموض عن شخصيته اذا اعتمدت بعيدا عن الخلط الذي تعرض له الباحثون الاوائل · فابن المجاور تاجر بحري يمتلك مركبا (٢٠) · يسافر به في بحر العرب والمحيط الهندي · وهناك العديد من الادلة على ثقافته البحرية ودربته على ملاحة البحر · فهو يستخدم المرشدات البحرية المعروفة بالراهنامجات في اسفاره

البحرية (٢١) ٠ ويحدثنا تارة عن الخط الملاحي بين بلاد اليمن وجزيرة جاوة في اندونيسيا (٢٣) ٠ وقد امكنته اسفاره البحرية واحترافه التجارة من زيارة كثير من البلاد ، كالهند والسند ومعظم بلاد فارس والعراق والحجاز واليمن وحضرموت وعمان ٠ ثم ابحر الى الشاطىء الشرقي لافريقيا فزار مقديشبو (٢٤) ٠ وربما كلوة (٢٥) وجزيرة القمر (٢٦) ٠ وهناك من الادلة ما يشير الى انه وصل جزيرة جاوة (٢٧) ٠ ويغلب ظني ان المؤلف قد لاقى حتفه في احدى رحلاته البحرية تلك قبل ان ينقح كتابه ويراجعه مراجعة دقيقة ٠

ان المؤلف يكشف لنا في كل سطر من مؤلفه عن معرفة واسعة بالحياة الاقتصادية للبلاد التي زارها ، مما يؤكد احترافه للتجارة واهتمامه بها ٠ ويبدو ان ابن المجاور كان ينتمي الى تلك الزمرة من التجار المسلمين الافذاذ الذين جمعوا بين الاهتمام بالدنيا والدين ، وكان لهم دور بارز في انتشار الدين الاسلامي والثقافة العربية اسلامية ٠ فالى جانب حذقه للتجارة البحرية ، كان المؤلف فقيها واديبا ذا خطر ٠ فنجده يستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف في عدة مواضع (انظر : الملاحق) ٠ ويستشهد بمئات المقطوعات الشعرية في كتابه ٠

التعريف بالكتاب :

واول من نبه الى كتاب ابن المجاور في العصر الحديث ، هو المستشرق سبرنجر Sprenger في عام ١٨٦٤ فأشاد به ، ورفع من قدر المؤلف وساوى بينه وبين كبار الجغرافيين المسلمين امثال المقدسى (٢٨) ٠ وقد دار خلاف منذ البداية حول عنوان الكتاب ، فترجمه الباحثون الاوائل « بتاريخ المستنصر » ولكن لانعدام الصلة بين مادة الكتاب ، ومدلول هذا العنوان ، فقد اقترح المستشرق اوسكار لوفغرين ، وهو اخر من قام بدراسات جادة حول المؤلف ، بوسمه « بتاريخ المستبصر » (٢٩) ، وهو العنوان الذي نشر به الكتاب٠ وهو عنوان مقبول ومناسب لاتصاله بمادة الكتاب وللائمته لما رمى اليه المؤلف من استعبار واستبصار بتدوينه لمشاهداته وتجاربه ٠

وتاريخ مخطوطات الكتاب يكتنفه الكثير من التعقيد ، فقد وجد عدد منها طريقه الى اوروبا على يد المستشرق شيفر Schefer ، كما اضاف كل من دى خويه ولاندبرج مخطوطتين اخريين ٠ وقد حاول كل منهما ان يحقق الكتاب وينشره ، الا ان التوفيق لم يحالف ايا منهما ٠ وعني بمخطوطات الكتاب بعدهما لوفغرين والذي تمكن من الحصول على مخطوطة استنبول (٣٠) ٠ وقد نشرت اجزاء ونتف متفرقة من الكتاب في ازمان مختلفة ٠ فقد قام المستشرق كارلو لاندبرج بنشر نتف منه في :

Etudes sur les dialects de l'Arabie Meridionale,I-II, (Leide, 1901-1913).

« دراسات في لهجات الجنوب العربي ـ ١ ـ ٢ ـليدن ـ (١٩٠١ ـ ١٩١٣م) » ٠

وقد قام المستشرق لوفغرين نفسه بتحقيق ونشر الاجزاء الخاصة بميناء عدن في :

Arabische Texte zur Kenntnis der Stadt Aden im Mittelalter. I. Zur Topographie (Uppsala, 1936).

« نصوص عربية لمعرفة احوال مدينة عدن في العصور الوسطى ـ ابسالا (١٩٣٦) » ٠

وفي عام ١٩٣٥ وباشارة من البروفسير س٠سنوك C. Snouck قرر مجلس مؤسسة دى خوى بليدن ، تحقيق ونشر كتاب ابن المجاور كاملا في سلسلة مطبوعات المؤسسة وتحت اشراف المستشرق لوفغرين ٠ ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية وقفت حائلا دون اتمام لوفغرين للعمل ، حيث تمكن من نشر الجزء الاول في عام ١٩٥١م (ليدن ـ مطبعة بريل) والجزء الثاني في عام ١٩٥٤م (ليدن ـ مطبعة بريل) (٣١) ٠

وعلى الرغم من المجهود الكبير الذي قام به لوفغرين نحو نشر الكتاب ، الا ان الطبعة جاءت خلوا من المقدمة التي تستعرض سيرة المؤلف (٣٢) . ومنهجه ، وتلقي الضوء على مخطوطات الكتاب ، والمادة التي يتضمنها . وفي نفس الوقت فان الطبعة تفتقر الى الهوامش الوافية والحواشي اللازمة في مثل هذا العمل . وكل ذلك يؤشر الى ضرورة اصدار طبعة جديدة للكتاب تجعل من هذا السفر النفيس موردا ميسور الاستخدام سهل التناول بالنسبة للباحثين .

منهج المؤلف :

يبسط المؤلف في خطبة كتابه أسلوبه ومنهجه في معالجة ما تصدى له ، فيبدأ بتحديد الفن الذي أخذ نفسه بالكتابة فيه ، فيقول : « وبعد فان فن التاريخ ولا سيما ما يتعلق بمعمورة الارض وعروض بلادها وأطوالها وأوضاع مبانيها ومسافات مغانيها وتصوير أقطارها وتبيين أحوال أمصارها من أبدع الفنون وأغربها وأبعدها غورا وأعجبها » (٣٣) .

وهو يحدد البلاد التي يريد الكتابة عنها بأنها مكة ومملكة اليمن ، ويسوق لهذا التخصيص عددا من المبررات فيقول : « هذا ولا مرية لذوي العقول والأديان في أن مكة زادها الله شرفا أم القرى وسرة الارض المعمورة ، وأحب بلاد الله الى الله ورسوله في السنن المشهورة . ثم أن أيمن ما حولها من البلدان وأبركها مملكة اليمن المخصوص بالبركات الثلاث النبوية في جواهر السنن ، منبع الحكمة ومعدن الفقه والايمان من سالف الزمن» . (٣٤)

وابن المجاور بهذا التخصيص يضم نفسه الى زمرة الجغرافيين الاقليميين – (٣٥) وما ساقه من مبررات للكتابة عن مكة واليمن يؤكد انتماءه الى مدرسة الجغرافيين الاسلاميين الكلاسيكيين المعروفة بمدرسة اطلس الاسلام (٣٦) – والتي تعتبر دار الاسلام مركزا للعالم ، وان مركز دار الاسلام نفسها هو جزيرة العرب بعامة والحرمين الشريفين بخاصة .

ثم أن المؤلف يسترسل في شيء من التفصيل ليصف ما هو بصدده من شأن مكة واليمن ، فيقول : « فخصصت هذين القطرين في هذا الكتاب بذكر ما يتعلق بهما في هذا الفن من بيان البقاع والبلاد والمدن والجبال والبحار ، وشرح المنازل والمغاني ومقادير المسافات في المفاوز والمقار ، ثم تصوير كل بقعة منه حتى كأنك تراها رأي العين ، وتوقف بها على أرجائها فيغنيك ذلك عن الأين في البين ، ولا نعدم كل بقعة من نادرة جرت فيها من الاخبار ، وشعر نظم في سلكها قديما من الاشعار » (٣٧) و « تاريخ المستبصر » في الواقع وصف لحياة – مدن الحجاز (٣٨) واليمن وحضر موت وعمان وبعض الخليج في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، والربع الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وللمؤلف منهج محدد المعالم في الكلام عن هذه المدن :فهو يبدأ بذكر اسم المدينة وأصوله اللغوية والروايات المختلفة حوله ، وقد يذكر اسم بانيها ، ثم ينتقل الى وصف اثنوغرافي لساكنيها يتضمن القول في أعراقهم وأصولهم وألوانهم ، ووصف ملابسهم والاسماء الشائعة بينهم ، ثم يذلف الى وصف عاداتهم في الزواج ، ويستطرد في الكثير الغالب الىوصف سلوكهم الجنسي وما عليه نساؤهم من صون وعفاف ، أو تبذل وتفسخ . ومن ثم يحدثنا عن جانب آخر من حياة المدينة محبب الى نفسه ، ألا وهو حياتها الاقتصادية ، فيصف أنواع زراعاتها ووارداتها وصادراتها ومعاملاتها التجارية من نحو سكة ومكوس وأسعار وموازين ومكاييل ومقاييس، ومن ثم يتطرق للحديث عن خططها فيذكر تطورها العمراني ومبانيها الأثرية ، ووسائل شرب المياه بها من آبار وصهاريج ومصانع مياه ، ثم يعرج الى ذكر الولاة الذين تعاقبوا عليها منذ أنشائها ، وقد يمدنا بخارطة بيانية للمدينة وربما تنبأ بتاريخ خرابها ودمارها . وينتهي بذكر الطرق الخارجة منها وكأنه بذلك يؤذننا بالرحيل عنها والانتقال الى بقعة أخرى .

والمؤلف قد يلتزم هذا الترتيب ، وقد يتجافى عنه بالتقديم والتأخير والحذف والاضافة ٠ ويعيب أسلوب المؤلف الكثير من الاخطاء النحوية واستعمال بعض الكلمات الدارجـة ، الا أن بساطة ألفـاظه ويسر تعـابيره وسلاستها يدعو القارىء الى أن يغفر له تلك الهنات ٠

مصادره :

ان المؤلف قد أعتمد عدة مصادر في كتابه يمكن اجمالها فيها يلي مرتبة على حسب نصيبها من اتساع الاعتماد والاستفادة : ــ المشاهدة والتجربة الشخصية ، المخبرين ، الشعـراء ، الكتب ، القـرآن الكـريم ، الحديث الشريف الأمثال ، الاحلام ٠

التجربة الشخصية والمشاهدة هما دون شك اول مصادر المـؤلف ٠ فاحترافه التجارة دفعه الى معانـاة الرحلة والسفر في البر والبحر ، تعرف خلالها على عدد من الامم والبلاد تختلف في طبيعتها وطبائعها ٠ وأن هذه الرحلـة الواسعة المقترنة بالملاحظة الدقيقة ، والثقافة الادبية والتاريخية والدينيـة الرفيعة وحب المعرفـة والاستطلاع وأرتياد المجهول ، وغير ذلك من الصفـات والخصال ــ جعلت من أسفار المؤلف وتجاربه ، مصدرا أساسيا وهاما لاستقاء الشطر الاعظم من مادته ، وبصورة مباشرة ، ودون وسـائط ، كما زودته بذخيرة واسعة من المعلومات والحقائق عن العديد من البلاد والامم جعلتهيعقد المقارنات ويتمثل القياس في سهولة ويسر (٣٩)٠ وابن المجاور بذلك يلحق بركب أولئك النفر من الجغرافيين المسلمين الرحالة الذين أبوا اكتساب معارفهم عن طريق الآخرين ــ وهم الفئة التي أضافت بالفعل جديدا الى العلم والمعرفة بتوسيع دائرة المعارف الجغرافية ٠

ويأتي المخبرون في المرتبة الثانية بالنسبة لمصادره ، فصاحبنا بحكم حله وترحاله ، يتعذر عليه التوفر على كل ما يريد من معلومات عن البلاد التي يزورها ، وبخاصة ذلك الضرب من المعلومات الـذي لا تغنى دقـة الملاحظة في تحصيله كل الغناء ، ولا يتهيأ الوقوف عليه الا لصاحب الدار المقيم ٠ فالمخبـرون بذلك يكونون طبقة هامة من طبقات مصادره ولهـم دور تكميلي لمشاهداته وتجاربه ٠

ومخبروه (٤٠) اذا شئنا تصنيفهم فتختلف هوياتهم ومشاربهم : فمنهم ذو الشأن والشوكة كالسلاطين : السلطان ناصر بن منصور ، والسلطان جميل ، والقضاة : قـاضي الجبل الصليحي ، ومحمـد بن أبي سعيد القاضي الـرازي ٠ وبعضهم من سواد الناس وعامتهم يمتهنون حرفا وضيعة : مكـاري ، جمال ، وقـد ورى (صانع قدور) ٠ ومنهم رجال الدين من كل ملة ونحلة : محمد بن زنكل بن الحسن ابن عميد كرمان الكرماني الساكن في مسجد الرباط ، صائغ يهودي بعدن ، وبعض النصارى ٠ وكذلك اختلفت بلادهم : الدمشقي الواسطي ، البغدادي ، الرازي ، الكرماني ، الفيروزكوهي ، الشيرازي ، الجرجاني ، البلخي ٠٠ وهلم جرا ٠

ونستشف من ذلك أن ابن المجـاور في شغفه ونهمه لتحصيل المعلومات وطلبها ، لم تقف في طـريقه الحواجز الاجتماعية أو الدينية أو نحو ذلك ٠ بل أن هذا التنويع في طبقات المخبرين ، ربما كان منهجا سعى المؤلف اليه عن تفكر وروية تحسبا للزلل ٠ ويقف شاهدا ودليلا على ما ذهبت اليـه ، أن المؤلف ربمـا سأل أكثر من مخبر عن الامر بعينه (٤١) ٠ ولكن على الرغم من هذه الحيطة والتحرز فابن المجاور كغيره من المؤلفين الذين أعتمدوا المخبرين ، قـد سقط في أحابيل المـدلسين منهم وأنطلى عليه خداعهم ٠ فمن أمثلة ذلك مـا حدثه به أحد مخبريه عن صفة مدينة صحار بعمان في الماضي : « حدثني أبو المجد بن أبي محمد الكمال بن الكمال العلوي الحسيني ، قال : أن صحار كانت أثنى عشر ألف قرية مع أثني عشر ألف قصر مع أثني عشر ألف نهـر مع اثني عشر ألف جامع ، وكان يسكن كل ناخوذة قصرا ويشرب أهله من نهر ٠ فاذا كان يوم الجمعة يجتاز الى الجامع في تسعة وتسعين من خدمه وأشياعه وقرائبه وأعوانه » (٤٢) والدليل على أن صاحبنـا تقبل هذا الهراء عن طيب خاطر ، أنه لم يرفع اصبعا بالنكيـر ٠

وعلى الرغم مما تقدم ، فان المؤلف قد أستخدم مخبريه كمصدر لاستقاء المعلومات في غاية القصد والسداد. ويقيني أن اعتماد المخبرين منهج لا غبار عليه ما زال يحتل مكانه اليوم ضمن روافد تجميع المادة وتحصيلها.

ويحتل الشعر المرتبة الثالثة في مصادر ابن المجاور ، ولا غرو فالمؤلف شاعر ينظم بالعربية والفارسية (٤٣) . واعتماد الشعر مصدرا أمر معمول به عند الجغرافيين المسلمين ، خاصة أولئك الذين تعرضوا لذكر جزيرة العرب وبقاعها (٤٤) ، وهو يورد ما يربو على المائة وخمسين مقطوعة شعرية ، أغلبها بالعربية والقليل منها بالفارسية ، بعضها لشعراء معروفين كالنابغة الذبياني وكعب بن زهير ، والبعض الآخر لشعراء مغمورين لا نعرف عنهم شيئا ، وجلهم من شعراء اليمن في القرن السادس الهجري . والمؤلف لا يستخدم كل الاشعار كشواهد جغرافية وتاريخية ، بل ربما ساقها كشواهد لمختلف المواقف في الحياة الانسانية .

وكمؤلف رحالة فمن الطبيعي أن تحتل المصادر المكتوبة بالنسبة له مكانا غير رفيع . فعدد المؤلفات التي يأخذ عنها لا تزيد عن السبعة عشر . وقليل منها أعمال في التاريخ والجغرافيا . ففي حديثه عن تاريخ اليمن مثلا يعتمد اعتمادا كاملا على كتابي الأمير أبي الطامي جياش بن نجاح والفقيه عمارة بن محمد الحكمى الموسومين بعنوان واحد : « المفيد في اخبار زبيد » . ومن بين الكتب التي يرجع اليها : « مروج الذهب للمسعودي » ، « وكتاب التفهيم في علم التنجيم » لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني . ثم هو يذكر « كتاب المسالك والممالك الثاني » دون ذكر اسم مؤلفه . ويغلب الظن أنه يقصد « كتاب المسالك والممالك » المنقح لابن حوقل والمترجم « بصورة الأرض » (٤٥) .وذلك أنه أستفاد من هذا الكتاب في عدة مواضع دون أن يذكر ذلك ، بل ينقل عنه نقلا حرفيا عند حديثه عن تحديد بلاد العرب . (٤٦)

واستخدام ابن المجاور لكتابي « المسالك والممالك » و « مروج الذهب » ينفى ما ذهب اليه اشبرنجر من أرتياب في معرفة المؤلف للأدب الجغرافي السابق له . (٤٧)

وأخيرا فمن أهم الكتب التي يذكرها ابن المجاور تلك المراجع المعروفة باسم الراهنامجات (المرشدات الملاحية) والتي ألقى ضوءا على أهميتها المستشرقفيران . (٤٨)

ويأتي القرآن الكريم في المرتبة الخامسة بالنسبة لمصادره من حيث استقاء المعلومات . وكما اسلفت القول فالمؤلف يتمتع بثقافة دينية رفيعة . وجملة الآيات التي أوردها تبلغ زهاء الأربع وعشرين . وهو يستشهد بالآيات القرآنية في تأييد رواياته التاريخية . فهو يسوق الآيات مثلا عند حديثه عن مكة وأهل الكهف وبلقيس والاحقاف ... وهلم جرا .

وينتفع ابن المجاور من الحديث النبوي والامثال فقد كانت في جملة مصادره وان كان ذلك بصورة محدودة . (٤٩)

ومن بين مصادر ابن المجاور مصدر غريب وفريد،هو الاحلام . فعندما يستعصي أمر على تجربته الشخصية وعلمه ومخبريه ، فان هاتفا يلقى اليه الاجابة في نومه فيسجلها صاحبنا (٥٠) وهو في الواقع امر اشبه بالرأي الذي يتوصل اليه عن طريق اعمال الفكر والنظر والاجتهاد . وهو اضعف مصادره دون مراء .

مادة الكتاب :

يمكننا ان نتحدث عن المادة التي وردت بكتاب « تاريخ المستبصر » تحت ثلاثة اقسام رئيسية : اثنوغرافية وتاريخية وجغرافية .

ونعني بمادته الاثنوغرافية وصفه للعناصر البشرية المتباينة التي كانت تزخر بها مـدن الحجاز واليمـن وحضرموت وعمان والخليج ، وما اورده عن ملابسهم ومآكلهم واسمائهـم وعاداتهـم وتقاليدهـم فـي الزواج والجنس ، وحديثه عن مذاهبهم الدينية والاساطير السائدة بينهم ٠

فيحدثنا ابن المجاور عن التكوين العنصري لمكة ، فيقول : « وهم رجال سمر لان جلة مناكحهم الجواري السود من الحبش والنوبة طوال الجثث ، صحيحين (كذا) اللغة ، قليلين (كذا) المال ، كثيرين (كذا) العشائر والقبائل ذوو قناعة » (٥١) ٠ فالمؤلف في هذه الجملة القصيرة يحشد لنا الجم الغفير من الحقائق والمعلومـات عن المكيين في بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ٠ ومرة اخرى يصف لنا ملابس المكيين ، ومآكلهم واسماءهم ، فيقول « وملبسهم النصافي النيسابوري الرفيع ، ويتحزم بنصفه الثاني ويرمي بما فضل منها ، ولبس نسائهم القنوع والبراقع ، ومأكولهم اللحم والسمن والخبز ، واساميهم سالم وسلم وغانم وغنام وفراح وفارح وقاسم وهياب ونهاب ووثاب ومطاعم ومطاعن ٠٠٠ » (٥٢) ٠

وللمؤلف ولع شديـد بوصف المعتقدات الدينية لسكان البلاد التي يزورها ٠ فهو مثلا لا يكتفي بالحديث عن الخوارج والاباضية في بلاد جنوب الجزيرة العربية ، فيعقد فصلا كاملا للحديث عن التوزيع الجغرافـي للخوارج والاباضية في العالم الاسلامي اجمع (٥٣) ٠ وربما كان في ذلك متأثرا بابن حوقل (٥٤) ٠

وللمؤلف شغف بالاساطير والخرافات ، جعله لهجا بذكرها وتسجيلهـا وينـدرج مـع ذلـك ولعـه بالبطولات الاسطورية والاعمال الخارقة التي تنسب الى ابطـال العرب في الجاهليـة والاسلام كعنترة العبسى وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وعلى بن ابي طالب ٠ ويلقى المؤلف على ابطالـه هؤلاء مسحـة مـن الاساطير الهيلينية تقترب بهم من شخصيات هرقل ويوليسيس ، وغيرهما من ابطال الاغريق الاسطوريين الذين جابـوا الارض وطافوها يفعلون كل عجيب ويأتون بكل خارق ٠ ولعل لاحاديث ذى القرنين والتـي يلـم المؤلف بطرف منها (٥٥) يد في ذلك ٠

والاسطورة التي يرويها لنا عن كنز جبل الملحاء الذي اكتنزه احد التبابعة هناك ، لهـي دليل اخر على تأثره بالاساطير الاغريقية ، فهو يحدثنـا عن كيفية الوصول الى هذا الكنـز ، فيقول : « فصارت أهل هـذا الزمان يدخلون كبب غزل الوبر ، ويصطحبون معهم سراج ومقدحة وخطاف وفتل وبر ٠ يشد خيط الوبر في رأس باب الغار وكلما مشى احدهم نشر الغزل والخطاف٠٠٠ واذا رجع القوم لا يزالون يكببون غزل الوبر وهم راجعون الى فم السرب ، فذلك العمل دأب القوم » (٥٦) ٠ وهو امر يذكرنا دون شك باللابرنث والميناتور ٠ والصورة التي رسمها لابطاله العرب اولئك فيها كثير من هذه الظلال الهيلينيـة : فهـم لا يقفون عنـد قتل الاقران والانداد ، كما هو ديدن سائر ابطال العرب ، بـل يصرعون التنـين والافعـى ويشقون الطرق المعبدة ويشيدون الابنية والهياكل الفخمة (٥٧) ٠

ويقترن باهتمامه بالاساطير والبطولات القديمة ميل له خـاص الى الـوقوف على الاثـار القديمة والابنيـة العجيبة ، والتأمل لها ــ فهو يعقد فصلا لوصف غرائب الابنية القديمـة (٥٨) ٠ ويحدثنا عن المقـابر القديمة بنجد ، فيقول : « قبور بنيت بالآجر والجص ، ألوف مألفة ، لم يعلم اهل زماننا لمن تلك القبور » (٥٩) كما تسترعي انتباهه الآبار المبنية بالحجر والجص وخشب الساج بذلك الاقليم ، فيقف متأملا متفكرا : « ولا شك ان هذا الاقليم كان عامرا وفيه بساتين عمرت على تلك الآبار » (٦٠) ٠

وعموما فقد اثنى الباحثون المتقدمون على غزارة المادة الاثنوغرافية التي خلفها لنا ابن المجاور ، وربما جعلوها اقيم واجل ما اتى به (٦١) ٠

ولعل أثمن مساهمة لابن المجاور ، كتاباته عن الحالة الاقتصادية للحجاز وجنوب الجزيرة في القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الهجري · فهو ترك لنا معلومات وافية عن كل جوانب الحياة الاقتصادية في البلاد التي زارها · في المجال الزراعي مثلا ، يحدثنا عن أهم المنتجات لكل منطقة ، وأنواع النباتات والاشجار الداجنة بها وتلك التي استقدمت من بلاد اخرى ، ولا ينسى ان يحدثنا عن طرق الزراعة والري · وهو لا يتورع من ايراد الاسطورة في حديثه عن الزراعة ، فيروي لنا قصة ادخال زراعة الكرم الى الطائف في خبر طريف : وذلك ان ثقيفا ورجلا من بني ابيه اياد بن نزار قتلا رجلا فافترقا ، فسار ثقيف الى وادي القرى ، حيث اتصل بامرأة يهودية ، واعطته قبيل وفاتها اعواد شجرة الكرم ليغرسها ويرتزق منهافي البلد التي يحل بها، فسار حتى نزل قريبا من الطائف ، على عامر بن الظرب القيسى فتزوج ابنته ، وقام بغرس تلك القضبان « فنبتت واطعمت » (٦٢) · والقصة على طرافتها لا تخلو من الحقيقة التاريخية (٦٣) · ويحدثنا في مواضع اخرى عن تواريخ ادخال الكثير من انواع الزراعات في بلاد اليمن (٦٤) ·

ويورد ابن المجاور الكثير عن الصناعات بتلك البلاد · فهو يمدنا بملاحظات هامة عن صناعة الادم ببلاد الحجاز وما حاق بها من كوارث على ايامه : « وكان مسافرو خراسان يشترون جلود البغال الفحولة من رستاق الموصل وسواد اربل وتدبغ في مكة ، وقد بطل جميع ذلك من سنة عشر وستمائة لظهور الكافر بخراسان والري » (٦٥) · ويضيف ابن المجاور الكثير المفيد الى ما نعرفه عن صناعة الغوص على اللؤلؤ ببلاد الخليج (٦٦) · ويذكر من المعادن الكبريت بذمار والذهب والفضة بأعمال العواهل ، والحديد بجبل كرمل في منتصف الطريق بين الحجاز واليمن ، ومعدن الملح بين العواهل وبيحان والذي تمتاز منه مذحج وجميع البدو الى بلاد نجد (٦٧) ·

ومن اثمن ما خلفه لنا ابن المجاور من مادة تتصل بالتاريخ الاقتصادي لبلاد الحجاز وجنوبي الجزيرة ، ما أورده من معلومات عن المراكز التجارية الكبرى بها ، كمكة وجدة وزبيد وعدن والمنصورة بعمان · وقد سبق ان اشرت في حديثي عن مادته الاثنواغرافية ، الى ما اورده عن هذه المراكز التجارية وان كان ذلك بصورة مقتضبة · فابن المجاور يبدأ حديثه الاقتصادي عن هذهالمراكز عادة بوصف غلات المدينة ومنتجاتها الزراعية ، ثم ينتقل الى تقدير ما تغله تلك الغلاتِ من دخل لخزانة السلطان ، وقد يضيف الى ذلك عائد الخزانة من مكوس على السلع التجارية الواردة والصادرة · ثم يدلف الى اسواق المدينة فيعدد ما فيها من سلع محلية ومستوردة ويذكر اسعارها وربما عقد مقارنة بين الاسعار المحلية والاسعار في بلاد اخرى عرفها ، ثم يذكر صادراتها ووارداتها وينتهي بالكلام على معاملاتها التجارية من نقد ومقاييس ومكاييل وموازين · وهاك مثلا ما ساقه عن المعاملات التجارية بمكة : « ونقد البلد ذهب مصري ، يضرب على عيار المصري يَسوى الدينار اربعة وعشرين علوى (كذا) ، ويحسب كل علوى اربعة دراهم ، كل درهم ستة فلوس · فلما رجعت الدولة لآلأيوب ضربوا الدراهم الكبار، ويقال أولمن ضرب هذا الدرهم الكبير بها ، المعز اسماعيل بن طغتكين في اليمن · واول من ضرب الدراهم الكبار بمكة الملك المسعود يوسف بن محمد ، على قوانين اليمن · يسوى الدينار المصري اربعة دنانير ونصف ملكي ، يصبح ثمانية عشر درهما يحسب كل اربعة دنانير ملكي (كذا) ، وكل درهم ثلاث جُوز ، وكل جوزة ثمانية فلوس ، وكل فلس أربعة دُرّس · قال ابن المجاور : « وكل ما كان يصح في اول العهد بعلوى رجع ذلك الشيء بدرهم كبير » (٦٨) · ويقول عن سوق البز بزبيد : « وتخرج من زبيد البردة ثمانية اذرع باليد ويشد حملها مائة واثنين وعشرين بردة شد الشحر ، وشقق الحرير والبيض طول الشقة عشرون ذراعا بالحديد · وطول البيرم ستة أذرع ، والسباعية سبعة اذرع ، وهي صنفان : احدهما حرير صرف ، والثاني خلط حرير وكتان في عرض اربعة اذرع ، والملايات والجراب وفوط سوس » (٦٩) · وعن دخل خزانة السلطان بنفس البلدة يقول : « وضمان البلد سنابيق الصيادين والجالة والخضر والبقول التي تباع مع الغلال وما يدخل من الباب تسعين الف دينار ملكي ، وضمان دار الضرب الف دينار ، ودار النبيذ اثنا عشر الف دينار ، وضمان النخل مائة ألف دينار ، والله اعلم واحكم » (٧٠) ·

ويحدثنا عن التجارة الخارجية لمينـائي ديسوت ومسقط من بلاد عمـان ، فيكتب عن الاولى : « وأمـا ديسوت ، كانت مدينة عظيمة وكان من بغداد اليها طريق مطبق مجصص بالجص والنـورة وكانت القـوافل صاعدة بالبربهار أو الخف ، منحدرة بالبضائع التي تدخل الهند مثل الصفر والزنجفر والماورد والفضة وما يشابه ذلك » (٧١) وعن الثانية يقول : « كانت هذه المدينة مرسى مدينة صحار ، وفي هذه المدينة كـانت ترسى المراكب القادمة من أطراف (المعمورة) ٠ وكانوايصعدون بالخف والبربهار الىصحار يبتاعون ويتشارون ومنها كانت تصعد البضائع الى كرمان ومن كرمان الى سجستان ، وكانت البضائع تتفرق في خراسان ، ومـا وراء النهر وزاولستان ، والغور وكربيل » (٧٢) ٠

وقد أولى ابن المجاور الشطر الاعظم من عنايته لعدن كبرى مراكز الجزيرة التجارية آنذاك ، وقد أشرت من قبل الى أن المستشرق لوفغرين قد نشر الجزء الخـاص بعدن في بحث منفصل قبل نشره للكتاب كاملا ، ونوه هناك بأهمية مادة المؤلف عنها ، فاكتفيت هنا بالتنبيه على أهمية ما أورده ابن المجاور عن المراكز التجـارية الأخرى ٠

وقد تفرد ابن المجاور بامدادنا بمعلومات هامة عنالتغييرات والتحولات الكبرى التي تمت في طرق التجارة العالمية في المنطقة ٠ فالمؤلف أول من نبه الى ذلك الصراع بـين الطـريقين المـائيين الكبيرين : الخليج العـربي والبحر الأحمر ، فأشار الى خراب « سيراف » فرضة الخليج وما تبع ذلك من هجرة تجارها وملاحيها في أعداد كبيرة الى البحر الاحمـر وحلولهـم بموانئه ، بل وتـأسيسهم لموانئ جديدة حاملين معهم خبراتهم وعلاقاتهم

مراحل ذلك الصراع الكبير ، وهي تلك الحملة البحرية التي قام بها صاحب جزيرة « كيش » الواقعة على فـم الخليج ضد ميناء عدن ، ابان تملك بنى زريع لهـا في النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وفشل تلك الحملة مؤذنة بنهاية الخليج وموانئه كمركز للتجارة العالمية، وتبوء عدن والبحرالاحمر لذلك المركز (٧٥)٠ وقد أكدت وثائق الجنيزا Geniza التي خلفها تجار الكارم ، سدنـة التجارة الشرقيـة بالبحر الاحمر آنذاك ، أكدت وأيدت ما ساقه ابن المجاور بشأن تلك الحملة البحرية (٧٦) ٠

ان ما خلفه ابن المجاور من مادة في مجال التاريخ الاقتصادي للجزيرة العربية يمثل دون مراء كنزا ثمينا للباحثين في هذا الميدان ٠

ومن الطبيعي الا يحظى التاريخ السياسي بأهتمام كبير من قبل رجل كابن المجاور ٠ فالقليل الذي جاء به عن تاريخ اليمن مأخوذ كما أسلفنا عن كتابي « المفيد في أخبار زبيد » لجياش وعمارة ٠ ولكنه يمدنا بنتف عن تاريخ عمان السياسي في القرنين السادس والسابع الهجريين ، على جانب يذكر من الأهميـة ، فهو يحدثنا كثيرا عن سير وأحوال السلطان أحمد بن عبد الله بن مزروع الحبوضى (٧٧) كما يشير الى أطماع خواجـة رضى الدين قوام الملك أبي بكر الزوزني ، وغيره من آل سلجوق ملوك كرمان ومكران وفارس ، في بلاد عمان وتجاراتها الواسعة ، وكيف أن قوام الملك أستولى عليها وجبى خراجها (٧٨) ٠ وأخيرا يعقد المؤلف فصلا هاما عن تاريخ جزيرة كيش ، وأصل سكانها وما يكتنفه من اساطير (٧٩) ٠

أما ما يضيفه ابن المجاور الى معارفنا الجغرافيـة عن جزيرة العرب فهـو نزر يسير ٠ فهـو يمدنا مثلا بخارطات بيانية لبعض مـدن الجزيرة الهامـة ٠ ولعل من أطرف ما اورده من آراء جغرافية حول الجزيرة ،

هو قوله بأن اليابسة الافريقية والآسيوية كانتا أرضا واحدة متصلة ، وأن البحر الاحمر هو بحر طارىء ، فهو يقول أولا : « يقال أنه في قديم العهد ، لم يكن هذا بحرا وانما كـان عرصة الا أنـه لا فرق بين بر العرب وبر السودان ··· ويقال ان العرب في قديم الزمان كانـوا يطـاردون الخيل في قعـر هـذا البحـر لمـا كـان ناشفا » (٨٠) وبميـوله الاسطورية التي نعـرفها ، فان ابن المجاور ينسب احداث هذا البحر الى ذي القرنين في طوافه الارض بغية احكام أمرها : « كان من القلـزم الى عدن الى ما وراء جبل سقطرة كله بر واحد متصل لافيه بحر ولا بامة ، فجاء ذو القرنين في دورانه ووصل الى هذا الموضع ، ففتح وحفر خليجا في البر ، فجرى البحر فيه الى أن وقف على جبل باب المندب ، فبقيت عدن في البحر وهو مستدير حولها ، وما كان يبان من عدن سوى رؤوس الجبال ، شبه الجزر » (٨١) · ويحـاول ابن المجاور أن يبرهن على صحة نظريته هذه، فيسوق عددا من ملاحظاته الخاصة التي تؤيد دعواه الى جانب الحجج الاخرى ويقول : « ولنا على قولنا دليل واضح ، ان آثار ماء البحر والموج باق بائن في ذرى جبل العر والجبل الذي بني على ذروته حصني (كذا) التعكر وجبل الاخضر » (٨٢) · ولكنه يعود مرة اخرى فيمزج بين الاسطورة وملاحظاته الخاصة في سياق حججه وبراهينه اذ يقول : « والدليل الثاني ان شداد بن عاد ما بني ارم ذات العماد الا ما بين اللحية ولحج ، وبين المغادي التي على طريق المفاليس وهو الرمل الذي الى جبل در زينة · وما بناها الا في اطيـب الاراضى والاهويـة والجو في صنعاء من الارض بعيدا عن البحر · والان رجع البحر في اطراف بلاد ارم ذات العماد وتناول البحر شيئا منه اخذة · ولم يكن بهذه الارض بحر وانما استجد بفتح ذي القرنين فمه من جزيرة سقطرة ، فساح الى ان وقف اواخر المندب· والدليل الثالث ، ان البحر الذي ما بين السرين وجدة يسمى مطـارد الخيـل ومرابط الخيل ، والاصل فيه ان العرب كانت تربط الخيل في هـذه الارض · والاصح انهم كانوا يطاردون به الخيل لما لم يكن بحرا وكان البحر ارضا يابسة · فلما فتح ذو القرنين باب المندب غرق جميـع الاراضى ومـا علا منها صارت جزرا في ناحية البحر يسمى باسم الاصل، مطارد الخيل » (٨٣) ·

وابن المجاور بذلك يسجل سبقا هاما في الجغرافيا الطبيعية ، فقد اثبتت الدراسات الجغرافية الحديثة، ان البحر الاحمر بحر طارىء وحديث نسبيا ، نجم عن انشطار ارضى (٨٤) ·

خاتمـــة :

ان ما خلفه ابن المجاور من آثار وان لم يرق الى مرتبة ما خلفه كبار معاصريه ، كياقوت وعبد اللطيـف البغدادي (٨٥) الا انه يتمتع بمكانة مرموقة ترفعه الى الصف الثاني في طبقتهما · وقد سبق ان اشرت الى ان بعض الباحثين الاوائل قد سما به الى طبقة المقدسى ·

الملاحــــق

الملحق (أ)
المخبـرون

الاسـم	الصفحات: الجزء الاول	الصفحات: الجزء الثاني
١ ـ أبو بكـر البصري المحلي	–	٢٨٥
٢ ـ ابو طالب بن ابي بكر	١١٣	–
٣ ـ أبو علي أحمد بن علي بن آدم اليزبي	٢٠ـ٢٧	–
٤ ـ أبو القاسم بن ابراهيم بن محمد المرابط	–	٢٩١
٥ ـ أبو المجد بن ابي محمد الكمال بن الكمال العلوي الحسيني	–	٢٨٤
٦ ـ أحمد بن سعيد بن عمرو بن عديل	٦٩	–
٧ ـ أحمد بن سلطان المجيدي	٩٨	–
٨ ـ أحمد بن علي بن عبد الله الحمامي الواسطي	٧٠ـ١٤٧	٢٧٠ـ٢٧١ـ٢٧٢ـ٢٨٠
٩ ـ أحمـد بن مسعود	٨٦	–
١٠ ـ أحمد بن محمد بن مسعود	٩٧	–
١١ ـ احمد بن المهنا الصفار الحلبي	١٥١	١٧٤
١٢ ـ اسماعيل بن عبد السيد بن البيع البغدادي	٤٨	–
١٣ ـ بدر مولى بشر الصوفي	–	٢٤٤
١٤ ـ بدوي من أهل البلاد	٩٥	–
١٥ ـ بعض أهل المغاليس	١٤٩	–
١٦ ـ بعض الجمالين	٩٦	–
١٧ ـ بعض النصارى	٣٣	–
١٨ ـ جعفر بن عبد الملك بن عبد الله بن يونس الخزرجي الجرجاني	٦٤	–
١٩ ـ جماعـة من أهل البلاد	–	٣٠٠
٢٠ ـ جوشن بام بن ابي بكر بن سليمان الجاشو	–	٢٩٨ـ٣٠٠
٢١ ـ الحسن بن علي حزور الفيروز كوهي	١٤٦	–
٢٢ ـ الحسن بن علي بن محمد المتولي الصعدي	–	٢٣٢
٢٣ ـ الحسن بن محمد بن الحسن بن علي الحسين المحفني	١٤٩	–
٢٤ ـ الحسن بن محمد بن الحوت	٤٩	–
٢٥ ـ الـراوي	–	٢٠٩ـ٢١٧ـ٢١٨

الاســم	الصفحـــات ج : أول	ج : ثاني
٢٦ ـ ربـــان في عــدن	–	٢٦٥
٢٧ ـ رجل من أهل الجنـد	–	١٦٤
٢٨ ـ رجل من أهل الحجـاز	٩٨	–
٢٩ ـ رجل من أهل فارس	–	٢٩٠
٣٠ ـ رجل مغـربي	–	١٩٧
٣١ ـ رجل من أهل مكة في دار الامارة	–	٢٥٨
٣٢ ـ ريحان مولى علي بن مسعود بن علي بن أحمد	٩٧ـ١١٥ـ١٢٠	٢٤٣ـ٢٤٥
٣٣ ـ الزبير بن أبي بكر	٢٥	–
٣٤ ـ سعد بن مالك بن داود بن سليمان الانصاري	–	٢٨٧
٣٥ ـ سلامة بن محمد بن الحجاج المذحجي	–	١٨٢ـ١٩٥ـ١٩٦
٣٦ ـ السلطان جميل	–	١٧٩
٣٧ ـ السلطان ناصر بن منصور	–	١٧١
٣٨ ـ سليمان بن منصور	–	١٨٦ـ١٩٠ـ١٩٤ـ٢٢٩ـ٢٣٧
٣٩ ـ شيخ قـدوري	٢٥	–
٤٠ ـ صائغ يهودي بعدن	٣٢	–
٤١ ـ الصفار (احمد بن محمد بن مهنا الصفار ؟؟)	–	٢٧٨
٤٢ ـ عبد الله بن داري العنبري	–	١٨٠
٤٣ ـ عبد الله بن محمد الراحي	٥٥	–
٤٤ ـ عبد الله بن محمد	–	١٦٦
٤٥ ـ عبد الله بن محمد بن يحيى	–	١٦٣
٤٦ ـ عبد الله بن محمد بن يحيى الحائك	–	٢٥٦
٤٧ ـ عبد الله بن محمد بن يحيى المهجمي	٥٧ـ١٢٧ـ١٣١	–
٤٨ ـ عبد الله بن مسلم الابيدي الوكيل	–	١٩٣
٤٩ ـ عبد الله بن مسلم ساكن الماه	١٣٣	–
٥٠ ـ عبد الله بن يزيد الحجازي	١٣٣	–
٥١ ـ عبد الرحمن بن أحمد الراحي	٦٥	–
٥٢ ـ عبد الغني بن ابي الفرج البغدادي	–	٢٧٤
٥٣ ـ علي بن صبيح العقولي	١٠٢	–
٥٤ ـ علي بن محسن الجبلي	–	٢٠٩
٥٥ ـ علي بن محمد بن أحمد السباعي	–	٢٥٥ـ٢٥٨ـ٢٧١
٥٦ ـ علي بن معالي الدلال	–	١٩٤
٥٧ ـ عمر بن علي بن صبح	٥٩	–

الملحق : ب

الشعـراء

الاسم	الصفحات ج : أول	ج : ثاني
٥ ـ أبو الحسن بن المعلم	٣٢	ـ
٦ ـ أبو فراس بن حمدان	ـ	١٧٧
٧ ـ ابو نواس الحسن بن هانيء	١٥٠	٢٠١ـ٢٥٢ـ٢٥٣
٨ ـ ابن الدمينة	٤٧	ـ
٩ ـ ابن الرجاء	٨٤	ـ
١٠ ـ ابن سكرة	ـ	٢٧٦
١١ ـ ابن عباد الرومي	١٣٧	ـ
١٢ ـ ابن المجاور	٨٢ـ٨٤	٢٣٤
١٣ ـ الاديب الصبار	ـ	١٩٧
١٤ ـ امرؤ القيس الكندي	٢٣	ـ
١٥ ـ البـاركل ؟	ـ	١٧٧
١٦ ـ بعض العجم	١٣٥	ـ
١٧ ـ بعض الاعـراب	٤١	٢٠٣ـ٢١٠ـ٢١٣
١٨ ـ الحسام الكرماني	٨٤	ـ
١٩ ـ دعبل بن علي الخزاعي	ـ	١٥٩
٢٠ ـ رؤبة النكبي	٩٤	ـ
٢١ ـ كريم بن جابـر	ـ	٢٠٧ـ٢١١ـ٢١٢
٢٢ ـ زكوي بن سكيلا بن عبد الله البحتري	ـ	٢٤١
٢٣ ـ سليمان شاه بن شاهنشاه بن شاذي	ـ	١٦١
٢٤ ـ السيف الحكمـي	ـ	٢٨٦
٢٥ ـ الظهـيري	ـ	٢٤٦
٢٦ ـ الشريف الرضى	١٠٠	ـ
٢٧ ـ عبد آل عـامر	٩٩	ـ
٢٨ ـ عبد الله بن داري بن ابي بكر العنبري	ـ	١٨٠
٢٩ ـ عبد الله بن الحسن بن علي بن القم	ـ	١٧٣
٣٠ ـ عبد النبي بن علي بن مهدي	ـ	٢٥١
٣١ ـ العثمـاني	٧٥	ـ
٣٢ ـ علي بن ابي علي السنوسي	٨٧	ـ
٣٣ ـ علي بن جبلـة	ـ	٢٤٢
٣٤ ـ علي بن زيـاد المازني	ـ	٢٤٨
٣٥ ـ علي بن الحسين الاعوج	ـ	١٥٥
٣٦ ـ علي بن محمد الصليحي	ـ	١٧٦

الاسم	الصفحات ج : أول	ج : ثاني
٣٧ ـ عمـرو القروي	ـ	٢٠٩
٣٨ ـ عنتـــرة	ـ	٢١٦
٣٩ ـ الغــزنوي	ـ	٢٦٥
٤٠ ـ فضل الله الغزنوي	ـ	١٧٨
٤١ ـ قيس بن زهير بن جذيمة	ـ	٢١٨
٤٢ ـ قيس بن الملوح العامري	٨٣ـ١٤٩	ـ
٤٣ ـ كعب بن زهـير	ـ	٢٣٥
٤٤ ـ المــازني	ـ	١٧٢ـ١٧٣
٤٥ ـ محمد بن ادريس الشافعي	٥	ـ
٤٦ ـ محمد بن زياد المازني	ـ	١٥٣
٤٧ ـ محمد بن منصور بن محمد الواسطي	ـ	٢٩٢
٤٨ ـ محمــــود	ـ	٢٧٧
٤٩ ـ المحننى	ـ	١٦٨
٥٠ ـ مصطنع الدولة مواهب بن جديد المقرىء	ـ	١٧٢
٥١ ـ المنصور بن اسماعيل الابري	١٢٥	ـ
٥٢ ـ النـــابغـة	ـ	٢٢٣
٥٣ ـ الهبيتـــي	٨٢ـ١٤٩	ـ

الملحق (ج)

المراجـــع

الاســـم	اسم الكتاب	الصفحات ج : اول	ج : ثاني
١ ـ أبو عبد الله محمـد بن عبـد الله الكرماني	تفسير	١٠٧ـ١١١	ـ
٢ ـ ابو عبد الله محمـد بن عمر بن الحسن الرازي ٠	كتاب معرفة الاديان	٣٣	ـ
٣ ـ ابو الـريحان محمـد بن احمد البيروني	التفهيم في علم التنجيم	ـ	٢٢٦
٤ ـ ابو الطامي جياش بن نجاح	المفيد في اخبار زبيد	٩٥ـ١١٧	ـ
٥ ـ ابن فارس	ـ	٢	ـ
٦ ـ الاحمصى	ـ	٣٩	ـ
٧ ـ امام الحرمين	كتاب اللمع	ـ	٢٨٠
٨ ـ الجوهري	ـ	٣٩	ـ

الاســـم	اســم الكتــاب	الصفحـــات: ج : أول	ج : ثاني
٩ ـ الخليل	ـ	٣٩	ـ
١٠ ـ الرازي	ـ	ـ	١٩٥
١١ ـ الزجاج	ـ	٢	ـ
١٢ ـ عمارة بن محمد بن عمارة	المفيد في اخبار زبيد	٦٠ـ١٢٠	١٧٢
١٣ ـ الفــاكهي	ـ	٤ـ١٨ـ٤٢،٤٧	ـ
١٤ ـ ـ	كتاب المسالك والممالك الثاني	ـ	٢٨١
١٥ ـ المسعودي	مروج الذهب	٥	١٨٢
١٦ ـ مؤلف	كتاب الرهنامج	ـ	٢٦٧
١٧ ـ الهروي	ـ	٣	ـ

الملحق ـ د ـ ١

الصفحات التي وردت بها الآيات القرآنيـة

١ ـ الجزء الاول : ٣ ، ٤ ، ٧ـ٨ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٢١ .

٢ ـ الجزء الثاني : ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ .

الملحق ـ د ـ ٢

الصفحات التي وردت بها الاحاديث الشريفة

١ ـ الجزء الاول : ٥ ، ١٥ ، ٤٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٥ .

٢ ـ الجزء الثاني : ١٩٤ ، ٢٩٦ .

الهـــوامـــش

ملاحظة : اغفل الكاتب وضع رقم الحاشية (٢٢) في موضعها من المتن

(١) أنظر: خير الدين الزركلي «الاعلام» ـ الطبعة الثانية ـ ج : ٩ ـ ص : ٣٤١

(٢) ابن العماد الحنبلي « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت ـ دون تاريخ) ـ ج : ٥ ـ ص : ٤١٧ ٠

(٣) الا ان العلامة كراتشكوفسكي أبدي بعض التحفظات على الاسم دون أن يتعدى ذلك ـ أنظر: اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي « تاريخ الادب الجغرافي العربي » ـ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (موسكو ـ ليننجراد ـ ١٩٥٧) ـ ج : ١ ـ ص : ٣٤٩ ٠

(٤) جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور « تاريخ المستبصر » ـ تحقيق أوسكار لوفغرين : ١٩٥١ ـ ١٩٥٤) ـ ج ـ ٢ ـ ص ٢٥٢ ٠

(٥) ابن المجاور : ج ـ ١ ـ ص : ٩٧ ٠

(٦) نفسه : ج : ١ ـ ص : ١٤ ٠

(٧) نفسه : ج : ١ ـ ص : ٨٢/٨٤ ـ ج : ٢ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ٠

(٨) نفسه : ج : ١ ـ ص : ٨٤ ـ ٨٥ ٠

(٩) أحمد بن علي المقريزي « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » (الخطط) طبعة بالافست من طبعة دار الكتب ـ مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع (القاهرة ـ دون تاريخ) ج : ٢ ـ ص : ٤١ ٠

(١٠) اذا جاز لي أن أقترح اسما للمؤلف ، وبصورة مبدئية جدا فأقول : أبابكر ٠ وذلك أن المؤلف يرجع الى نفسه عادة ب : قال ابن المجاور « والى رواته ب : » حدثني فلان « ٠ ولكنه في صفحة ٢١٣ (مائتين وثلاثة عشر) من الجزء الثاني يورد : « قال : أبو بكر »٠ وهو لا يرجع بذلك الى أبي بكر بعينه سبقت الاشارة اليه ، وليس ثمة اسم يسبق هذه الاشارة الا اسم المؤلف بطريقته المعهودة٠ ولكن من المؤسف فهي الاشارة الوحيـــدة ٠

(١١)

M. de Goeje, "Communication sur le livre d'Ibn al-Modjawir". *Actes du Onzième Congrès International des Orientalistes.* (Paris, 1897). *Troisième section. Langues et archéologie muslumanes.* (Paris, 1899), pp.23-33; O. Lofgren, *Arabische Texte zur Kenntnis der Stadt Aden im Mittelalter,* I. *Zur Topographie.* (Uppsala. 1936). pp. 19-21.

كراتشكوفسكي ج : ١ : ص : ٣٤٩ ـ ٣٥١

(١٢) De Goeje. *op. cit.*. p. 31.

(١٣) أنظر أعلاه ـ وكراتشكوفسكي ج : ١ ـ ص : ٣٤٩

(١٤) كراتشكوفسكي ج : ١ ـ ص : ٣٤٩ ٠

(١٥) ابن المجاور ـ ج : ١ ـ ص : ٨٧ ٠

(١٦) نفســه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٦٧ ٠

(١٧) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٧٦ ؟ ١١٧ : وقع في الكتاب ذكر سنة ٦٢٧/١٢٢٩ـ١٢٣٠ كماذكر كراتشكوفسكي ج : ١ ـ (ص : ٣٤٩) ـ وانظر : ابن المجـاور ج : ١ ـ ص : ١٤٧ ـ ولكن المؤلف يذكر فقط ان عدن ستخرب في ذلك العام ، وهذا لا يفيد أنه كتب في أو بعد ذلك التاريخ ٠

(١٨) كراتشكوفسكى ـ ج : ١ ـ ص : ٣٤٩ ، De Goeje. *op. cit.*. p. 31.
(١٩) أنظر مثلا : ابن المجاور : ج : ١ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ج : ٢ ـ ص : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(٢٠) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٥٠ .
(٢١) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٦٧ ، كراتشكوفسكى ـ ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ .
(٢٢) ابن المجاور ـ ج : ١ ـ ص : ٨١ ، ج : ٢ ـ ص : ١٦٠ ، كراتشكوفسكى ـ ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ .
(٢٣) ابن المجاور : ج : ١ ـ ص : ١١٧ .
(٢٤) نفسه ، ج : ١ ـ ص : ١١٧ ، ١٣٠ ، ١٣٧ .
(٢٥) نفسه ، ج : ١ ـ ص:١١٧ ، ج : ٢ ـ ص : ٢٧٨
(٢٦) أنظر هامش : ٢٣ .
(٢٧) أنظر هامش : ٢٢ .
(٢٨) كراتشكوفسكى ، ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ .
(٢٩) Lofgren. *op. cit.*. p. 19.
(٣٠) كراتشكوفسكى : ج ـ ١ ـ ص : ٣٥١ .
(٣١) كل ما تقدم من معلومات مأخوذة عن مقدمة الطبعة الحالية .
(٣٢) تعرض لوفغرين لسيرة ابن المجاور في الاجزاء الخاصة بعدن ـ أنظر *Arabische Texte* ص : ١٩ ـ ٢١ .
(٣٣) ابن المجاور : ج ١ ـ ص : ١ .
(٣٤) نفسه : ج : ١ـص : ١ـ٢ .
(٣٥) كراتشكوفسكي : ج ١ ـ ص : ٣٤٩ ـ سبق ابن المجاور بعض الجغرافيين الذين كتبوا عن أجزاء من جزيرة العرب . فيذكر ابن النديم في كتاب « الفهرست » : « كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب » وعرام بن الأصبغ صاحب « كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها » (كراتشكوفسكي ـ ١ـ١٢٧) .
(٣٦) كراتشكوفسكي : ج : ١ـص : ٢٠ـ١٩٧،٢١ وما بعدها ـ انظر ابن حوقل : « صورة الارض » ـ دار مكتبة الحياة ببيروت (عن طبعة كرامرس ـ ليدن ـ ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩) ـ ص : ٣٥ .
(٣٧) ابن المجاور : ج١ : ١ ـ ٢ .
(٣٨) لم يتعرض ابن المجاور لذكر المدينة المنورة الا مرة واحدة ، حيث يؤكد الطريق بينها وبين مكة ـ أنظر : ابن المجاور : ج : ١ ـ ص : ١٤ ـ ١٧ ـ ولكنه يتعرض لذكر جدة والطائف الى جانب حديثه عن مكة .
(٣٩) ابن المجاور : ج : ١ ـ ص : ١٠٩ ـ ج : ٢ ـ ص : ١٦٠ ، ٢٦٢ .
(٤٠) أنظر الملاحق .
(٤١) ابن المجاور : ج : ١ ـ ص : ١٣٣ .
(٤٢) نفسه : ج : ٢ ـ ص : ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .
(٤٣) نفسه : ج : ١ ـ ص : ٨٢ ـ ٨٤ .
(٤٤) كراتشكوفسكى : ج : ١ ـ ص : ٤٣ ـ ٤٤ .
(٤٥) نفسه : ج ـ ١ ـ ص : ٢٠١ .

(٤٦) أنظر ابن المجاور : ١ ـ ص : ٣٩ ـ ٤٠ ـ وأنظر ابن حوقل : « كتاب صورة الارض » ص ٢٩ ـ ٣٠

(٤٧) كراتشكوفسكي ـ ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ ٠

(٤٨) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ ٠

(٤٩) أنظـر الملاحــق ٠

(٥٠) ابن المجاور : ج : ١ ـ ص : ٤٩ ـ ٥٠ ـ ج : ٢ ـ ص : ١٥٦ ، ١٧٤ ـ ٢٣٢ ٠

(٥١) نفســه ـ ج ـ ١ ـ ص : ٥ ٠

(٥٢) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٦ ٠

(٥٣) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٧٥ ، ٢٧٨ ٠

(٥٤) ابن حوقل : ص : ٣٣ ـ ٣٤ ، ٤٥ ٠

(٥٥) ابن المجاور ـ ج : ١ ـ ص : ١٠٦ ٠

(٥٦) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٣١ ـ وأنظــر ص : ٢٧ لبداية الحديث عن الكنز ٠

(٥٧) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٤ ـ ١٥ ، ٢٧ ـ ج : ٢ ـ ص : ١٦١ ، ١٧٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ٠

(٥٨) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ١٨٢ ـ ١٨٣ ٠

(٥٩) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢١٩ ٠

(٦٠) نفسه : ج : ٢ ـ ص ـ ٢١٨ ٠

(٦١) كراتشكوفسكي ـ ج : ١ ـ ص : ٣٥٠ ٠

(٦٢) ابن المجاور ـ ج ـ ١ ـ ص : ١٨ ـ ١٩ ٠

(٦٣) Philip K. Hitti, *History of the Arabs*, Tenth Edition (The MacMillan Press, Ltd.), pp. 19-20.

(٦٤) ابن المجاور ـ ج : ١ ـ ص : ٦٣ ، ٧٨ ـ ٧٩ ٠

(٦٥) نفسه ـ ج : ١ ـ ص :١٣ ٠

(٦٦) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ٠

(٦٧) نفسه ـ ج : ١ ؛ ص : ٥٤ـ٥٥ـج٢ : ١٩٩ ٠

(٦٨) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٣ ٠

(٦٩) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٨٩ ٠

(٧٠) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٨٩ ـ ٩٠ ٠

(٧١) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٦٨ ٠

(٧٢) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٨٤ ٠

(٧٣) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٤٣ ، ٤٥ ـ ٤٦ ، ٥٣ ، ٩٧ ، ١١٧ ـ بدأ اضمحلال سـيراف نحو نهاية القـرن العاشر ، وفي عام ٩٧٧م اصيبت بزلزال دام لمـدة سبعة أيام ، فجلى عنها أهلها ، أنظر :ـ
David Whitehouse, "Excavations at Siraf, Iran" *Journal of Persian Studies*, VI, (1968),

وللمزيد منالتفاصيل عنالصراع بين البحر الاحمر والخليج ، أنظـر :ـ
Bernard Lewis, "The Fatimids and the route to India", *Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université d'Istanbul*, Nos. 1-4 (1949-1950), pp. 50-54.

(٧٤) ابن المجاور ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٨٧ ·
(٧٥) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٢٤ ـ ١٢٥ ·
(٧٦)

S.D. Goitein, "Two eyewitness reports on an expedition of the King of Kish (Qais) against Aden", *BSOAS*. XVI. (1954), pp. 247-257.

(٧٧) ابن المجاور : ج : ٢ ـ ص : ٢٦ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧١ ·
(٧٨) نفسه : ج : ٢ ـ ص : ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ·
(٧٩) نفسه ـ ج : ٢ ـ ص : ٢٨٧ ـ ٢٩٩ ·
(٨٠) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ٥١ ·
(٨١) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٠٦ ·
(٨٢) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٠٦ ·
(٨٣) نفسه ـ ج : ١ ـ ص : ١٠٧ ·
(٨٤)

W. Fitzgerald, *Africa* (London, 1967), p. 4 ff. For information on the subject, see J.W. Gregory, *The Rift Valleys and Geology of EastAfrica* (London, 1922).

(٨٥) كراتشكوفسكي ـ ج : ١ ـ ص : ٣٣٥ وما بعدها

المؤرخ تقي الدين الفاسي
وكتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام »

عبد الله عقيل عنقاوي

تمهيد :

شع نور الاسلام في مكة المكرمة ، وانطلق الرسول الكريم محمد بن عبد الله يدعو قومه الى توحيد الله، ونبذ عبادة الاوثان ، وبدلا من ان تستجيب قريش لدعوته صلى الله عليه وسلم تضافرت ـ فيما عدا نفر يسير ـ في عدائها للدعوة الجديدة ومحاولة القضاء عليها ، فهاجر الرسول الكريم الى المدينة المنورة ، وفي رحاب المدينة وبين انصاره الجدد من الاوس والخزرج استقر رسول الله (صلعم) وصحابته من المهاجرين • وفي غضون سنوات قليلة ، وبعد ان تم فتح مكة، استجابت كافة انحاء الجزيرة العربية لدعوته صلى الله عليه وسلم فانضوت تحت لواء الاسلام وآمنت برسالة محمدبن عبد الله •

وبعد حياة عامرة بالكفاح ضد الجهالة والوثنية والدعوة لدين التوحيد انتقل الرسول الكريم الى الرفيق الاعلى •

وسارع المهاجرون والانصار الى اختيار خليفة يخلف الرسول (صلعم) في قيادة الجماعة الاسلامية فأختير ابو بكر الصديق ليحتل هذا المركز الجديد •

وهكذا قامت الخلافة الاسلامية • وتبوأت المدينة مكانتها السياسية الى جانت مكانتها الدينية ، فأصبحت عاصمة لخلافة لم تلبث ان اتسعت حدودها حتى شملت اراضي الدولة الساسانية الى جانب مساحات شاسعة من القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية •

على انه على الرغم مما بذله الخلفاء الثلاثة الاولون من جهد مشكور في نشر الدعوة الاسلامية وفي فتح الاراضى الخاضعة لنفوذ الفرس والروم ، فلم تلبث الدولة الاسلامية ان تعرضت لهزة عنيفة ادت الى تطورات خطيرة في اوضاعها السياسية •

فعندما اندلعت الفتنة في الامصار على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه واتجه المتمردون الى المدينة المنورة لمجابهة الخليفة وانتزاعه من منصبه ، كانت تلك الحركة هي بداية النهاية للمركز السياسى للمدينة بصفة خاصة والجزيرة العربية بصفة عامة • فقد نتج عن مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه وما تلا ذلك من تطورات اثر اعتلاء علي كرم الله وجهه كرسي الخلافة ، انتقال مركز الخلافة من المدينة المنورة الى الكوفة ثم الى دمشق • وهكذا فقدت الجزيرة العربية مركزها السياسى وانتقلت من قاعدة للخلافة الى ولايات متفرقة تابعة للخلافة في دمشق على عهد الامويين ثم في بغداد في العهد العباسى •

على ان هذه التطورات وان تركت آثارها على مركز الجزيرة العربية السياسى والاقتصادي ايضا ، فلم تكن لتؤثر على مركز كل من مكة والمدينة الديني فقد ظلت مكة تضم الكعبة المشرفة قبلة المسلمين ، كما تضم داخل حدودها وفي اطرافها مشاعر الحج وهو الركن الخامس من اركان الاسلام • كما ظلت المدينة تضم المسجد الثاني الذي تشد اليه الرحال كما تضم مثوى الرسول الكريم محمد بن عبد الله •

هذه التطورات في الاوضاع الدينية والسياسية في الجزيرة العربية وما تمخض عنها من نتائج ، تفسر لنا في واقع الامر طبيعة العلاقات التي قامت بين الجزيرة العربية من جهة ، والخلافة الاموية ثم العباسية من جهة اخرى كما تقودنا الى بعض الحقائق التي تتعلق بمصادر تاريخ الجزيرة العربية في صدر الاسلام والعصر الاسلامي الوسيط •

المؤرخ تقي الدين الفاسي

ففي الوقت الذي حرص فيه الامويون ثم العباسيون ثم سلاطين المماليك على بسط سيادتهم على مكة والمدينة ، اتسمت علاقاتهم ببقية انحاء الجزيرة العربية بالفتور ، ولم تكن سيادتهم على تلك الاقاليم في معظم الاحيان الا اسميه . كذلك فأنه في الوقت الذي حرصت فيه جميع مصادر التاريخ الاسلامي تقريبا على الاسهاب في تاريخ الجزيرة العربية في عهد الرسول (صلعم) وعصر خلفائه الراشدين ، نجد هذا الاهتمام يتضاءل بصورة بارزة في كتاباتهم عن الجزيرة العربية في العصر الاسلامي الوسيط . وحيث لم تتأثر مكانة مكة والمدينة الدينية بالتطورات السياسية التي مرت بها الجزيرة العربية فقد حظيت كل منهما بالحظ الاوفر في النزر اليسير الذي اوردته مصادر التاريخ العام عن الجزيرة العربية في العصر الاسلامي الوسيط ، في حين انزوت مناطق اخرى من الجزيرة في غياهب النسيان وشملها غموض تام .

فاذا ما نظرنا الى مكة المكرمة ـ بصفة خاصة ـ وهي موضوع كتاب مؤرخنا الفاسى ـ نجد انه الى جانب المادة التاريخية المتناثرة في مصادر التاريخ الاسلامي والتي يمكن ان تمدنا بمعلومات عن احوال مكة في العصر الاسلامي الوسيط فقد حظيت هذه المدينة المقدسة ببعض ابنائها ممن تصدوا لكتابة تاريخها . ومن اشهر هؤلاء ، الازرقي والفاكهي ـ وهما من رجال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، ثم الفاسى « الذي كتابه موضوع بحثنا » ... فمن هو الفاسى ؟

الفاسى : هو محمد بن احمد بن على وينتهي نسبه ـ كما اورده في كتابه العقد الثمين ـ الى ادريس بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب ، ويلقب بتقي الدين الحسني الفاسي، المكي، المالكي. فهو علوي النسب يلتقي مع امراء مكة في عصره في نسبهم الى الحسن بن على بن ابي طالب ـ رضى الله عنه .

وقد ترجم الفاسى لنفسه في كتابه « العقد الثمين » ترجمة مطولة تقع في ثلاثين صفحة . فذكر بأنه ولد سنة ٧٧٥ هـ بمكة المكرمة . وتحدث عن نشأته ودراساته بكل من مكة والمدينة كما تحدث عن رحلاته في طلب العلم التي شملت مصر وبلاد الشام وفلسطين واليمن ، واسهب في ذكر شيوخه الذين تلقى على ايديهم علوم الحديث والفقه واللغة والتاريخ .

وقال ما نصه « وشيوخ صاحب هذه الترجمة كثيرون جدا ، ولعلهم نحو خمسمائة شيخ بالسماع والاجازة » وقد قرظ الفاسى معاصروه ومن بينهم الحافظ ابن حجر العسقلاني الذي يقول عنه « كان لطيف الذات حسن الاخلاق عارفا بالامور الدينية والدنيوية له غور ودهاء ومعرفة وتجربة ، حسن عشرة وحلاوة لسان . ويخلب القلوب بحسن عبارته ولطيف شارته ، ورافقني في السماع كثيرا بمصر والشام واليمن وغيرها وكنت اوده واعظمه واقوم معه في مهماته ، ولقد ساءني موته واسفت على فقد مثله » . ويقول عنه المؤرخ الناقد السخاوي بأنه « اعتنى بأخبار بلده فأحيا معالمها واوضح مجاهلها وجدد مآثرها وترجم اعيانها ، وكان اماما علامة فقيها حافظا للاسماء والكنى ذا معرفة تامة بالشيوخ والبلدان ويد طولى في الحديث والتاريخ والفقه واصوله، مفيد البلاد الحجازية وعالمها ». كما يقول المقريزي بأنه تردد اليه بمكة والقاهرة، « وهو بحر علم وكنز فوائد » .

شغل الفاسى منصب قضاء المالكية في مكة بتعيين من السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق ، كما انيطت به وظيفة التدريس في المدرسة السلطانية الغياثية البنجالية التي اشادها بمكة السلطان منصور غياث الدين ابي المظفر اعظم شاه سلطان البنجال سنة ٨١٣هـ وعين للتدريس فيها فقهاء على المذاهب الاربعة وهم قضاة مكة الاربعة ، كما باشر التدريس والفتوى في المسجد الحرام على ان الفاسى قد عرف لنا من خلال مؤلفاته التي تناولت عدة موضوعات . ومن بين هذه المؤلفات :

١ ـ كتاب يشتمل على اربعين حديثا متباينة الاسناد والمتون ٠

٢ ـ اختصار كتاب « حياة الحيوان » للشيخ كمال الدين الدميري ٠

٣ ـ ارشاد ذوي الافهام الى تكميل كتاب الاعلام للحافظ الذهبي ٠

٤ ـ ثلاث مؤلفات في المناسك على مذهب الشافعي ومالك ٠

٥ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الامين « ٤ مجلدات » ٠

٦ ـ مختصر العقد الثمين المسمى : عجالة القرى للراغب في تاريخ ام القرى ٠

٧ ـ شفاء الغرام باخبار البلد الحرام « جزءان » وهو موضوع بحثنا ٠ وقد اختصر الفاسى كتابه هذا عدة مرات ٠ فأتت المختصرات على النحو التالي :

١ ـ مختصر شفاء الغرام المسمى « تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام » ٠

٢ ـ ثم مختصره : تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام ٠

٣ ـ ثم مختصره : هادي ذوي الافهام الى تاريخ البلد الحرام ٠

٤ ـ ثم مختصره : الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ٠

وسوف نقتصر في بحثنا هذا على كتاب شفاء الغرام ولن نتناول المختصرات حيث لم تتجاوز مواضيعها ما ورد في الاصل ٠

يشير الفاسى في مقدمته لكتاب شفاء الغرام الى الباعث له على تأليف هذا الكتاب ٠ فهو يرغب في تحقيق هدفين :

الاول : ان يتلافى ما لمسه من عدم وجود مصادر تخصصت في تاريخ مكة منذ عهد الازرقي والفاكهي ، وهما من رجال القرن الثالث الهجري ، وحتى ايامه مما أحدث فجوة في المعلومات عن هـذا البلد الكريم ، وعلى الرغم من محاولات الفاسى في سد هذه الفجوة فلا يزال الباحث في وقتنـا الحاضر يواجـه كثيرا مـن الجوانب الغامضة في تاريخ مكة في الفترة ما بين القرن الثالث ، والثامن الهجريين ٠

اما الامر الثاني الذي دفعه الى وضع هذا الكتاب فهو رغبة الفاسى وشوقه الى تتبع اخبار بلـده خلال الفترة التي تلت عهد الازرقي وحتى ايامه هو : يقول الفاسى « واني لاعجب من اهمال فضلاء مكة بعد الازرقي للتأليف على منوال تاريخه ، ومن تركهم تأليفا لتاريخ مكة يحتوي على معرفة اعيانهـا مـن اهلها وغيرهم مـن ولاتها وائمتها وقضاتها وخطبـائها وعلمائها ورواتها ، كما صنع فضلاء غيرها من البلاد لبلادهم كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ومن بعده تاريخ دمشق لابن عساكر : وتاريخ مصر للقطب الحلبي وغير ذلك من تواريـخ البلاد ٠ وقد وفقني الله تعالى لجمع شيء من هذا المعنى حداني الى جمعه أني تشوقت كثيرا لمعرفة ذلك وتتبع ما ألفه الناس من التواريخ والطبقات والمعاجم والمشيخات ٠٠٠ الخ » ٠

كذلك يشير الفاسى في مقدمته لكتابه الى المصادر التي اعتمد عليهـا في جمع مادتـه والى طريقتـه فـي التأليف ، يقول الفاسي بعد تدوينه للمواضيع التي تناولها الكتاب « فعرفت طرفا جيدا من ذلك كله ، بعضه من

كتب التاريخ ، وبعضه من رخام واحجار واخشاب مكتوب فيهـا ذلك ثابتة في الاماكن المشار اليهـا ، وبعضه علمته من اخبار الثقات وبعضه شاهدته وعلق ذلك كله بذهني وقيدته في اوراق مفردة من غير ترتيب خيفـة ذهاب ذلك بالنسيان ٠٠ ثم بدا لي ان اجمع ذلك مرتبا واضم اليهمن تاريخابي الوليد الازرقيما يلائمه من الامور التي اشرنا اليها لما في ذلك من كمال الفائدة ، ففعلت ذلك ٠٠ وقد رأيت ان اذكر اسنادي في تاريخ الازرقي لكثرة المنقول منه في هذا الكتاب ، واذا كان متصلا اليه بالاسناد فهو مما يستجاد » ٠

هذا الاسلوب الذي اعتمده الفاسي في تأليفه لكتاب شفاء الغرام هو نفس الاسلوب الذي يلجأ اليه المؤرخ الباحث في عصرنا الحاضر ٠ فهو يجمع مصادره اولا ، ولا تقتصر هذه المصادر عـادة على الكتـب المدونـة ، بل تتعدى ذلك الى الآثار والنقوش والوثائق التي لها صلة بموضوع البحث ٠ ومن هـذه المصادر يدون الباحـث معلوماته ٠ وهذه الخطوة تمثل مرحلة جمع المادة ٠ ثم تبدأ المرحلة التالية ، وهـي ترتيـب المادة وتصنيفهـا وتحقيقها ونقدها ٠ اما المرحلة الاخيرة ، فهي عرض الموضوع بأسلوب جيد بليغ ٠ ولا ارى الفاسي قد تجاوز هذه المراحل والتي تمثل في نظرنا المنهجية في التأليف ، وننسبها الى العصر الحديث ٠

ولنستكمل الصورة عن منهجية الفاسي نورد مثلا عن اهتمامه بالوثائق ، يقول المؤلف في ص ٣٣٢ مـن كتاب شفاء الغرام عند حديثه عن رباط رامشت « وظفرت بنسخة كتاب وقفه » ويقول في حديثـه عـن رباط بالمروة وقد اوقف عليه حمام باجياد « وقد ظفرت بكتاب وقف الحمام ثم ذهب منـي » امـا لجوء المؤلف الى الاستنتاج للتدليل على رأيه فيتضح من المثال التالي : فعندما اراد ان يترجم لرجال من كنانة في كتابه « العقد الثمين » الذي يعتبر كتاب تراجم لمشاهير وعلماء واعيان مكة فقط أراد ان يثبت أولا انتماء كنانة لمكة والذي يمكن ان يكون موضع شك في نظر البعض فقال : « فمن الاخبار الدالة على اشتراك قريش وكنانـة في النزول ببادية مكة ، قول ابن اسحق في السيرة ٠٠ لما ذكر ولاية غبشان من خزاعة للكعبة دون بني بكر بن عبد مناة ، وقريش اذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنـانـة » ووجه الدلالة من هـذا الكلام : انـه يقتضي ان قريشا كانوا نزولا مع قومهم من كنانة حين انفرد غبشان من خزاعه بولاية الكعبة ، والمنازل التـي كانت تنزل بها كنانة وقريش اذ ذاك خارج الحرم ، وقد استطرد الفاسي في استنتاج الادلة التـي تؤيد مـا ذهب اليه ، ويمكن الرجوع اليها في الصفحة ١٣ وما بعدها من كتاب «العقد الثمين» ٠ كذلك فقد اجتهد الفاسي في مقارنته للروايات التي تناولها كتابه ونقدها خصوصا تلك الروايات التي تتعلق باحداث سابقـة لعهده ٠ والامثلة على ذلـك كثيرة ولا يتسع الوقت لذكرها ، ويمكن الرجوع اليها في كتاب « شفاء الغرام » ٠

استخدم الفاسي ثقافته الواسعة ومصادره التي تفوق حد الحصر في وضع كتاب في تاريخ مكة المكرمة فكانت النتيجة ان اخرج موسوعـة لهذا البلـد الكريم تشتمل على معلومـات عنهـا مـن النواحـي الدينيـة والثقافية والعمرانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية منذ عصر ما قبل الاسلام وحتى اوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ٠ وقد سمى كتابه هذا « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ، ورتب مواضيعه في اربعين بابا ، كل باب منها يشتمل على عدة مواضيع ٠ وسنتناول هنا بالدراسة بعض الابواب التي اشتمل عليها الكتاب ٠

ففي الباب الاول من الكتاب ، تحدث الفاسي عن طبوغرافية مكة المكرمة في عهده ، فأورد وصفا شامـلا لمكة كما تحدث باسهاب عن الاسوار التي كانت تحيط بالمدينة وحالات الاصلاح والدمار التي اصابتها من جراء الصراع الاسري بين امراء مكة من الاشراف ٠ كما اشار الى الامتداد العمراني الذي وقع لمكة منذ عهد الفاكهـي اي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وحتى أيامه ٠ وتتضح لنا معاناة الفاسي في كتابة هذا الباب اذا علمنا انه قام بذرع مكة من حدها الشمالي الى حدها الجنوبي والجنوبي الغربي ٠

وفي الباب الثامن مـن الكتـاب ، وصف الفاسى الكعبة المشرفة وصفا دقيقا ٠ يقول « وفي الكعبـة الان ثلاث دعائم من ساج على ثلاثة كراسى وفوقها ثلاثة كراسى ، وعلى هذه الكراسى ثلاث جوائز مـن ساج ولهـا سقفان بينهما فرجة ، وفي السقف اربعة روازن نافذة من السقـف الاعـلى الى السقف الاسفل للضـوء ، وفي ركنها الشامي درجة من خشب يصعد منها الى سطحها ، وعدد الدرج الذي فيما ثمان وثلاثون مرقاة وسقفها الاعلى مما يلي السماء مرخم برخام ابيض وطلي بنورة في سنة احدى وثمانين وسبعمائة بأمر اميريقال له باشه من امراء مصر ٠٠ ثم كشطت النورة في سنة احدى وثمانمائة بأمر الامير بيسق ، ويطيف بسطحها افريز مبنى بالحجارة على جدرها من جميع جوانبها يأتي تحرير ذرعه فيما بعد ٠٠ ويتصل بهذا الافريز اخشاب فيها حلق من حديد يربط بينها كسوة الكعبة وبابها من ظاهره مصفح بصفائح فضة مموهة بالذهب ، وكذلك فياريز الباب وعتبته العليا مطلية بفضة زنتها على ما بلغني الف درهم وثمانمائة درهم وفيها مكتوب اسم مولانا الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر صاحب الديار المصرية واسم ابيه الملك الظاهر ٠٠٠ »

هذا الوصف الدقيق الممتع للكعبة المشرفة في بداية القرن التاسع الهجري والذي قدمه الفاسى في كتابه تزداد اهميته اذا تذكرنا ان البناء الحالي للكعبة هو من انشاء السلطان العثماني مراد الثاني ، وقد تم انشاؤه في سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م ٠

ولم يكتف الفاسى بالنتائج التي توصل اليها الازرقي وغيره في قياساتهم لمساحة الكعبة المشرفة ، واطوال اضلاعها وارتفاعها بل قام بنفسه بهذا المجهود ليتحرى الدقة في المعلومات التي يقدمها في كتابه ، فذرع الكعبة من داخلها وخارجها وذرع سطحها ٠ ولندلل على مدى الدقة التي تحراهـا الفاسى في عملـه نذكر طرفـا مـن قياساته ، يقول : « وسعة فتحـة باب الدرجـة الذي يصعد منه الى اعلا الكعبة من اسفله ذراع وقيراطان ومن اعلاه ذراع وثمن ، وارتفاع الباب عن الارض ذراعان ونصف ذراع وسدس ذراع وثمن ذراع » ٠

ويستطرد الفاسى في حديثه عن الكعبة فيتحدث عن الهدايا التي كانـت تقدم لهـا مـن قبـل الخلفـاء والسلاطين والاعيان ٠ ومـن امثلـة هـذه الهدايـا : الشمسية التي ارسلها الخليفة جعفر المتـوكل على الله لتعلق في وجه الكعبة في كل موسم ، وكـانت صناعتها من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد مع سلسلة تعلق بهـا ٠

ومن بين الهدايا التي ذكرها الفاسى هدية السلطان ابي سعيد بن خذابندا (خربندا) ملك التتر وهـي حلقتان من ذهب مرصعتان باللؤلؤ والبلخش كل حلقة وزنها الف مثقال وفي كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات وبينها ست قطع بلخش فاخر ، وقد ارسلت من قبل سلطان المغول ، لتعلق على باب الكعبة سنة ٧١٨ هـ فاعترض على تعليقها امير الحاج المصري وأصر على ان يستشار في السماح بتعليقها السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ، وبعد محاولات يائسة من قبل مندوب السلطان ابي سعيد اذن له في تعليقها لفترة من الوقت ثم رفعتا واستولى عليها امير مكة الشريف رميثة ابن ابي نمي ٠

ولم يغفل الفاسى عن تدوين ما هو موجود بداخل الكعبة في ايامه يقول « والـذي في الكعبـة الان مـن المعاليق ستة عشر قنديلا منها ثلاثة فضة وواحد ذهب وواحد بلور واثنان نحاس والباقي زجاج حلبي وهو تسعة ، وليس في الكعبة الان شيء من حلقة الذهب والفضة التي كانت في اساطينهـا وجدرانها بسبب توالي الايدي عليها من الولاة وغيرهم » ٠

وينتقل الفاسى بعد هذا الى الحديث عن كسوة الكعبة فيسهب في تدوين تاريخها منذ ما قبـل الاسلام وحتى ايامه ، ثم يصف كسوة الكعبة في ايامه وصفا دقيقا ، كما يصف الاحتفال الذي يصاحب نزع الكسوة القديمة ووضع الكسوة الجديدة على الكعبة ٠ الى اخر المواضيع التي يشملها هذا الباب ٠

المؤرخ تقي الدين الفاسي

ويستطيع الباحث من دراسته لهذا الباب الى جانب الباب السابع والثلاثين والثامن والثلاثين (وسنتعرض لهما فيما بعد) ان يكون صورة واضحةعن الصراع الذي كان قائما للسيادة على مكة بين كل من الخلافة العباسية والدولة الفاطمية ، ثم بين كل من سلاطين المماليك بمصر ، والمغول بالعراق ، وآل رسول باليمن ٠

وفي الباب الثالث والعشرين من الكتاب تحدث الفاسى عن المدارس والاربطة والسقايات والبرك والآبار التي بمكة ٠ ومن بين المدارس التي تحدث عنها المدرسة السلطانية الغياثية البنجالية ٠ وقد وصفها الفاسى منذ ابتدىء في تأسيسها سنة ٨١٣ وحتى بدأ الدراسة فيها اول عام ٨١٤ هـ ٠

ولم يقتصر على وصف بناء المدرسة بل اشار الى ثمن الارض التي اقيمت عليها والاوقاف التي رصدت من اجلها ، ومقدار مرتبات اساتذتها والمناهج التي درست فيها والاساليب التي اتبعت في التدريس ٠ ومجمل القول فان هذا الباب يحتوي على معلومات قيمة عن النواحي الثقافية والاجتماعية والعمرانية لمكة في عصر المماليك ٠

اما التاريخ السياسى والاقتصادي لمكة المكرمة ـ وخصوصا في عصر المماليك فيمكن مطالعته في الابواب السابع والثلاثين والثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين ٠

ففي الباب السابع والثلاثين يتحدث الفاسى عن ولاة مكة منذ عهد الرسول (صلعم) وحتى ايامه ٠ وفي الباب الذي يليه يسرد حوادث متفرقة تتعلق بمواسم الحج ٠ وبدراسة هذين البابين يمكننا ان نخرج بصورة واضحة عن أوضاع مكة السياسية وعلاقاتها الخارجية، خاصة في عهد المماليك ٠ الى جانب التعرف على دور امراء الحاج في تنفيذ سياسة الخلفاء والملوك في الحرمين الشريفين أي في مكة والمدينة ٠ ولتوضيح هذا الدور نذكر طرفا مما ذكره الفاسى في حديثه عن سنة ٨١٢ يقول « في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة كان بين بني حسن من اهل مكة وبين امير الحاج المصري مشاجرة عظيمة افضت الى قتل بعض الحجاج ونهبهم غير مرة ٠ ولم يحج بسبب ذلك من اهل مكة الا اليسير ، وسبب هذه الفتنة ان صاحب مصر الملك الناصر فرج انحرف على الشريف حسن بن عجلان نائب السلطنة ببلاد الحجاز فعزله عن ذلك وعزل ابنيه عن امرة مكة واسر ذلك الى امير الحج المصري بيسق فاستعد للحرب واستصحب معه انواعا من السلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك ، وورى بأن قصده بذلك الدخول الى اليمن ، وبلغ الشريف حسن ذلك في عاشر ذي القعدة من السنة المذكورة فجمع اعراب مكة واهل الطائف وغيرهم من عرب الشرق على ما كان معه من بني حسن من الاشراف والقواد وعبيد اخيه احمد بن عجلان واولادهم وعوام مكة ٠ وكان من معه على ما بلغني ستة الاف نفر ٠٠ وكان يكره القتال مخافة ان يصيب الحجاج سوء من معرة الجيش ٠ واشار بعضجماعته بان يرسل الى امير الحاج من يعظم عليه امر الحرم واهله ٠ وانه اذا كان قصده القتال فليتقدم الحجيج قبله بيوم او يتقدم هو قبلهم بيوم فيقع اللقاء ، وبينما هم في الفكرة فيمن يؤدي هذه الرسالة الى امير الحاج اذ جاء الله بالفرج وازال عن الناس ما كان عندهم من الضيق والحرج . وذلك ان الملك الناصر بعث خادمه الخاص بخدمته فيروز الساقي الى مكة بخلع وتقاليد للسيد حسن المذكور وولديه بعودهم الى ولايتهم ومنع امير الحاج من التعرض لقتالهم ٠٠ الخ » ٠

أما في الباب التاسع والثلاثين فيسجل الفاسي حوادث تتعلق بامطار مكة وسيولها وأخبار الغلاء والرخص والاوبئة بها ٠ وبدراسة هذا الباب يمكن أن نتعرف على أنواع العملة التي كانت متداولة بمكة في العصر الاسلاميالوسيط وأنواع الموازينوالمكاييل وأسعار المواد الغذائية ، والاسباب التي كانت تؤدي الى ارتفاع الاسعار وانخفاضها ٠

ومن أمثلة ما ذكره الفاسي في هذا الباب ما اورده عن أسعار المواد الغذائية في سنة ٨١٩هـ يقول في حديثه عن هذه السنة « كانت الغرارة الحنطة اللقيمية المليحة بخمسة افرينتيه والغرارة المابيه وهي نوع دنيء من الحنطة بأربعة افرينتية ، وربع الغرارة الذرة بثلاثة افرينتيه ، وبيعت في وادي مر بافرينتيين وستة دنـانير مسعودية · وصرف الافرينتي خمسة عشر دينارا مسعوديـة بالوادي ، والسمن كل وقيـة بسبعة مسعوديـة ويستقيم المن بافرينتي وثلث ونحو ذلك ، واللحم كل من ستة مسعودية والتمر كل من بدرهمين مسعوديتين · وكان صرف الافرينتي بمكة باربعة وخمسين مسعوديا وربمـا زاد قليلا » ويقول في مكان آخر بعد أن اورد قائمة

[illegible]

والآن وبعد أن قدمنا نماذج من المواضيع التي تناولها الفاسي فيكتابه «شفاء الغرام» يجدر بنا أننتسائل: ما مدى أهمية هذا الكتاب كمصدر من مصادر تاريخ الجزيرة العربية ؟ وما هي مكانة الفـاسي بين مؤرخي الجزيرة؟ ولنجيب علىالسؤال الاول نعود فنؤكد بأن كتاب « شفاء الغرام » لا يعد مصدر التاريخ السياسي لمكة فحسب ، كما هي الحـال مع معظم مصادر التاريخ الاسلامي التي تقتصر عادة على تناول الاحداث السياسية ، بل ان الكتاب بابوابه الاربعين يعتبر موسوعة تشمل على التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني لمكة المكرمة خلال فترة هامـة من تاريخهـا وهي الفترة التي خضعت فيها الحجاز خضوعا مباشرا لنفوذ سلاطين المماليك في مصر · ولقد تأكدت في عهد الفاسي أهمية السيطرة على الحجاز بظهور العامل الاقتصادي الى جانب الدافع الديني الذي ما زال حتى ذلك الوقت يشكل الدافع الوحيد للسيطرة على الحرمين · ويرجع السبب فى ذلك الى ما حدث خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عندما احتل ميناء جدة مكانة ميناء عدن فأصبح الميناء الرئيسي الذي يستقبل كل عام السفن المحملة ببضائع الهند ومن أهمها التوابل

بنوفهد : مؤرخو مكة المكرمة والتعريف بمخطوط النجم بن فهد « أتحاف الورى بأخبار أم القرى »

ناصر بن سعد الرشيد

توطئــة :

ان من بحث في كتب الطبقات التي ترجمت للمكيين على وجه الخصوص فسيجد أن هناك أكثر من أربعـة علماء يعرفون بابن فهد ، جميعهم ينتسب الي عالـم واحد هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن فهـد الاصفوني الهاشمي ، بيد أني أراني ملزما بأن اترجم لمن له دور نابه في كتابة تاريخ مكة المكـرمة نفسها أو تاريخ رجالها فوجدتهم أربعة هم التقي ابن فهد وولـده النجم عمر بن فهد وولده العـز عبد العزيز بن عمر بن فهـد وولده جار الله محمد بن عبد العزيز بن فهد ثم اني تجاوزت عن أولهم محمد بن محمد بن عبد الله وعن عمر بن عبد العزيز بن النجم وعن عبد الرحمن بن ابي بكر أحمد بن محمد بن فهد ، وهؤلاء الثلاثة ترجم لهم السخاوي (١) ولم يؤثر عنهم أنهم كتبوا تاريخا في مكة نفسها او في رجالها ٠

ومع أن آل فهد عرفوا بالمكيين فان قصة مكيتهم بدأت حينما جاور جدهم محمد بن محمد بن عبد الله والد التقي ابن فهد في مكة المكرمة ، وذلك أن والد التقي كـان يقطن بأصفون الجبلين من صعيد مصـر بالقـرب من أسنا « وقفا لمآثر آل استحقاقها اليه وكان يتردد منها في بعض المواسم صحبة الحاج لمكة بحيث كان مولد ابنه التقي فيهـا الى أن تحـول منها في سنة خمس وتسعين(وسبعمائة) بمكة فدام فيها حتى مات » (٢) ٠

التقي ابن فهـد

ترجمتــه :

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن فهد التقي أبو الفضل بن النجم أبي النصر بن الجمال أبي الخير ابن العلامة أقضى القضاة الجمال أبي عبد الله الهاشمي العلوي الاصفـوني ثم المكي الشافعي ويعرف بابن فهد ، ولد سنة سبع وثمانين وسبعمائــة (٣) ومن تسميته بالمكى قـد يتبادر الى الذهن انه ولد بمكة والحقيقة انه لم يولد بها وانما انتقل به أبوه من أصفون الجبلين من صعيد مصر الأعلى ٠٠ حيث كانت ولادته ، الى مكة المكرمة عن طريق القصير ، وهو في الثامنة من عمره ، وبدأ حياته العلمية بها فحفظ القرآن والعمدة والتنبيه وألفية النحو والحديث وبعضالحاوي وعرض على جماعة وسمع الابناسي والجمال بن ظهيرة وحبب اليه هذا الشأن وأول ما طلبه سنة أربع وثمانمائة فسمع الكثير من شيوخ بلده والقادمين اليها وكتب عمن دب ودرج فكان ممن سمع عليه ابن صديق والـزين المراغي وأبـو اليمن الطبري وقريبـه الـزين والشمس العراقي والشريف عبد الرحمن الفاسي وأبو الطيب السمولي والشهاب بن مثبت والجمال عبد الله العرياني وأبـو هريرة بن النقاش (٤) ، وممـا يلفت النظر حقا اهمال السيوطي للتقي فهو لم يترجم له ضمن الحفاظ الذين ترجم لهم في ذيله على طبقات الحفاظ رغم أن التقي كان أحد شيوخه اما مشافهة واما بالقراءة عنه ، وقد أثار هذا الاهمال تساؤل حفيده جار الله بن فهد فقال في آخر كتاب السيوطي الذي كتبـه (٥) : « وقد اقتصر شيخنا في تراجم أهلها وترك جماعة ممن انتظم فيها وبين ذلك شيخه جد والدي الحافظ الرحلة تقي الدين محمد بـن فهد الهاشمي المكي في ذيله على طبقـات السيد شمس الـدين محمد بن علي الحسيني المسماة (لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ) وقـد ذيلت عليه بحمد الله تعالى بمـؤلف سميته (تحفـة الايقاظ بتتمة ذيل طبقات الحفاظ) » وترجم فيه لجده ـ دون شك ـ ، وعدم حصولي على هذه المخطوطة أفقدني جزء نافعا من ترجمة التقي ٠

شيوخه ورحلاته العلمية :

بعد ما استوفى التقي ما عند علماء مكة المكرمة والقادمين اليها أزمـع الرحلة للبلدان المجاورة كالمدينـة

واليمن فسمع بالمدينـة من المـراغي ورقية بنت مـزروع وعبد الرحمن بن علي الزرندي . ولقى باليمن الفيروز أبادي اللغوي والموفق علي بن أبي بكر الازرق وآخرينفسمع منهم وكان دخوله لها مرتين ، وأكثر من الاستفادة من الشيوخ أهل مكة والقادمين اليها فلقى شيخ الاسلام ابن حجر يوم أن كان في مكة فأخذ عنـه وانتفع بـه واشتغل في الفقه علي ابن ظهيرة والشمس العراقي وابن سلامة والصلاح الاقفهسي فلما وصل الى مرحلة الاجازة أجاز له خلق كثير منهم العراقي والهيثمي وعائشة بنت ابن عبد الهادي وأذن له الشمس العراقي وابن سلامة وابن الجزري في التدريس والافتاء (٦) ، وتميز في هذا مما جعل طلاب‌العلم يفدون اليه في مكة ، ويكفي أن يكون من بين تلامذته ثلاثة علماء اشتهروا في عصرهم شهـرة لـم يشاركهم فيهـا أحد ، وهم شيخ الاسلام زكـريا الانصاري أخذ عنه حين حج سنة خمسين وثمانمائة (٧) والعالم المؤرخ شمس الدين السخـاوي (٨) والشمس محمد بن طولون مؤرخ الشام الذي ترجم له ضمن مشائخه الأربعين في كتابه (أربعين الاربعين) (٩) ، ويبدو أن بين ابن حجر والتقى مراسلات وأخبار ، وكان ابن حجر يعتمد عليه في كثير من وفيات المكيين واليمنيين ، أشار ا لىذلك ابن حجر في رسالته لابن التقي النجم عمر بن فهد التي قال فيها : « ويعرفني الولد بأحوال اليمن ومكة ووفيات من انتقل بالوفاة من نبهاء البلدين وتقييد ذلك حسب الطاقة ولا سيما منذ قطع الحافظ تقي الدين تقييداته » (١٠) ٠

مؤلفـاتـه :

ترك التقي وراءه مؤلفات عديدة اتسمت بسمتين شأن أغلب مؤلفات آل فهد من أولاده وأحفـاده : سمة الحديث وسمة التاريخ ، واليك مؤلفاته فيما يأتي :

١ ـ لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ : وهو مطبوع مع كتاب «ذيل تذكرة الحفاظ» لشمس الدين الحسيني وذيل السيوطي ، ولعله الكتاب الوحيد الذي طبع حتى كتابة هذه الترجمة لآل فهـد الأربعة وهـو بخط حفيده جار الله الذي ذكر أنه كتبه في مجالس عديدة « بدىء بهـا بالمسجد الحـرام وختمت تجـاه بيت الملك العلام » (١١) ٠

٢ ـ تأميل نهـاية التقريب وتكميل التهـذيب بالتـذهيب : وقد جمع فيه بين تهـذيب الكمـال ومختصريـه للذهبي وابن حجر وغـيرها وهو حسب وصف السخاوي « كتاب حافل لو ضم اليه ما عند مغلطاي من الزوائد في مشايخ الراوي والآخذين عنه لكنه لم يصل الى مكة » ٠

٣ ـ نخبة العلماء الأتقيـاء بما جاء في قصص الانبيـاء ٠

٤ ـ الجنة بأذكار الكتـاب والسنة ٠

٥ ـ بهجة الدمائة بما ورد في فضل المساجد الثلاثة ٠

٦ ـ طرق الاصابة بما جاء في الصحابة ٠

٧ ـ عمدة المنتحل وبلغة المرتحل : وهو عبارة عن زوائد الكمال الدميري في النسخة الأخيرة بحياة الحيـوان على النسخة الأولى حسب وصف السخاوي له ٠

٨ ـ الابانة بما ورد في الجعرانة ٠

٩ ـ اقتطاف النور بما ورد في جبل نـور ٠

١٠ ـ المطالب السنية ٠

١١ ـ النور الباهر الساطع من سيرة ذي البرهان القاطع ، وقد ذكر السخـاوي أن هذا الكتـاب أحد عـدة تصانيف في السيرة النبوية ٠

١٢ ـ العوالي بما لقريش من المفاخر والمعالي ٠

١٣ ـ بشرى الورى مما ورد في حرا : انفرد بذكره السخاوي ٠ (١٢)

وما أظن الا أن القارى سيلحظ تداخل الحديث والتاريخ في مؤلفات التقي فمعظمها يشتمل على هـذين الفنين ٠

ثنـاء العلماء عليـه :

أثنى عليه علمـاء العصر ثنـاء يليق به بيـد أن السخاوي لفرط حبه له واعجابه به وببيت آل فهد أكثر من اطرائه وبالغ في مدحه فقال : (١٣) « وعرف العالي والنازل وشارك في فنون الأثر وكتب بخطه الكثير وجمع المجاميع واختصر وانتقى وخـرج لنفسه ولشيوخه فمن بعدهم وصار المعول في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة عليه وعلى والده بلا منازع واجتمع له من الكتب ما لم يكن في وقته عند غيره مـن اهل بلـده وكثر انتفـاع المقيمين والغرباء بها فكانت اعظم قربة خصوصا وقـد حبسها بعد موته » ، ووصفه الحافظ ابن ناصر الدين بالشيخ العلامة الحافظ تقي الدين مفيد المحدثين (١٤) ، وممن اثنى عليه حفيده جار الله الذي ذيل كتاب جده في ذيل طبقات الحفاظ بهذه النعوت (١٥) : « تأليف الامـام الحافظ الرحلـة شيخ السنة ببلد الله الامين أبي الفضل محمد تقي الدين ٠٠٠ » هذا ثناء بعض العلماء على علمه ، اما ثناؤهم على نهج حياته وسيرته فقد ذكر السخاوي طرفا من ذلك فقال (١٦) : « ولم ينفك عن المطالعة والكتابة والقيام بما يهمه من امر عياله واهتمامه بكثرة الطواف والصوم وحرصه على الاستمرار على الشرب من ماء زمزم بحيث يحمله معه اذا خرج من مكة غالبا وبره بأولاده واقاربه وذوي رحمة مع سلامة صدره وسرعة بادرته ورجوعه وكثرة تواضعه وبذل همته مع مـن يقصده وامتهانه لنفسه وغير ذلك » ٠

النجم عمر بن فهـد

ترجمته :

هو عمر بن محمد بن محمد بن ابي الخير محمد بن محمد بن عبدالله ابن فهـد القرشى الهاشمي المكـي الشافعي المعروف كسلفه بابن فهد ولد ليلة الجمعـة سلخ جمـادي الاخرة سنـة اثنتـي عشرة وثمانمائـة بمكة (١٧) ونشأ بها فحفظ القرآن وكتابا في الحديث ألفه له والده وشرع في قراءة فقه الامام احمد فحوله ابوه شافعيا وحفظ النصف الاول من المنهاج وبعض الالفية لابن مالك وبعض ألفية العراقي وسمع في صغره بمكة على مشائخها والقادمين اليها كالمراغي والجمال بن ظهيرة والولي العراقي وابـن الجزري والنجـم بـن حجـي والكازروني واجاز له جماعة من جهات شتى واقبل على الطلب بنفسه وتخرج بوالده (١٨) ، وكان النجم غير قنوع بما اخذه في مكة على مشائخها والقادمين اليها شأنه في ذلـك شأن آل فهـد كمـا سترى فعزم ان يضرب آباط الابل لمشائخ عصره في الشام وفي مصر مركزي العلمآنذاك فبدأ برحلتهالى القاهرة قاصدا شيخعصرهابن حجر العسقلاني فلازمه مدة اخذ منه ما شاء له الاخذ ثم واصل الرحلة شرقا صوب الشام وهنـاك سمـع على علمائها ولازم الحافظ ابن ناصر ثم سافر الى القدس والخليل وسمع من هناك « وطاف البلدان وطول الرحلة وتردد في جميع مدائن مصر والشام وغيرهما وكتب الكثير بخطه وسمع العالي والنازل ومهر في الحديث » (١٩)٠

وبعد هذا الطلب الجاد والرحلات المتتابعة طارت شهرة النجم في الآفاق وضربت اليه آباط الابل وطلب منه العلماء تخريج مشيخات لهم فهذا مثلا احمد بن عبدالله بن احمـد السمهودي يلتمس مـن النجم تخريـج مشيخة له ففعلها وعظمها في خطبتها ومات قبل اكمالها فتممها ولده العز عبد العزيز وبيضها له وحدث بمـا فيها (٢٠) ، وخرج أيضا مشيخة لعبد القادر بن الشهاب الانصاري (٢١) ٠

مؤلفاته :

صنف النجم في الحديث مصنفات وخرج لنفسه معجما وعمل مسلسلا وذيلا على تاريخ مكة للتقي الفاسي وله كتاب المدلسين ثم المخضرمين ، ثم

تعالى » وما احسن ما وصفه به ابن العماد حينما ترجم لابنه العز (٣٩) وتبعه الغزى (٤٠) فقالا : « الحافظ عز الدين ابو الخير وابو فارس عبد العزيز بن العمدة المؤرخ الرحال نجم الدين » ، وقال عنه ابنه العز بعد وفاته (٤١) : « وأسف الناس واهل البلد والغرباء على فقده واثنوا عليه خيرا » ٠

هذا وما اثنى عليه احد مثلما اثنى عليه السخاوي الذي قال في ترجمته (٤٢) : « عمر بـن محمـد بن محمد بن ابي الخير محمد بن محمد بن عبدالله بن فهد صاحبنا بل مفيدنا شيخ الجمـاعة النجم والسراج أبو القسم ٠٠٠ » وقال عنه ايضا (٤٣) : « واستمد الجماعة قديما وحديثا من فوائده وعولوا على اعتماده » وبعد ان عدد السخاوي مؤلفات النجم قال عنها وعنه (٤٤) : « كل ذلك مع صدق اللهجة ومزيد النصح وعظيم المروءة وعلو الهمة وطرح التكلف والعفة والشهامة والاعراض عن بني الدنيا وعدم مزاحمة الرؤساء ونحوهم وكونه في التواضع والفتوة وبذل نفسه وفوائده وكتبه واكرامه للغرباء والوافدين بالمحل الاعلى ومحاسنه جمة » ، واثنى عليه شيخه الحافظ ابن ناصر الدين الذي سافر معه من بلده الى حلب وكان من جملة مـا وصفه بـه (٤٥) : « السيد الشريف الحسيب النسيب الشيخ العالم الفاضل البارع المحدث المفيد الرحالة سليل العلماء الاماثل فخر الفضلاء الافاضل جمال العترة الهاشمية تاج السلالة العلوية نجم الدين ضياء المحدثين » ٠

وكفى النجم فخرا ومدحة ان يعرض عليه ابن حجر الاقامـة عنـده لـيرشده لبعض التصانيـف قـال السخاوي (٤٦) : « وكان رحمه الله كثير الميل اليه والاقبال عليه واثنى عليه كما نقلته في « الجواهر » وممـا كتبه اليه « وقد كثر شوقنا الى مجالستكم وتشوقنا الى متجدداتكم ويسرنا ما يبلغنا من اقبالكم على هذا الفن الذي باد جماله وحاد عن السنن المعتبر عماله :

وقـــد كنـا نعدهـم قليـــلا   فقد صاروا اقـل مـن القليـل

فله الامر الى ان قال : ويعرفني الولد بأحوال اليمن ومكة ووفيات من انتقل بالوفاة من نبهاء البلدين وتقييد ذلك حسب الطاقة ولا سيما منذ قطع الحافظ تقي الدين تقييداته وان تيسر للولد الحضور في هذه السنة الى القاهرة فليصحب معه جميع ما تجدد له من تخريج او تجميع ليستفاد » انتهى ، ووصفه بقوله مرة : « من اهل البيت النبوي نسبا وعلما وانه جد واجتهد في تحصيل الانواع الحديثية النبوية واخرى بانه محدث كبير شريف من اهل البيت النبوي الى غير ذلك مما بينته في « الجواهر والدر » » ٠

وفاتـه :

اجمع المترجمون للنجم على انه توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة واربى عليهم ابنـه العز في ترجمتـه المقتضبة له في وصف علته التي اودت بحياته فقال (٤٧) : « مات مؤلف الاصل الوالد نجم الدين عمر بن محمد ابن فهد الهاشمي المكي تغمده الله برحمته بعد ان تعلل مدة بالبطن والاسهال ثـم عرض لـه ثقـل وانقطع عن البروز نحو عشرين يوما ، كان حاضر الذهن ويكثر من الشهادة حتى كان اخر كلامه عند خروج روحه فجهز في يومه وصلى عليه صديقه قاضي القضاة الشافعي برهان الدين بن ظهيرة القرشى عند باب الكعبة بعد صلاة عصر يومه وحضر خلق كثير ودفن بالمعلاة على والده بجانب مصلب عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما » ٠

أثره فيمن أتى بعده من المؤرخين :

أكثر المؤرخون من النقل من النجم بن فهد كثرة يلاحظها المتتبع لكتبهم ، فمن بين من نقل عنه السخاوي في كتابه « الضوء اللامع » واكثر النقل ، ومن امعن النظر في هذا الكتاب وجد ان مصنفه السخاوي يستند كثيرا الى اربعة مؤرخين شيخه ابن حجر في كتابه « انباء الغمر » والمقريزي في « عقوده» وابن فهد والفاسى ، ويرجـع

الى الاخيرين في تراجمه للمكيين خاصة ، واستناده الى ابن فهد اكثر من استناده الى الفاسى (٤٨) ، وممن نقل عنه شيخ الاسلام ابن حجر فان النجم لما قدم القاهرة صحب معه بعض تقييداته ووفيات المكيين وهي الجزء الاخير من كتابه « اتحاف الوري باخبار ام القرى » وعرضها على ابن حجر فانتقى منها ونقل عنها (٤٩) كما روى عنه التقى المقريزي في كراسة له في فضل البيت (٥٠) .

ونقل عنه ايضا قطب الدين الحنفي وابن ظهيرة القرشى وغيرهما ، نقل ابن ظهيرة عنه نصا طريفا في مسجد بسوق الليل ، يقول (٥١) : « ونقل الشيخ العلامة سراج الدين عمر بن فهد رحمه الله ان هذا المحل (مسجد بسوق الليل بقرب مولد النبي صلى الله عليه وسلم يقال له المختبأ يزوره الناس كثيرا في شهر ربيع الاول) معبد عثمان بن عفان وان النبي صلى الله عليه وسلم كان يختبىء فيه من الكفار » ، اما القطب فقد اكثر من النقل عنه ، واليك بعض هذه النقول : « قال شيخ شيوخنا حافظ عصره الشيخ عمر بن الحافظ التقي محمد بن فهد الهاشمي العلوي رحمهم الله تعالى في كتاب « اتحاف الورى باخبار ام القرى » في حوادث سنة سبع عشرة فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل ام نهشل من اعلى مكة من طريق الردم فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم من موضعه وذهب به حتى وجدبأسفل مكة واعيد مكانه الذي كان فيه لما عفاه السيل فأتى به وربط بلصق في الكعبة في وجهها » (٥٢) ، وتكاد تكون بقية نقول القطب عن النجم فيما يخص عمارة المسجد الحرام وتجديداته فيمراحل مختلفة، فنقل عنهان امير المؤمنين عثمان رضى الله عنه اعتمر من المدينة سنة ست وعشرين فأتى مكة ليلا فطاف وسعى وامر بتوسيع المسجد الحرام (٥٣) واستشهد بكلام النجم مرتين في حج المنصور الخليفة العباسى (٥٤) كما نقل عنه خبر حج المهدي وقصة زيادته للمسجد الحرام وهي الزيادة الثانية (٥٥) ، ونقل كذلك اخبار زيادة المهدي الثانية للمسجد الحرام (٥٦) وزيادة قاضى مكة محمد بن موسى في الجانب الغربي قطعة عند باب الخياطين وباب جمح وهي السوح الذي كان بين داري زبيدة (٥٧) ، ومن اهم ما نقل القطب عن النجم بن فهد هذا النص الذي دارت احداثه في سنة ست وعشرين وثمانمائة (٥٨) ، « قال النجم عمر بن فهد رحمه الله وفيها عمّر الامير مقبل المذكور عدة عقود بالمسجد الحرام في الجانب الشامي من الدكة المنسوبة الى القاضى ابي السعود بن ظهيرة الى باب العجلة خلف مقام الجنفية وزاد في عرض العقود التي تلى الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود في الصف الثالث واحكم الاساطين التي عليها هذه العقود وهي سبعة اساطين في الرواق الاول وثمانية في الذي يليه وثلاثة في الذي يليه وسبعة متصلة بجوار المسجد وجدد من ابواب المسجد الحرام باب العباس وهو ثلاثة ابواب وباب على وهو ثلاثة ابواب ايضا والباب الاوسط من ابواب الصفا وهي خمسة وباب العجلة وهو باب واحد وأحد بابي الزيادة وهو الواقع في الركن الغربي من الزيادة ورمم باقي ابواب المسجد وبيض غالبه واصلح سقفه وكل ذلك على يد الامير مقبل المذكور ومعماره المعلم جمال الدين يوسف المهندس رحمهم الله تعالى » .

العز بن فهد

ترجمته :

هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير العز ابو الفارس وابو الخير بن النجم ابي القاسم الهاشمي المكي الشافعي ويعرف كسلفه بابن فهد وامه عائشة بنت العفيف عبدالله بن محمد بن على العجمي الاصل ولد في الثلث الاخير من ليلة السبت سادس عشر شوال سنة خمسين وثمانمائة بمكة المشرفة في غيبة والده بالقاهرة وتوفي سنة ٩٢١ هـ (٥٩) وقد يلحظ القارىء اطلاق هاتين الكنيتين عليه (ابو الخير وابو فارس) ويخيل اليه انها قد جرت على غير عادة المألوف فانهم يكنون بواحدة ، ولتلك قصة طريفة اوردها السخاوي وهي ان والد العز كناه ابا الخير ولكنه رأى في منامه قائلا يقول له جاءك ذكر فسمه عبد العزيز أبا فارس فغير كنيته الاولى وابقى الثانية (٦٠) ، ولكن المؤرخين لحياته اثبتوا له كلتيهما . نشأ بمكة المكرمة فحفظ القرآن العظيم والاربعين النووية والارشاد لابن المقرىء وألفية ابن مالك والنخبة لابن حجر والتحفة

الوردية والجرومية وعرضها جميعها على والده النجم وجده التقي والثلاثة الاولى على جماعة غيرهما (٦١) وكذا عـــرض جميع هذه الكتب مــا عدا الوردية والجــرومية على جماعة من اهل بلده ومن القادمين اليها كالبامى وابن القصبى المالكى وكتب اجازته نظما ثم حفظ ايضا غالب الفية الحديث وجانبا من المنهاج الاصلى (٦٢) ٠

شيوخه ورحلاته العلمية :

بعد ان حصل مبادىء علوم عصره على والده وجده رأى والده ان ابنه بدأ في مرحلة من التعليـم جديـدة يحتاج فيها الى عقول اخرى تلاقح عقله وتفيده فاعتنى به واستجاز به خلقا كثيرا منهم ابـن حجر العسقلانـي واحضره واسمعه على كثير من المكيين كأبي الفتح المراغي والزين الاسيوطي والبرهان الزمزي وغيرهم (٦٣) بها وبأماكن منها كمنى (٦٤) ولما ترعرع قرأ بنفسه ثم رحل الى المدينـة المنـورة وسمع فيهـا من جماعة (٦٥) وارتحل عن طريق البحر الى الديار المصرية فاكثر بها من القراءة والسماع ومما أخذه عن الشمني في البحث بعض شرحه لنظم ابيه للنخبة وعن البقاعي في متنها مع شيء حاذى به من ايساغوجي ، وسمع بمصر والجيزة وعلو الاهرام وغيرها من اماكنها وكذا بجدة في مجيئه ولما انتهى ادبه سافر الى البلاد الشامية فسمع في توجهه بالخانقاه الرياقوسية (٦٦) ثم يمم صوب القدس وغزة ونابلس ودمشق وصالحيتها وبعلبك وحمـاة وحلـب وغيرها وسمع بهن جميعا ممن لا يحصى وجد واجتهد وتميز في الطلب ثم رجع الـى بلـده (٦٧) وبعـد اربع سنوات دعاه شوق السفر فلباه وكانت وجهته هذه المرة هي مصر فقرأ على السخاوي في بحث ألفية الحديث مع غيرها من مؤلفاته وحضر عنده في الاملاء وغيره (٦٨) وقرأ عـلى شيـخ الاسلام زكريـا والشرف عبـد الحـق السنباطى في الارشاد (٦٩) وكان احد القراء في تقسيم المنهاج على السراج العبادي ولكن لم يتهيأ اكماله وقرأ على الشمس الجوجري قطعة من اول شرحه على الارشاد وكتبه بخطه وعلى الزيني زكريا في المتن وكان جلقصده من هذه القدمة الدراية ورجع الى بلده (٧٠) ثم سافر في موسم السنة التي تليها الى دمشق وقرأ بهـا على الزين خطاب والمحب البصروي وكان قد اخذ عنه بمكة أيضا وحضر دروس التقي بن قاضي عجلون وسافر الى القاهرة ثم عاد الى بلده ثم عاد الى القاهرة ولازم السخاوي (٧١) وكان مما قرأ عليه قطعة كبيرة من أول شرحه لألفية الحديث وجميع شرح النخبة وحضر كثـيرا من مجالس املائه بل واستملى بعضها وأكمل الربع الاول من شرح الجوجري للارشاد عليه وحضر عنده تقسيم التنبيه الا يسيرا وتقسيم جميع ألفية ابن مالك سوى مجلسين أو ثلاثة بل هو ممن لازمه حين مجاورته بمكة حتى سمع عليه شرح الشذور له وغالب متن البهجة وكذا لازم امام الكاملية في الفقه وغيره وقرأ عليه غالب الوردية في النحو ومما أخـذه عن العبـادي في القدمـة الرابعة في الروضة أو الخادم ، ورجع مع الحاج الى بلده (٧٢) فأقام بها ملازما للاشتغال والاشغال ولازم فيها عالم الحجاز البرهان بن ظهيرة في الفقه والتفسير وأخاه الفخر والنور الفاكهي في الفقه وأصوله وأخذ النحو عن أبي الوقت المرشدي والسيد السمهودي مؤرخ المدينة والنحو والمنطق عن العلامة يحيى المالكي (٧٣) ولما جاور السخاوي في مكة أكثر من ملازمته بحيث قرأ عليه ما كان في كتب والده من تصانيفه وهـو كثير وأكمل سماع شرحه للألفية (٧٤) ٠

وبعد هذه السنوات من الرحلات المتتابعة والطلب الجاد أدرك رتبة الشيوخ وأذن له بالتدريس وافادة طـلابه وممن اجـاز وأذن لـه السخـاوي في التـدريس والافـادة والتحديـث واذن لـه ايضا الجوجري فـي تـدريس الفقه والنحـو والافـادة وكـذا المحيـوي ضمن جمـاعة في اقـراء الألفيـة (٧٥) ، وأخذ طلاب العلم خاصة الحديث يفدون اليه من كل مكان يطلبون الافادة منه حينا والاجازة منه حينا آخر ، ومن أشهر من أجاز لهم محمد بن طولون مؤرخ الشام في عصره فقد ذكر أنه أجـازه مرارا وسمع منـه الحديث المسلسل بالأولية ثم المسلسل بالمحمدين ثم المسلسل بحرف العين وذلك يوم الاثنين سادس ذي الحجة سنة عشرين وتسعمائة بزيادة دار الندوة (٧٦) ، هذا وقد رأينا آنفـا أن أباه النجم بن فهد كـان قد خرج مشيخة لاحمد بن عبد الله السمهودي فمات النجم قبل أن يتممها فأتمها له العز ابنه وبيضها له وحدث بما فيها (٧٧) ٠

مؤلفاتـه :

ألف العز بن فهد في صنوف من العلم عـديدة وأهمها الحديث والتاريخ ، وأهم هـذه المؤلفات : معجم شيوخه نحـو ألف شيخ وفهرست مروياتـه وجـزء في المسلسل بالأولية وكتاب فيه المسلسلات التي وقعت له ورحلة في مجلد وكتاب الترغيب والاجتهاد في الباعث لذوي الهمم العلية على الجهـاد وترتيب طبقات القـراء للذهبي . وتاريخ على السنين ابتدأ فيه من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة (٧٨) ، ونزهة الابصار لما تألف من الافكار ونزهة ذوي الاحكام باخبـار الخطباء والأئمة وقضاة بلد الله الحـرام في تاريخ مكـة ، وغاية المـرام باختبار سلطنة البلد الحرام . وبلوغ القرى بذيل اتحاف الورى بأخبار أم القـرى والحجة الدامغـة لرجـال الفصوص الزايغة (٧٩) .

ثناء العلمـاء عليه :

أثنى عليه العلماء ثناء عاطرا كما أثنوا على أبيه وعلى جـده من ذي قبـل وعلى رأسهم معـاصره وشيخـه السخاوي الذي أشاد به في موضعين من كتابه « الضوء اللامع » فقد قال (٨٠) : « وبـرع في الحديث طلبـا وضبطا وكتب الطباق بل كتب بخطه جملة من الكتب والاجزاء وتولع بالتخريج والكشف والتاريخ » ثم أردف قائلا : « وليس بعد أبيه ببلاد الحجاز من يدانيه في الحديث مع المشاركة في الفضائل وجودة الخط والفهم وجمال الهيئة وعلو الهمة والحياء والمروءة والتخلق بالأوصاف الجميلة والتقنع باليسير واظهر التجمل وعدم التشكي ، وهو حسنة من حسنات بلده » وذكر قريبا من هذا الثناء كل من ابن العمـاد (٨١) والغزي (٨٢) في وصفهما للعز . وكتب السخاوي في خاتمة كتابه ما نصه (٨٣) : « الحمد لله أنهاه علي قراءة ومقابلة مفيدا مجيدا محررا وللمحاسن مظهرا كاتبه الشيخ الامـام الأوحد الهمام العالم المـرشد والمحـدث المفيد الرحـال المسند الحافظ القدوة عبد العزيز مفيد أهل الحجاز ومسعد القـاطنين فضلا عن الغربـاء بما يسعفهم به بدون المجاز نفع الله به ورفعه في الدارين لأعلى رتبـة » .

جـار الله بـن فهـد

ترجمتـــه :

هو محمد بن عبد العـزيز بن عمـر بن محمد بن فهد الهاشمي ويعرف كسلفه بابن فهد ويسمى المحب أبا الفضل ولكنه بجار الله أشهر . ولد في ليلة السبت لعشرين من شهر رجب سنة احدى وتسعين وثمانمائة بمكة وتوفي سنة أربع وخمسين وتسعمائة بعد أن خلف أولادا كثيرا (٨٤) .

شيوخه ورحلاته العلمية :

نشأ في كنف أبويه بمكة المكرمة فحفظ القرآن الكريم وكتبا كأربعي النـووي ومنهـاجه (٨٥) وحضر على السخاوي وهو في الرابعة من عمره وأحضر من المحب الطبري الامام ختم مسلم وثلاثيات البخاري والربع الاول من تساعيات العز بن جماعة كل ذلك بعد المسلسل (٨٦) ، ولازم والده في القراءة والسماع وأخذ عنه وعن جده الحديث (٨٧) ، وتوجه مع والده للمدينة وجاور بهـا سنة تسع وتسعمائة وسمع بها من لفظ والده تجـاه الحجرة الشريفة الكتب الستة والشفا لعياض وغيره وعلى السيد السمهودي بعضها وتاريخـه الوفا وفتاواه وألبسه خرقة التصوف وقرأ على أبيه فيها العمدة والشمائل وغيرهما ، ولما عاد الى مكة أكثر عليه من قراءة الكتب الكبار والاجزاء الصغار وانتفع بارشاده وخرج الاسانيد والمشيخات لجماعة من مشايخه وغيرهم فلما استوفى ما عند مشايخ بلده أنشأ يفكر في الرحلة طلبا ما عند غيرهم من العلم فيمم شطر مصر ثم رحل الى الشام ودخل حلب حين دخلها السلطان الغوري سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وبيت المقدس واليمن وأخذ بها وفي غيرها من البلدان نحو السبعين على جماعة من المسندين (٨٨) وأجازه خلق كثـير جمعهم في مجمع حـافل كعبـد الغني بن

البساطي وأجــازت له عائشة بنة ابن عبــد الهــادي والشمس محب بن الشهــاب البــوصيري وغــيرهم (٨٩) واشتغل في فنون وأخــذ الفقه والنحــو والاصلين عن الشيخ عبد الله باكثير وقرأ عليه المنهاج للنووي وغالب شرحه للمحلي وألفية ابن مالك وغيرها وبعض شروح الورقات وقسم المنهاج على الشيخ شهاب الدين اليسرى مرتين وعلى الشيخ عبد الحق السنباطي مرة ولازمه في قراءة كتب الحديث وخرج له مشيخة اغتبط بها وكذا الخطيب محب الدين النويري وغيرهما من الأكابر ، وحدث بالحرمين الشريفين وغيرهما (٩٠) .

و مما يلحظ القارىء علاقة جار الله بشخصيتين بارزتين في ذلك العصر هما السخاوي وابن طولون صاحب التآليف الكثيرة عن الشام وتواريخها ، أما صلته بالسخاوي فسنرجؤها ان شاء الله الى مكان لاحق ، وأما صلته بابن طولون فلها نواح ثلاث :

أولاها : أنهما كانا زميلين في الاخذ عن عدة شيوخ ، قال الغزي في ترجمته لجار الله ابن فهد (٩١) : « وقــد كان صاحب الترجمة صاحبا للشيخ شمس الدين بن طولون ورفيقا له في الأخذ عن جماعة من الشيوخ » .
ثانيتها : أن جار الله في وقت من أوقات تحصيله قرأ على ابن طولون وكتب عنه تعليقات وسمع منه ، قــرأ عليه مسند أبي الدرداء المختصر من الانتخاب كما كتب له رسالة أسماها ابن طولون « الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية » ، يقول ابن طولون في مقــدمة هذه الرسالــة (٩٢) :

« الحمد لله الذي أيد عساكر الاسلام وياله من مؤيد وناصر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آلــه وصحبه الطيبين العنــاصر وبعــد فهــذا تعليق سميته (الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية) سألني في تعليقه المحدث المفيد الرحال محب الدين محمد المدعو جار الله بن الحافظ عبد العزيز بن الحافظ سراج الدين محمد المدعو عمر بن الحافظ تقي الدين محمد بن فهد الهاشمي العلوي المكي الشافعي أمتع الله بحياته الأنام وأعاد علينا من بركات أسلافه الكرام لما قرأ عليّ بمقام أبي الدرداء بها مسنده المختصر من الانتخاب من مسنــد أبي الدرداء لأبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن عبيد بن جهينة الشهرزوري الحافظ يوم الاثنين ثامن ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بحضرة بعض الأفاضل المفيدين فأجبتــه الى سؤلــه مستعينــا بالله فانــه نعم المعين .. » .

ثالثتها : أنهما ظلا على صلة ببعضهما البعض بعد أن رجع جار الله الى مكة يكاتب كل واحد منهما الآخر في كل سنة مع الحجاج ويذكر له من يتوفى في كل سنة ، هذا يذكر له من توفى بالشام ونواحيها وهذا يكتب له عمن توفى بمكة والمدينة (٩٣) .

وبعد أن استقر جار الله في مكة بدأت وفود الطلاب تأتيه من كل صوب تسمع منه الحديث وتقــرأ عليه التاريخ وتطلب اجازته ، ومن اشهر من أخذ عنه ونال اجازته ابن الحنبلي الذي ذكر علاقته العلمية بجار الله بقــوله (٩٤) : « سمعت من لفظه بمكة المشرفة سنة ثلاث وخمسين وأجاز (لي) في أن أورده عنه وجميع ما يجوز له وعنه بروايته وأنشدنا لبعض مشايخه :

أكابــرنا شيوخ العلم حــــازوا	علم الدين فاغتنموا وفــــازوا
أجــازوا لي روايــة مــــاروه	فهــا أنــاذا أجـزت كما أجازوا

وناولني نسخة بهذا الكتاب بخطه بمكــة » .

وكما أثنى المؤرخون على والديه فقد أثنى عليه معاصروه ولقد رأيت ما قاله ابن طولون عنه ، أما ما قاله غيره فان « شيخ الاسلام الوالد » لما حج في سنة خمسين وتسعمائة حضر جار الله للسلام عليه فأثنى عليه الوالد كثيرا وترجمه بالامامة والتقدم في علم الحديث (٩٥) .

مؤلفاتـه :

ترك جار الله خلفه مؤلفات عدة نحا بها منحى والديه من قبله في الحديث أو التاريخ تاريخ مكة أو تاريخ شيوخهـا وأمرائها ، واليك هذه المؤلفات :

١ ـ التحفة اللطيفة في بناء المسجد الحرام والكعبـة الشريفة (٩٦) ٠

٢ ـ تحقيق الرجا لعلو المقر بن أجا أشار اليه الغزي (٩٧) وذكره صاحب كشف الظنـون (٩٨) ألفه لمحب الدين محمود بن محمد بن أجا التدمري الحلبي المتوفي سنة ٩٢٥ ٠

٣ ـ تحقيق الصفا في تراجم بني الوفا ٠ جمع فيه الوفائية والشاذلية ورتبهم على الحروف انفرد بذكر هذا الكتاب صاحب كشف الظنون (٩٩) ٠

٤ ـ تحفة اللطائف في فضل الحبر ابن عباس ووج الطائف ، ذكر صاحب الاعلام أن هذا المصنف يقع في مائة صفحة وكان بالمكتبة الماجدية بمكة وأنه رأى في حاشيته عليه : هذا التاريخ غير المذكور في الكشف أي كشف الظنون (١٠٠) ٠

٥ ـ تحفة الأيقاظ بتتمة ذيل طبقات الحفاظ ، ذيل بهعلى ذيل جده (١٠١) ٠

٦ ـ معجم شيوخه ، ذكر فيه أسماء شيوخه والشعراء الذين سمع منهم الشعر (١٠٢) ٠

٧ ـ السلاح والعدة في فضائل بندر جدة (١٠٣) ٠

٨ ـ تاريخ يفيد في معرفة وفيات المترجمين في الضوء اللامع من الأحياء (١٠٤) ٠

أثر كتاباته التاريخية فيمن بعده :

يبدو أثر كتابات جار الله التاريخية فيمن جاء من بعده خاصة في كتاب النور السافر فقد أشار مؤلفه الى أقوال جار الله في مواضع عدة أحسبه نقلهـا من معجم جار الله الذي ذكر فيه شيوخه ، واليك نمـاذج مما نقله عن جار الله :

١ ـ نقل قـول جار الله في ترجمـة الحافظ عثمان بنمحمد ابي عمر الديمي : « قال الشيخ جار الله بن فهد المكى : أقول : وبعد المؤلف انفرد بالرواية وازدحم عليه الطلبة وصار له ذكر عند الخاصة والعامة مع عدم معرفته بتخريج الاسناد لكن الناس انتفعوا بتقريره واستمر كذلك الى أن لقى الله عز وجل رحمه الله تعالى » (١٠٥) ٠

٢ ـ في ترجمة برهان الدين الاقصرائي المواهبي : قال الشيخ جار الله بن فهد رحمه الله أقول : «وقد جاور صاحب الترجمة بمكة سنة أربع وتسعمائة وأقام بها ثلاث سنين وألف بها شرحا على الحكم لابن عطـاء الله سماه « أحكام الحكم بشرح الحكم » وشرحرسالته المسمـاة « أصول مقدمـات الأصول » وشرح كلمات علي بن محمد وفا المعروف يا مولانا يا واحد يا أحد سماه شرح التمويل في بيان مشاهد يا مولانا يا واحد ياأحد وشرح الرسالة السندسية في أصول الدين وله ديوان نظم وعدة رسائل » (١٠٦) ٠

٣ ـ في وفيات سنة ست عشرة وتسعمائة وفي ترجمة السلطان العادل المجـاهد ابي الفتح محمـد بن محمد صاحب كجرات باحمد اباد ، قال الشيخ جار الله بن فهد رحمه الله اقول : « وعمر بمكة رباطـا مجاورا بباب المدينة عرف بالكنبايتية وقرر به جماعة ودروسا وغير ذلك وكان يرسل لهم مع اهل الحرمين عدة صدقات ثم قطعها لما بلغه استيلاء النظار عليها » (١٠٧) وممن نقل عنه واكثر الاستمداد منه الجمال الشلي اليماني في كتابه « السنا الباهر بتكميل النور السافر » وشمس الدين بن طولون فان تواريخه طافحة بالنقل عنه (١٠٨) ٠

نــاصر بن سعد الــرشيد

علاقة السخاوى ببنــى فهــد

توثقت العلاقة بين العلامة المؤرخ المحدث شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي وبين بني فهد الاربعة توثيقا قويا وبدت هذه العلاقة في مظاهر عدة منها :

١ ـ ان السخاوي تتلمذ على الحافظ محمد بن محمد بن فهد ، لقيه في مكة المكرمة مرارا واستفاد منه ذكر ذلك في ترجمته لابن فهد وفي ترجمته لنفسه ، فهو يقول عند ذكره لتأليف ابن فهد لكتابه في السيرة « النور الباهر الساطع من سيرة ذي البرهان القاطع » (١٠٩) : « قرأته عليه بمولد النبي صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم من مكة » ويقول ايضا عندما ذكر كتبه « بشرى الورى مما ورد في حرا ، واقتطاف النور مما ورد في ثور ، والابانة مما ورد في الجعرانة » (١١٠) : « قرأتها عليه بمحالها من مكة » ويذكر السخاوي ايضا ان ابن فهد جمع له ولده معجما وفهرستا استفاد منهما (١١١) ، ويقول : ايضا بعد ان اثنى على علم ابن فهد (١١٢) : « فأخذ عنه الناس من سائر الآفاق وكنت ممن لقيته فحملت عنه في المجاورة الاولى الكثير بمكة وكثير من ضواحيها » ، وحينما ترجم العيدروسى للسخاوي ذكر بعض شيوخه في مكة فقال (١١٣) : « وحج بعد وفاة شيخه ابن حجر مع والديه ولقى جماعة من العلماء فأخذ عنهم كأبي الفتح الاغر والبرهان الزمزمي ، والتقي بن فهد وابي السعادات ابن ظهيرة وخلائق » ٠

وبعد مرحلة التلمذة اعجب الشيخ بتلميذه ايما اعجاب وهو جدير بذلك فاهتبل الفرص في مدحه والاشادة بكتبه وطالع كثيرا من كتبه واثنى عليه ، روى ذلك السخاوي بقوله (١١٤) : « وبالغ في مدحي بما اثبته في المعجم وغيره وطالع في المجاورة الثانية كثيرا من تصانيفي حتى في مرض موته » ، ويذكر السخاوي في معرض حديثه عن الائمة الذين قرضوا « اشياء من تصانيفه » في ترجمته لنفسه ان « الحافظ محدث الحجاز التقي ابن فهد الهاشمي وصفه باشياء منها : زين الحفاظ وعمدة الائمة الايقاظ شمس الدنيا والدين من اعتنى بخدمة حديث سيد المرسلين واشتهر بذلك في العالمين على طريقة اهل الدين والتقوى فبلغ فيه الغاية القصوى » (١١٥) ، وبقي السخاوي وفيا لشيخه في صباه ولنده في كهولته فكان ممن شهد الصلاة عليه ودفنه وكان كثير التردد على قبره « بعد تفرقة الربعة بالمسجد اياما » (١١٦) ٠

٢ ـ ان السخاوي صحب النجم عمر بن فهد صحبة ود واحترام ويكفيك شاهدا على هذا انه لا يشير الى النجم دون ان يردف قبل اسمه لفظة « صاحبنا » وهو يعتز بهذه الصحبة ، فحينما ترجم لابنه العز قال (١١٧) : « عبد العزيز ٠٠٠ ابو فارس وابو الخير بن صاحبنا النجم » وفي ترجمته لعبد القادر بن الشهاب الانصاري يقول (١١٨) : « خرج له صاحبنا النجم بن فهد مشيخة » ويقول في ترجمة عمر بن العز بن النجم ابن فهد (١١٩) : « عمر بن عبد العزيز بن صاحبنا النجم عمر » ويقول في موضع آخر حينما ترجم لعلي بن احمد الكلاعي الحميري اليمني (١٢٠) : « وكتب عنه صاحبنا ابن فهد من نظمه » ولو ذهبت استقصى ذكر لفظة « صاحبنا النجم بن فهد » في كتاب السخاوي لاطلت ، وكان بينهما من المودة والاحترام ما يعجز المرء عن تصوره يشتاق احدهما الى الاخر اشتياقه الى ولده اذ ان صداقتهما بنيت على اساس من الصحبة والاستاذية وتحصيل العلم ولذلك يقول السخاوي في وصف هذه الصداقة واسسها (١٢١) : « وبيننا من المودة والاخاء ما لا أصفه ، وله رغبة تامة في تحصيل كل ما يصدر عني من تأليف وتخريج ونحو ذلك بحيث اجتمع عنده من ذلك الكثير » وكانت بينهما مراسلات اخوية وعلمية تفيض شوقا وتوددا ، ومن هذه المراسلات رسالة كتبها النجم الى السخاوي لما بلغه ما عرض في ذراعه بسبب سقوطه في الحمام ثم بروءه منه قال فيها : « ولله الحمد على العافية والله يمتع بوجودك المسلمين ويديم بقاءك فوالله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة لا اعلم لك في الدنيا نظيرا ووالله كلما اطلعت في مؤلفاتك وما فيها من الفوائد ادعو لكم بطول الحياة ولم ازل ابث محاسنكم في كل مجلس وادعو لكم بظهر الغيب فالله يتقبل ذلك بمنه وكرمه » (١٢٢) ، ويرسل

النجم رسالة الى بعض اصحابه ويطلب منه فيها ان يبلغ سلامه للسخاوي فيقول (١٢٣) : « .. والسلام على سيدنا وشيخنا وبركتنا سيدي الشيخ الامام العلامة الحافظ الكبير فلان جمع الله به الشمل بالحرم الشريف قريبا غير بعيد واني والله العظيم مشتاق كثيرا الى رؤيته ووالله اود لو كنت في خدمته بقية العمر لاستفيد منه ولكن على كل خير مانع » .

وكان السخاوي يراه ثقة يقرنه بشيخه ابن حجر وبالمقريزي ولذلك فقد اكثر النقل عنه في ترجمته للمكيين او من نزل بمكة ومات بها او بغيرها كما رأيت آنفا ، كما ان النجم نقل كثيرا من كتابات السخاوي حسب قول السخاوي في ترجمته للعز بن النجم (١٢٤) : « قرأ عليّ ما كان في كتب والده من تصانيفي وهو شيء كثير » ومن قرأ ترجمة السخاوي للنجم لحظ ان كليهما قد اخذ من صاحبه فترة ، قال في معرض حديثه عن شغف النجم بطلب العلم من اي جهة كانت وعلى يدشيخ مهما بلغت منزلته من مثله او اقل منه (١٢٥) : « وقمَّش في هذه المدة بل وبعدها ايضا عمن دب ودرج واخذ عمن هو مثله بل ومن هو دونه فمن هو في عداد من يأخذ عنه ولم يتحاش عن ذلك كله حتى انه سمع مني بمكة جملة من تصانيفي وحضر عندي ما امليته بها » وفي ترجمته لنفسه ذكر انه صحب النجم في بدء حياته العلمية واستفاد من ارشاده وافادته (١٢٦) : « وكذا تدرب في الطلبة بمستمليه مفيد القاهرة الزين رضوان العقبي واكثر من ملازمته قراءة وسماعا وبصاحبه النجم عمر بن فهد الهاشمي وانتفع بارشاد كل منهم واجزائه وافادته » والسخاوي مدين لصاحبه النجم ادانة لم ينكرها السخاوي مع ما عرف عنه من التعالي على اقرانه خاصة في اول امره فقد اعانه ابن فهد بما يلزمه في تلك الفترة وهو يعبر عن ذلك بقوله (١٢٧) : « واعانه عليه صاحبه النجم ابن فهد بكتبه وفوائده ونفسه ودلالته على الشيوخ وكذا بكتب والده » بل ان السخاوي صرح في بعض المواضع انه سمع منه وقرأ عليه يقول (١٢٨) : « اما انا فاستفدت منه كثيرا وسمعت منه في سنة خمسين وبعدها اشياء بل قرأت عليه في الطائف ومكة اشياء » .

ومع ان كلا منهما استفاد من صاحبه واثنى عليه وحمد له علمه فان النجم بن فهد كان لا يقدم على السخاوي احدا كما فخر بذلك وهو يترجم لنفسه. ومماوصفه به ما يأتي : (١٢٩) « شيخنا الامام العلامة الاوحد الفهامة المتقن العلم الزاهر والبحر الزاخر عمدة الحفاظ وخاتمتهم من بقاؤه نعمة يجب الاعتراف بقدرها ومنة لا يقام بشكرها وهو حجة لا يسع الخصم لها الجحود واية تشهد بانه امام الوجود وكلامه غير محتاج الى شهود وهو والله بقية من رأيت من المشايخ وانا وجميع طلبة الحديث بالبلاد الشامية والبلاد المصرية وسائر بلاد الاسلام عيال عليه ووالله ما اعلم في الوجود له نظير » .

٣ ـ ان السخاوي زامل العز بن النجم بن فهد في مرحلة من مراحل تعليمه وسمع معه عن كثير من المكيين كأبي الفتح المراغي والزين الاسيوطي والزمزمي وغيرهم بمكة او بأماكن منها كمنى ، قال السخاوي (١٣٠) : « وجل ذلك معى » ولكنه بعد ذلك اصبح احد شيوخه الذين لازمهم العز واستفاد منهم كثيرا (١٣١) ذكر ذلك السخاوي في مواضع من كتابه حينما ترجم له فقال (١٣٢) : « واجتهد في كل ذلك فتميز في الطلب واستمد مني ثم عاد الى بلده مع الركب ثم رجع من البحر ايضا في سنة خمس وسبعين (وثمانمائة) وقرأ عليّ في بحث ألفية الحديث مع غيرهامن تصانيفي وحضر عندي في الاملاء وغيرها » ، وبعد سنين قضاها العز في مكة وفي بلاد اخرى طلبا للدراية دخل القاهرة فاتصل بالسخاوي ، يقول السخاوي عن ذلك (١٣٣) : « ثم دخل القاهرة ايضا مع الركب في سنة اربع وثمانين (وثمانمائة) فلازمني في السماع والقراءة وكان مما قرأه عليّ قطعةكبيرة من اول شرحي لالفية الحديث وجميع شرح النخبة وحضر كثيرا من مجالس الاملاء بل واستملى بعضها » ، ولم يكن ذلك آخر عهده بالسخاوي والقراءة عليه بل لازمه عندما جاور السخاوي الذي يروي ذلك بقوله (١٣٤) : « ولما جاورت سنة ست وثمانين (وثمانمائة) والتي تليها أكثر من ملازمتي بحيث قرأ على ما كان في كتب والده من تصانيفي وهو شيء كثير وحصل هو ايضا اشياء قرأها

واكمل سماع شرحي للالفية مع تكرر كثير منه له وكذا سمع على ومنى غير ذلك » ولما رأى السخاوي براعة العز في الحديث وولعه بالكشف والتخريج والتاريخ اذن له في « التدريس والافادة والتحديث » (١٣٥) ، وكان العز يرى في شيخه كفاءة عالية وفي تصانيفه فائدة جمة فكتب بعضها وكتب مصنف « الضوء اللامع لاهل القرن التاسع » وقد وجد في اخر جزء من الاصل هذه العبارة « آخر الجزء الرابع من الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشيخنا العلامة الحجة الفهامة شيخ الاسلام حجة الانام ابي الخير محمد شمس الدين بن المرحوم زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر السخاوي القاهري الشافعي أدام الله حياته للمسلمين آمين وانتهى الى هنا من خطه في مدة آخرها يوم الخميس حادي عشر صفر الخير سنة تسع وتسعين وثمانمائة بمنزل كاتبه من مكة المشرفة المفتقر الى لطف الله وعونه عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي الشافعي لطف الله بهم آمين والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » (١٣٦) ، وفي اخر الصفحة كتاب السخاوي نفسه الذي اذن للعز ولزميله الشيخي الفاضلي برواية هذا الكتاب وبراوية غيره من مؤلفات السخاوي وهو : « الحمد لله أنهاه عليّ قراءة ومقابلة مفيدا مجيدا محررا وللمحاسن مظهرا كاتبه الشيخ الامام الاوحد الهمام العالم المرشد والمحدث المفيد الرحال المسند الحافظ القدوة عبد العزيز مفيد اهل الحجاز ومسعد القاطنين فضلا عن الغرباء بما يسعفهم به بدون المجاز نفع الله تعالى به ورفعه في الدارين لاعلى رتبة ، وسمعه معه الشيخي الفاضلي ذو الهمة العلية والنسبة الى السادات الائمة العمرية ابو بكر السلمي المكي عرف بالشلح جمله اله تعالى سفرا وحضرا وحمله على نجائب جوده وفضله مساء وبكرا ، وانتهى في يوم ثاني عشر رجب سنة تسع وتسعين بمكة واجزت لهما روايته عنى وسائر مروياتي ومؤلفاتي ، قال وكتبه محمد بن عبد الرحمن السخاوي مؤلفه ختم الله له بخير وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما » (١٣٧) .

ولما انتهى السخاوي من كتابه في تاريخ المدينة الذي اسماه « التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة » اشار مفتخرا الى ان السمهودي قد اشاد بهذا المصنف وانه كتب بذلك للعز بن فهد يدعوه الى قراءته واقتنائه والتوجه بسببه ، يقول السخاوي (١٣٨) : « وكان الشروع في تبييضه والرجوع لتهذيبه وتنهيضه حين كوني بطيبة الشريفة وقرة عيني بلحظ تلك العرصات المنيفة ، وكتب (السمهودي) الى العز بن فهد يحرض عليه ويمرض من لم يلتفت اليه ، بل نظم الفواصل اللواتي ، والحبيب المواتي قصيدة في التنويه والتوجه بسببه » .

اما علاقة السخاوي بجار الله بن فهد فقد كانت علاقة شيخ بتلميذه ، شيخ كان يعرف آباءه الثلاثة قبله ويكن لهم كل احترام ويثني عليهم في كل مقام ، تتلمذ عليه جار الله وسمع منه (١٣٩) ، وكان قد بدأ السماع منه وهو في سن مبكرة جدا في الرابعة ، والسخاوي مجاور للمرة الرابعة فيها ودعنا نقرأ ما قاله السخاوي عن تلمذة جار الله عليه (١٤٠) : « حضر على وهو في الرابعة في مجاورتي الرابعة من لفظي وبقراءة ابيه وغيره اشياء ثم سمع على بعد ذلك اشياء » ، وقد علق جار الله على ترجمة السخاوي لنفسه تعليقا يفيض حبا واعجابا ووصفه « بشيخنا » وحشد في ترجمته صفات لا تتوفر الا للقليل من العلماء ثم استشهد بثناء جده عليه ، يقول جار الله (١٤١) : « ان شيخنا صاحب الترجمة حقيق بما ذكره لنفسه من الاوصاف الحسنة ، ووالله العظيم لم أر في الحفاظ المتأخرين مثله ويعلم ذلك كل من اطلع على مؤلفاته او شاهده وهو عارف فقيه مصنف في تراجمه ، ورحم الله جدي حيث قال في ترجمته : « انه انفرد بفنه فطار اسمه في الآفاق وكثرت مصنفاته فيه وفي غيره طار صيته شرقا وغربا وشاما ويمنا ولا اعلم الان من يعرف الحديث مثله ولا اكثر تصنيفا ولا احسن ، ولذلك اخذ عنه علماء الافاق من المشايخ والطلبة والرفاق وله اليد الطولى في المعرفة بالعلل واسماء الرجال واحوال الرواة والجرح والتعديل واليه يشار في ذلك » .

ولعل القارىء يلحظ نغمة الثناء المتبادلة بين السخاوي وبين آل فهد ، والثناء لا يأتي من السخاوي هونا وسهلا بل لقد عرف السخاوي بفرط قسوته على العلماء خاصة علماء عصره منهم وشدة نقده لهم وعدم

تحرجه حينا من تجريحهم ، وما قصته مع السيوطى المشهورة وما بينهما من خصومة وهجاء الا دليل على ذلك وما قوله عن بعض الشخصيات التي ترجم لها : « ودفن بالمعلاة غير مأسوف عليه » الا من ذلك الضرب ، وبهذا تدرك ان ثناءه وحبه لبني فهد كان ناتجا عن آل فهد انفسهم في علمهم وفي منزلتهم وتوطئة اكنافهم للغربـاء والعلماء والطلاب .

٤ ــ ان السخاوي في ترجمته لآل فهد كان شديد العناية ودقيق التحري فقد كان مثلا يذكر كل شيء عنهم حتى اسماء امهاتهم ، ففي ترجمته للتقـي يقول السخاوي عن امه (١٤٢) : « وكان والده سافر اليهـا (اصفون) لاستخلاص جهات موقوفة على امه خديجة بنت النجم الاصفوني فتزوج هناك بابنة عم جده النجم المشار اليه واسمها فاطمة بنت احمد بن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم القرشية المخزومية وهي ابنة عم جده لامه العلامة النجم عبد الرحمن بن يوسف الاصفوني الفقيه الشافعي فولد لـه منهـا هناك التقـي » ، اما في ترجمة العز فيقول (١٤٣) : « وامه عائشة بنت العفيف عبد الله بن محمد بن على العجمي الاصل » ويقول عن ام جار الله (١٤٤) : « امه كمالية » ، ومن خبر السخاوي وكتابه « الضوء اللامع » خبرتي به فسيعـرف ان السخاوي لا يذكر امهات من ترجم لهم الا في حكم النادر ، واحسب ذكره لآل فهد انما نشأ من عمق معرفته لهم وصلته العلمية القوية بهذا البيت الهاشمي .

ومن هذا القبيل اعتناء السخاوي بذكر تاريخ مواليدهم ، وهو وان كان يذكر اليوم والشهر والسنة ، أما في ترجمته لآل فهد فانه يذكر اذا ما كان قد ولد في نهار ذلك اليوم او في ليلته بل ويذكر الجزء الذي ولد فيه من ذلك اليوم او تلك الليلة ، وهذه دقة متناهية في ذكر تواريخ الميلاد ، فهو يقول مثلا عن التقي (١٤٥): « ولد في عشية الثلاثاء خامس ربيع الثاني سنة سبع وثمانين وسبعمائة » ، ويقول عن النجم عمر (١٤٦) : ولد في ليلة الجمعة سلخ جمادى الثانية سنة اثنتي عشرة وثمانمائة » ويقول عن العز (١٤٧) : « ولـد في الثلـث الاخير من ليلة السبـت سادس عشريـن شوال سنة خمسين وثمانمائة »، ويقول عن جار الله (١٤٨) : « ولد في ليلة السبت لعشرين من شهر رجب سنـة احدى وتسعين وثمانمائة » .

مخطوطة « أتحاف الورى بأخبار أم القرى »

وصفهـــا :

للكتاب نسختان في مكتبة الحرم المكى الشريف كلاهما مكتوب بالخط النسخ وهو من الوضوح بحيث لا تصعب قراءته ، وهي ذات حجم كبير ولو قارناها مثلا بكتاب التقي الفاسي « شفاء الغرام بأخبـار بيت الله الحرام » لبدت اكبر حجما، ذلك لان ورقها الذي كتبت به من الورق الطويل ، وقد اعتمدت في دراستي لهـذه المخطوطة على احدى النسختين التي قال عنها ناسخها الذي لم يسم اسمه (١٤٩) : « وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة غرة ذي الحجة الحرام من شهـور سنة ألف ومائة واحدىوعشرين رحم الله مؤلفها ومَّن على قارئها الناظر فيها وكاتبها بحسن الختام والفوز في الدارين بنيل المرام وغفر الله عنهم أجمعين وأصلح شأن منرأى فيها وأصلحها واعتذر للكاتب فانه والله لم يكن عن عمد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبـه وسلم » ، وفي أسفل الصفحة ما يوهم أن عبد الستار الحنفي هو كاتبها ولو أنه كان متأخرا عن تاريخ ناسخها الاول ويبدو لي أن عبـد الستار ليس هـو ناسخهـا الحقيقي ، وانما ذلـك تعنيق منـه اذ يقـول (١٥٠) : « انتهى ما وجدته بالاصل المنقول منه بحروفه ولفظه وتم بحمد الله وعونه على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده الراجي منَّن ربه ولطفـه الخفي أبي الفيض وأبي الاسعاد عبد الستار الصديقي الحنفى بن المرحـوم الشيخ عبد الوهاب الكتبى المكى في يوم الاثنين الموافق ثلاثة من جمادى الاولى من العام الاربعين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة بمكة المشرفة زادها الله تشريفا وتكريما وتعظيما ومهابة ورفعة وصلى الله علىسيدنا محمد النبي الامين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين » .

هذا وقد بدأها مؤلفها النجم عمر بن فهد بمقدمة قصيرة بيَّن فيها أهمية علم التاريخ وضرورة معرفتـه فقال (١٥١) : ان علم التاريخ لا شك في جلال قدره و عظم موقعه ينتفع به للاطلاع على حـوادث الزمان وسير الناس وما أبقى الدهر من أخبارهم بعد أن أبادهم مع أنه عبرة لمن اعتبر وتنبيه لمن افتكر واختبار حال من مضى وغبر واعلام أن ساكني الـديار على سفر وفي ضبطه بالسنين أمور مهمة وفوائد جمة لحظها الفاروق والصحابة رضى الله عنهم عند وضعه التاريخ » ، ثم نقل عن شيخه المقريزي عبارة في التاريـخ وأهميته فقـال (١٥٢) : ورأيت بخط شيخنا الامام العلامة المؤرخ الكبير تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقـريزي المصري تغمده الله برحمته في بعض تعاليقه ما نصه : من أرخ فقد حاسب الايام عن عمره ومن كتب حوادث دهره فقد كتب كتابا الى من بعده بحديث دهره ومن قيد ما شهد فقد اشهد عصره من لم يكن من اهل عصره فهو يهدي الى الفضلاء اعمالا وبنوا (١٥٣) اسماعهم وابصارهم ديارا ما كانت لهم ديارا » ٠

عزني اذ (١٥٤) أرى الديـار بعيني ولعـلـي أرى الـديـار بسمعـي

فسبحان من هو كل يوم في شأن وانتهى ٠

منهـج مؤلفهـا :

يشفق الشخص على من أراد أن يؤرخ لمكة من عهد الجاهلية السحيق حتى القـرن الثامن فما عساه أن يقول او يأتي بجديد بعد الازرقي والفاسي في تاريخيهما ومختصراتهما ، وأحسب أن ابن فهد لحظ ذلك حينمـا أزمـع أن يكتب تاريخه هذا فأكد أنه سيذكر أخبارا لم يذكرها الفاسي وأنه سوف يرتب حوادث هذا التاريخ على السنين وأنه لم يذكر من أخبار مكة في جاهليتها الا ما كان متفقا بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم اذ أنه سيبدأ من حين مولده صلى الله عليه وسلم فهو يقول (١٥٥) : « وقد ألف شيخنا السيد الشريف الامـام الحافظ المؤرخ قاضي المسلمين تقي الدين أبـو الطيب عمر بن شيخنا الامام أقضى القضاة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن على بن أبي عبد الله الحسين الفاسي المكى المالكي أثابه الله الثواب الجزيل وكـان له بكل خير كفيل لأخبار بلده مكة المشرفة عدة مؤلفات منها « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ومختصراتـه الستة وكتاب « العقد الثمين في تاريخ البلد الامين » ومختصراته الثلاثة وذكر في أثناء كتبـه حوادث وأخبـار اتفقت بمكة المشرفة وأعمالها في الجاهلية والاسلام أحببت أن أفرد ذلك مرتبا على السنين مبتدئا من حين مولد النبي صلى الله عليه وسلم وألحق به كثيرا ممن لم يذكره في مؤلفاته من هذا المعنى وأذيل عليه الى زماني وأذكر في كل سنة من مات بها أيضا من الاعيان من أهلها وغـيرهم وكثيرا ممن مات من أهلها بغيرها وسميت ذلك « أتحاف الورى بأخبار أم القرى » والله المسئول الاعانة والاتمام والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنـام والرضا عن آله وأصحابه الكرام » ٠

ولنحاول الآن أن نلقي بعض الاضواء على منهج ابن فهد في مصنفه هـذا ، فهـو حينمـا ذكر أخبـار زيادة المسجد الحرام في عهد الخليفة العباسي المهدي الذي فوض قاضي مكة الأوقص محمد بن عبد الرحمن المخزومي لشراء بعض الدور الملاصقة للحرم والحاقها به حاول أن يستخـدم التصوير والايضاح فصور خريطة المسجد وأساطينه بعد هذه الزيادة (١٥٦) ٠

وركز ابن فهد على أخبار الحج ومن قدم مكة حاجا من الاعيان والعلماء وأخبار أمراء الحج والنفقات التي أنفقت في مكة آتية من خارجها ونحو ذلك من الاخبار ، فذكر قدوم الخيزران سنة احدى وسبعين ومائة وحج هارون الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة وأحرم من بغداد ، وفي سنـــة اربـع وسبعـين ومائـة حج بالنـاس هارون الرشيد ولم ينزل مكة للوباء الذي كان بها بل دخلها يوم التروية وطاف وسعى وخرج الى عرفات ثم عاد فدخلها فطاف طواف الزيارة وقفل راجعا وكان قد أفرد بالحج وقسم في الناس مالا كثيرا (١٥٧) وذكـر في أخبار سنة خمس وثمانين ومائة من شهر رمضان أن صاعقة عظيمة وقعت في المسجد الحـرام على بعض ظـلال المسجـد فاحترقت الظلة وقتلت رجلين (١٥٨) ٠

بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة

ومهما يكن من أمر فان لدى ابن فهد حاسة تاريخية عجيبة جعلته لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في تاريخ مكة وفي أخبار أهلها وحالتهم الاجتماعية والكوارث الطبيعية والمبادلات التجارية والمراكب وما تحمله الى مكة والاسعار وغلاها ورخصها وتأخر

الهوامش

(١) انظر تراجمهم حسب ترتيب أسمائهم في الضوء اللامع : ٩/٢٣١ ، ٦/٩٤ ، ٤/٧٠ـ٧١ ٠
(٢) نفس المصدر : ٩/٢٣١ ٠
(٣) الضوء اللامع ٩/٢٨١ وهدية العارفين : ٢/٢٠٥ ، ذيل طبقات الحفاظ : ٥ ، لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ : ٣٨٢ ٠
(٤) الضوء اللامع : ٩ / ٢٨١ ـ ٢٨٢ ٠
(٥) ذيل طبقات الحفاظ : ٣٨٢ ٠
(٦) الضوء اللامع : ٩/٢٨٢ ٠
(٧) النور السافر : ١٢٢
(٨) الضوء اللامع : ٩/٢٨٢
(٩) ذيل طبقات الحفاظ : ٥
(١٠) الضوء اللامع : ٦/١٢٩
(١١) ذيل طبقات الحفاظ : ٣٤٤ ٠
(١٢) هذه المؤلفات ذكرها كل من السخاوي في الضوءاللامع : ٩/٢٨٢ ، والبغدادي في هدية العارفين : ٢/٢٠٥ ٠
(١٣) الضوء اللامع : ٩/٢٨٢ ٠
(١٤) الضوء اللامع : ٦/١٢٧
(١٥) ذيل تذكرة الحفاظ : ٣٤٤
(١٦) الضوء اللامع : ٩/٢٣٨
(١٧) البدر الطالع : ١/٥١٢ ، الضوء اللامع : ٦/١٢٦ـ١٣١ ، النور السافر : ٥٨ ، الاعلام : ٥/٢٢٥ ، هدية العارفين : ١/٧٩٤ ، معجم المؤلفين : ٧/٣١٨ ٠
(١٨) البدر الطالع : ١/٥١٢ـ٥١٣ ٠
(١٩) الضوء اللامع : ٤/٢٨٤ ٠
(٢٠) النور السافر : ٥٨ ٠
(٢١) الضوء اللامع : ٤/٢٨٤ ٠
(٢٢) البدر الطالع : ١/٥١٣ ، الضوء اللامع : ٦/١٢٨
(٢٣) هدية العارفين : ١/٧٩٤ ٠
(٢٤) ٥/٢٢٥ ٠
(٢٥) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ٣٥ ٠
(٢٦) الورقة : ١ ٠
(٢٧) كشف الظنون : ١/٣٠٦ ٠
(٢٨) ٥/٢٢٥ ٠
(٢٩) الضوء اللامع : ٦/١٢٨ ٠
(٣٠) الضوء اللامع : ٦/١٢٨ ٠

(٣١) هدية العارفين : ٧٩٤/١ ٠
(٣٢) ٢٢٥/٥ ٠
(٣٣) هدية العارفين ٧٩٤/١ ٠
(٣٤) الضوء اللامع : ١٢٩/٦ ٠
(٣٥) شذرات الذهب : ١٠٠/٨ ، الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ، الشمعة المضيئة* : ٢ ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ٣٥ ، ٣٧ ، ٠
(٣٦) الضوء اللامع : ٢٨٣/٩ ٠
(٣٧) الضوء اللامع : ١٣٠/٦ ٠
(٣٨) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : ٣٥ ٠
(٣٩) شذرات الذهب : ١٠٠/٨ ٠
(٤٠) الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ٠
(٤١) بلوغ القرى ، ورقة : ١ ٠
(٤٢) الضوء اللامع : ١٢٦/٦ ٠
(٤٣) نفس المصدر والجزء : ١٢٨ ٠
(٤٤) نفس المصدر والجزء : ١٢٩ ٠
(٤٥) الضوء اللامع : ١٢٧/٦ ٠
(٤٦) نفس المصدر والجزء : ١٢٩ ٠
(٤٧) بلوغ القرى ، ورقة : ١ ٠
(٤٨) انظر الضوء اللامع : ١١٨/٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ج ٨ ص : ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ٠
(٤٩) انظر الضوء اللامع : ١٢٩/٦ ٠
(٥٠) نفس المصدر والجزء : ١٣٠ ٠
(٥١) الجامع اللطيف : ٢٠٥ ٠
(٥٢) الاعلام بأعلام بيت الله الحرام : ٥٣ ٠
(٥٣) نفس المصدر : ٣٧ ٠
(٥٤) نفس المصدر : ٤٢ ٠
(٥٥) نفس المصدر : ٤٦ ٠
(٥٦) نفس المصدر : ٤٩ ٠
(٥٧) نفس المصدر : ٧٤ ٠
(٥٨) نفس المصدر : ٩٨ ٠
(٥٩) الضوء اللامع : ٢٢٤/٤ ، شذرات الذهب : ١٠٠/٨ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ، هدية العارفين : ٥٨٣/١ ، الاعلام : ١٤٩/٤ ، معجم المؤلفين : ٢٥٥/٥ ٠
(٦٠) الضوء اللامع : ٢٢٤/٤ ٠
(٦١) شذرات الذهب : ١٠٠/٨ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ٠

(*) لم يرد ذكر هذا الكتاب في كشف المراجع الذي اعده الكاتب (المحرر) ٠

(٦٢) الضوء اللامع : ٢٢٤/٤ ٠
(٦٣) شذرات الذهب : ٨/١٠٠ــ١٠٢ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ، الضوء اللامع : ٢٢٥/٤ ٠
(٦٤) الضوء اللامع : ٢٢٥/٤ ٠
(٦٥) شذرات الذهب : ١٠٠/٨ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ، الضوء اللامع : ٢٢٥/٤ ٠
(٦٦) الضوء اللامع : ٢٢٥/٤ ٠
(٦٧) شذرات الذهب : ١٠١/٨ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ٠
(٦٨) الضوء اللامع : ٢٢٥/٥ ٠
(٦٩) الشذرات : ١٠١/٨ ، الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ٠
(٧٠) الضوء اللامع : ٢٢٥/٥ ٠
(٧١) شذرات الذهب : ١٠١/٨ الكواكب السائرة : ٢٣٨/١
(٧٢) الضوء اللامع : ٢٢٥/٤ ٠
(٧٣) لم يذكر الكاتب بالاصل مرجعه ، واكتفى بذكر رقم الحاشية فقط (المحرر)
(٧٤) الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ شذرات الذهب : ١٠١/٨
(٧٥) الضوء اللامـع : ٢٢٥/٥ ، ٢٢٦ ٠
(٧٦) شذرات الذهب : ١٠٢/٨ الكواكب السائرة : ٢٣٩/١
(٧٧) النـور السافـر : ٥٨
(٧٨) شذرات الذهب : ١٠٢/٨ الكواكب السائرة : ٢٣٩/١
(٧٩) هدية العارفين : ٥٨٣/١
(٨٠) ٢٢٦/٤
(٨١) شذرات الذهب : ١٠١/٨
(٨٢) الكواكب السائرة : ٢٣٨/١
(٨٣) الضوء اللامع : ٦٦/١٠
(٨٤) الضوء اللامع : ٥٢/٣ ، شذرات الذهب : ٣٠١/٨ ، الكواكب السائـرة : ١٣١/٢ ، كشف الظنـون : ٣٧٨/١ ، الاعـلام : ٩٣/٢ ، معجم المـؤلفـين : ١٠٧/٣ ، النور السافر : ٢٤١ ٠
(٨٥) النور السافر : ٢٤١
(٨٦) الضوء اللامع : ٣ / ٥٢
(٨٧) الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ٠
(٨٨) الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ، النور السافر : ٢٤٢
(٨٩) الضوء اللامـع : ٥٢/٣
(٩٠) النور السافـر : ٢٤٢ ٠
(٩١) الكواكب السائرة : ١٣١/٢
(٩٢) رسائل تاريخية ، الرسالة الثانية ٢
(٩٣) الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ، وترجمة جار الله في ذيل طبقات الحفاظ : ٤٨٣
(٩٤) الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ٠

(٩٥) الكواكب السائرة : ١٣١/٢
(٩٦) الكواكب السائرة : ١٣١/٢ ، كشف الظنون : ٣٠٦/١ ،
(٩٧) الكواكب السائرة : ١٣١/١
(٩٨) ٣٧٨/١
(٩٩) نفس المصدر والجزء : ٩٢٥
(١٠٠) الاعلام : ٩٣/٢
(١٠١) ذيل طبقات الحفاظ : ٣٨٢
(١٠٢) الكواكب السائرة : ١٣١/٢
(١٠٣) الاعلام : ٩٣/٢
(١٠٤) الاعلام : ٩٣/٢
(١٠٥) النور السافر : ٤٩
(١٠٦) نفس المصدر : ٥٠
(١٠٧) النور السافر : ٩٢
(١٠٨) ذيل طبقات الحفاظ : ٣٨٣ ٠
(١٠٩) الضوء اللامع : ٢٨٢/٩
(١١٠) نفس المصدر والجزء والصفحة ٠
(١١١) ذيل طبقات الحفاظ : ٣
(١١٢) الضوء اللامع : ٢٨٣/٩
(١١٣) النور السافر : ١٨
(١١٤) الضوء اللامع : ٢٨٣/٩
(١١٥) نفس المصدر : ٢٠/٨
(١١٦) نفس المصدر : ٢٨٣/٩
(١١٧) نفس المصدر ٢٢٤/٤
(١١٨) نفس المصدر والجزء : ٢٨٤
(١١٩) نفس المصدر : ٩٤/٦
(١٢٠) نفس المصدر : ١٧٤/٥
(١٢١) الضوء اللامع : ١٣١/٦
(١٢٢) نفس المصدر والجزء والصفحة
(١٢٣) نفس المصدر والجزء والصفحة
(١٢٤) الضوء اللامع : ٢٢٦/٤
(١٢٥) نفس المصدر : ١٢٨/٦
(١٢٦) نفس المصدر : ٦،٨ ويلاحظ ان السخاوي كان يعبر عن نفسه بضمير الغائب في ترجمته لنفسه ٠
(١٢٧) نفس المصدر والجزء والصفحة
(١٢٨) نفس المصدر : ١٣٠/٦

(١٢٩) نفس المصدر : ٢٠/٨

(١٣٠) الضوء اللامع : ٢٢٥/٥

(١٣١) الكواكب السائرة : ٢٣٨/١ ، شذرات الذهب : ١٠١/٨

(١٣٢) الضوء اللامع : ٢٢٥/٤

(١٣٣) نفس المصدر والجزء والصفحة

(١٣٤) نفس المصدر والجزء : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(١٣٥) الضوء اللامع : ٢٢٦/٤

(١٣٦) نفس المصدر : ٦٦/١٠

(١٣٧) الضوء اللامع : ٦٦/١٠

(١٣٨) التحفة اللطيفة : ٨/١

(١٣٩) النور السافر : ٢٤١

(١٤٠) الضوء اللامع : ٥٢/٣

(١٤١) النور السافر ٢١

(١٤٢) الضوء اللامع : ٢٨١/٩

(١٤٣) الضوء اللامع : ٢٢٤/٤ .

(١٤٤) نفس المصدر : ٥٢/٣

(١٤٥) نفس المصدر : ٢٨١/٩

(١٤٦) نفس المصدر : ١٢٦/٦

(١٤٧) نفس المصدر : ٢٢٤/٤

(١٤٨) نفس المصدر : ٥٢/٣

(١٤٩) ورقة : ٣٧٧

(١٥٠) نفس الورقـة

(١٥١) ورقة : ١

(١٥٢) ورقة : ١ ، ٢

(١٥٣) هكذا في الأصل

(١٥٤) الصواب : لا أرى حتى يستقيم المعنى

(١٥٥) ورقة : ٢

(١٥٦) ورقة : ١٥٨

(١٥٧) ورقة : ١٦١

(١٥٨) ورقـة : ١٦٢

(١٥٩) ورقـة : ١٩٦

(١٦٠) ورقـة ٢٠٤

(١٦١) ورقـة : ١٩٦

« المصادر والمراجع »

١ ــ الازرقي ــ محمد بن عبد الله بن احمد بن الوليد المكى
تاريخ مكة ــ الطبعة الاوربية .

٢ ــ البغدادي ــ اسماعيل باشا
هدية العارفين واسماء المؤلفين وآثار المصنفين

٣ ــ حاجي خليفة ــ مصطفى بن عبد الله بن محمد القسطنطيني الشهير بكاتب جلبي « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » .

٤ ــ الزركلي ــ خيرالدين .
الاعــلام

٥ ــ السخاوي ــ محمد بنعبد الرحمن ــ شمس الدين
أ ــ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ــ القاهرة ١٣٧٦
ب ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

٦ ــ الشوكاني ــ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن الخولاني .
البدر الطالع في أعيان من بعد القرن السابــع . مطبعة السعادة ١٣٤٨ .

٧ ــ ابن طولون ــ محمد على بن محمد ــ شمس الدين ابو عبدالله .
رسائل تاريخية ــ مكتبة القدس ــ دمشق ١٣٤٨

٨ ــ ابن ظهيرة ــ محمد بن محمد بن أبي بكر المخزومي ــ جمال الدين
الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف ــ الطبعة الرابعة ١٣٩٣ .

٩ ــ ابن العماد ــ عبد الحى ــ أبو الفلاح الحنبلي
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ طبعة بيروت

١٠ ــ العيدروسى ــ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله اليمني .
النور السافر عن اخبار القرن العاشر .

١١ ــ الغزي ــ محمد بن محمد ــ نجم الدين .
الكواكب السائرة بأعيــان المائة العاشرة ــ بيروت ١٩٤٥ .

١٢ ــ الفاسي ــ محمد بن أحمد بن على ــ تقي الدين
أ ــ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . القاهرة ١٩٥٦ .
ب ــ العقد الثمين في تاريخ البلد الامين .

١٣ ــ ابن فهد ــ عبد العزيز بن عمــر بن محمد بن محمد ــ العز
بلوغ القرى ــ خ مكتبة الحرم المكى .

١٤ ــ ابن فهد ــ عمر بن محمد بن محمد ــ نجم الدين
اتحاف الورى بأخبار أم القرى . خ مكتبة الحرم المكي .

١٥ ــ ابن فهد ــ محمد بن محمد ــ تقي الدين .
لحظ الألحــاظ ــ دمشق ١٣٤٧

١٦ ــ قطب الدين ــ محمد بن أحمد بن محمد قاضيخان النهروالى .
الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ــ مصر ١٣٠٣

١٧ ــ كحالة ــ عمر رضا .
معجم المؤلفين ــ تراجم مصنفي الكتب العربية ــ دمشق .

دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هورغروني
عن تاريخ الجزيرة العربية

عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

كريستيان سنـوك هورغروني هو أحد الرحالة الغربيين الذين زاروا الحجاز وكتبوا عن هـذه المنطقة كتابات مستفيضة ٠

ويسعدني هنا أن أقـدم دراسة موجـزة عن هذا الكاتب وعن مؤلفاته التي كتبها عن هذه المنطقة بصورة خاصة وعن التاريخ الاسلامي بصورة عامة ، وذلك لالقاء الضوء على هذا الكاتب والتعرف عليه وعلى كتبه التي كتبها عن منطقة الحجاز والتي يمكن اعتبارها مصدرا من مصادر تاريخ الجزيرة العربية عن الفترة التي كتبت فيهـــا ٠

لمحة تاريخية عن حياته :

ولد الدكتور كريستيـان سنوك هـورغروني في الثامن من شهر فبـراير عام ١٨٥٧ ميلادية في قريـة صغيرة في شمال هولندا هي « اوستيرهوت » وفي هذه القرية التحق بمدارسها حتى أتم دراسته الثانـوية ثم انتقل بعد ذلك الى مدينة ليدن حيث واصل دراسته الجامعية والعليـا بجامعتهـا العريقـة وتخصص في دراسة الاديان واللغات وخاصة اللغات السامية وبقي فيها حتى حصل على درجة الدكتوراه وكان موضوع رسالته هو : « الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الاسلامي » ٠ *Het Mekkaansche Feest*

وبعد تخرجه من جامعة ليدن انتقل الى شترازبورج حيث عمل تحت اشراف البـرفسور تيـودرنولدكـه المستشرق الالماني المشهور وكان يقوم بتدريس اللغـة العربية وادابها وقواعد الدين الاسلامي وقد أمضى في ذلك مدة ثلاث سنوات أدرك بعدها أنه من الافضل ان يقوم برحلة علمية الى منطقة الحجاز ليتعرف من خلالها على حيـاة المسلمين وحقيقـة الدين الاسلامي في منبـع الاسلام والتعمق في دراسة اللغـة العربيـة وآدابهـا والوقوف على غوامضها في موطنها الاصلي لأن ذلك سوف يساعده على فهم هذه الموضوعات وتدريسها بطريقة سليمة وصحيحة لأن كل ما درسه عن الاسلام واللغة العربية كان من خلال ما كتب عنها في كتب عربيـة أو أجنبية متنوعة ٠

وقد تحقق له ما كان يعتزم القيام به ، ففي أوائل شهر أغسطس من عام ١٨٨٤ تمكن من الـوصول الى مدينة جدة فمكث فيها حتى شهر فبراير عام ١٨٨٥ بعدهـا تسلل الى مكـة المكرمة تحت اسم مستعـار حيث سمى نفسه (عبد الغفـار) وقـد بقى في مكـة حتى أغسطس عام ١٨٨٥ ٠

وفي مكة كان يحضر حلقات العلم في المسجد الحرام ويكتب عن كل صغيرة أو كبيرة تدور فيها ولم يكتف بذلك بل أنه في الوقت نفسه أصبح طالبا من طـلاب العلم يدرس الدين الاسلامي واللغـة العربيـة بمختلف فروعها وينتقل من حلقة الى أخرى حتى أنه جمع مـادة ممتازة عن الناحيـة الثقافيـة في المـدينة الاسلاميـــة المقدسة ٠

وعندما علمت السلطات العثمانية عن وجوده بمكة أثر اخبارية وصلت اليها من القنصل الفرنسي في جده المسيودي لوستالوت فانها قامت باخراجه من الحجاز بعد أن زودته بأربعة جمال لحمل أثقاله الى جدة والتي منها سافر بالباخرة الى هولندا ٠

دراسة موجـزة لبعض مؤلفات كريستيـان سنوك هورغـروني

وفي عام ١٨٨٩ عين مستشارا حكـوميا للشئون الشرقيـة والاسلامية وبعـد احالة استـاذه البرفسور دي خويا الى التقـاعد في عام ١٩٠٦ عين الدكتور سنـوك هورغروني استاذا للدراسات العربية في جامعة ليدن وقد بقي في هذا المنصب حتى أحيل الى التقاعد في عام ١٩٢٧ حيث خلفـه على هـذا المنصب البرفسور أ٠ج٠ فينسينك « مؤلف فهرس الاحاديث النبوية » ولم يلبث سنوك هورغروني طـويلا حيث توفي في ٢٦ يـونيه ١٩٣٦ بعد عمر طويل قضاه في دراسة الدين والحضارة الاسلامية واللغة العربية محاولا بذلك أن يضطلع بهذه الدراسة وقد استفاد فعلا من رحلته هذه وسجل لنا معلومات وافية عن هـذه المنطقة مع أنهـا لا تخلـو من التعصب والتحيز ضد الاسلام في بعض الاحيـان لـذا يجب علينا أن نأخذها بحذر ٠ وخلال حياته ألف عدة مؤلفات كتبها بلغات متعددة أهمها الهولندية والالمانية والانجليزية مما زاد من الاهتمام بالدين الاسلامي واللغة العربية بين شعوب تكاد تجهل تاريخ وأهمية هذه المنطقة وأهم مؤلفاته عن تاريخ الجزيرة بصورة خـاصة وعن الاسلام بصورة عامة والتيسوف نذكرها هنا على سبيلالمثال لا الحصر هي : ـ

١ ـ مكـه *Mekka* ٠ وقد كتبه بـاللغة الالمانية في مجلدين كبيرين طبع في مدينة لاهاي بين عامي ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ وقد ترجم المجلد الثاني الى اللغة الانجليزية تحت عنوان : مكه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي *Mekka in the latter part of the 19th Century*

وقد قام بالترجمة ج٠هـ موناهان Monahan القنصل البريطـاني في جـده آنـذاك وطبعت الترجمة لأول مرة في عام ١٩٣١ في مدينة ليدن ويعتبر كتابه هذا كتابا مهـا حيث أنه يطرق نواحي مهمة جدا في تاريخ المدينة المقدسة كمـا أنه اعتمـد عليه أكثر من كتب عن تاريخ مكه وخاصة في هذه الفترة ٠

٢ ـ مقالات وابحاث لسنوك هورغروني : *Verspreide Geschriften Van C. Snouck-Hurgronje*

وقد صدر هذا الكتاب في ستة مجلدات طبعت في مدينتي بون وليدن في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ الى ١٩٢٧ ويحتوي هذا الكتاب على دراسات اسلامية وعربية متنوعة مثل : مركز الديـن الاسلامـي والشريعـة الاسلامية ، والشعوب العربية والاسلامية ، لغتهم ، عاداتهم ، وآدابهم كما انه يطرق ايضا النواحي السياسية في المنطقة العربية في فترات مختلفة وغير ذلك من ابحاث كما ان احد مجلدات هذا الكتاب يحتوي على دراسة الامثال والحكم الحجازية جمعها سنوك هورغوروني خلال اقامته في الحجاز واضاف اليهـا اضافـات عديـدة ودراسات متنوعة وقد سماها *Mekkanische Sprichworter und Redensarten*

وهذا المجلد يعتبر دراسة مهمة للغة العربية واللهجات في الحجاز في تلك الفترة ٠

٣ ـ الاسلام في اندونيسيا : *Der Islam in Nederlandshen Indien*

وقد طبع هذا الكتاب في مدينة ليدن في عام ١٩١٣ وهو دراسة ممتازة عن حياة المسلمين في اندونيسيـا والتي كانت تحت السيطرة الهولندية في تلك الفترة ٠

٤ ـ مختارات من كتابات سنوك هورغروني :

كتب باللغتين الانجليزية والفرنسية اصدرها كل من ج٠هـ٠ بوسكويت ، وج٠ شخت ليدن ١٩٥٧ ٠

٥ ـ الاسلام *Islam*

كتاب صغير كتبه سنوك هورغروني وطبع في عام ١٩١٢ في ليدن ٠ وفي هذا الكتاب يتحدث عن النبـي صلى الله عليه وسلم واعماله وانتشار الاسلام وان الاسلام لم يكن انتشاره لاسباب اقتصادية كما كان يروجه كثير من المستشرقين وانما يرجع ذلك الـى شخصية النبي (ص) والى ما جاء به الاسلام من تصحيح وتنظيم للحياة في مختلف جوانبها ٠

عبـــد اللطيـــف عبـــد الله بن دهيش

ويهمنا هنا ان نقدم دراسة مختصرة لكتبه التي تبحث في تاريخ الجزيرة العربية واهمها : كتاب مكـة *Mekka* : وكما اشرنا سابقا ان هذا الكتاب يحتوي على مجلدين كبيريـن · ويشمـل المجلـد الاول على دراسة مفصلة لتاريخ مكة وحكامها · وقد قسمه المؤلف الى اربعة اقسام :

١ ـ الموقع الجغرافي لمكة : وفيه معلومات وافية عن موقع مكة الجغرافي ·

٢ ـ مكة في العهد الاسلامي الاول : ويتحدث الكاتب في هذا القسم عن انتشار الاسلام وحكومة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والنظم الاسلامية الجديدة للنواحي الاجتماعية والاقتصادية والادارية ونشأة العلوم الاسلامية ونحو ذلك ·

٣ ـ تسلسل تاريخي لاهم الاحداث بمكة وعلاقة الحجاز بنجد وخاصة بعد قيام الدولـة السعوديـة الاولى في نجد على يد الامام محمد بن سعود وما تبع ذلك من احداث ·

٤ ـ مكة من عام ١٧٧٨ الى عام ١٨٨٧ وهي السنة التي انتهى فيها من اعداد كتابه هـذا · كما ان هذا المجلد يحتوي على شجرة انساب الحكام وفترة حكم كل واحد منهـم كمـا يشمل المجلـد الاول على تفصيل كامل لمحتويات المجلد الاول والثاني وقد كان المجلد عبارة عن مقدمة للمجلد الثاني والذي فيه يتحدث باسهاب عما شاهـده او سمعه في مكـة خـلال اقامتـه بهـا (اغسطس عام ١٨٨٤ الى اغسطس عام ١٨٨٥ م) ·

ويشمل المجلد الثاني على اربعة اقسام ايضا وهي :

١ ـ **الحياة العامة في مكة :** وتشمل الادارة ، وحياة السكان وما يزاولونه من اعمـال تجاريـة وحرف متنوعة او ما يقدمونه لخدمة الحجاج وهنا يتحدث باسهاب عن المطوفين بمكة · فيقول ان المطوف كان يقوم هو وافراد اسرته بشؤون الحجاج وخدمتهم منذ وصولهم الى جدة حتـى عودتهـم وان كـل مطوف يختص بخدمة نوع من الحجاج فهناك مطوفون للعراقيين ، واخرون للمصريين ، وغيرهم لاهل الشام وايضا للاتراك ، والجاوه ، والهنود وغير ذلك · ويقوم المطوف باستضافة حجاجه وخدمتهم واخذهم الى الحرم الشريف والمشاعر المقدسة حتى يـؤدوا مناسكهـم على احسن وجـه · ثم يستطرق الى الخدمات الاخـرى مثل البـاعة والصرافين واصحاب البيوت والشقق الذين يؤجرونها باثاثها خلال موسم الحج والمواسم الدينية الاخرى ·

كما انه يتحدث عن الاحداث التي حدثت في مكة خلال اقامته هناك وعن اشكال المنازل بمكـة والحالـة الصحية بها ، واماكن الزيارة بمكة ·

٢ ـ **الحياة العائلية وبناء الاسرة :** ويشمل ذلك مراسيم الزواج من خطبه ومهر ومكانة المرأة في الحجاز، وكذلك يتحدث عن مراسيم اخرى كالمتبعة في حالات التسمية والختانة وما شابه ذلك من اعيـاد واحتفالات دينية وكذلك في ايام الحزن ودفن الميت وغير ذلك ·

٣ ـ **العلوم والثقافة في المدينة المقدسة :** وفي هذا الفصل الذي يزيد على الخمسين صفحة يتحدث الكاتب عن الكتاتيب وطرق التدريس فيها وخاصة تدريس القرآن الكريم كما انه يقدم دراسة ممتازة عن تاريخ العلوم الاسلامية والعربية والعلوم الاخرى التي كانت تدرس في المسجد الحرام بمكة ونظام التدريس في الحرم المكـ الشريف ومركز شيخ العلماء وغيره مـن العلماء والمواطنين ومقدار الاعانات المخصصة لهم من الدولة الـ كما انه يتحدث عن المدارس وغيرهـا مـن المؤسسات العلمية المختلفة فهو يقول ان الدراسة في المسـ

تتم على شكل حلقات تعقد بعد كل صلاة وكانت الدولة العثمانية تصرف مرتبات سنوية للعلماء الذين يقومون بالتدريس في هذه الحلقات وهم في الغالب من اهل الحجاز وبينهم ائمـة من المغاربـة والهنود والجاوه والبخارية ومن البلاد الخاضعة للدولة العثمانية ويورد هنا معلومات وافية عن حلقات التدريس وطلبتها ، والعلوم التي تدرس فيهـا واوقـات كل منها بالتحديـد والقواعـد والتنظيمات المرعية فيها وغير ذلك مما لا يمكن ايراده بالتفصيل في هذا المجال ٠

٤ ـ **السكان في مكة :** وفي هذا الفصل يتحدث باسهاب عن السكان واجناسهم ، وقد طبع المجلد الاول في عام ١٨٨٨ والثاني في عام ١٨٨٩ ٠ ويحتوي الكتاب على ستة ملاحق ضمن خمسة منها في المجلد الاول وقد كتبت باللغة العربية مع ترجمة لاربعة منها باللغة الالمانية وهي ملاحق مهمة تمثل وثائق تاريخية اوليـة عـن تاريخ المنطقة استمدها الكاتب من تقارير الدولة وكتابات نادرة من ذلك العهد ٠ اما الملحق السادس والذي يوجد في المجلد الثاني فيشمل على اناشيد شعبية اعتاد ان يرددها سكان مكة في مناسباتهم المتعددة وخاصة في مناسبة الزواج ٠ ويوجد ايضا في نهاية المجلد الثاني خريطة لمكة اخذها عن بركهارت ٠

ولكنه وضع بعض التصحيحات عليها وكذلك خريطة للمسجد الحرام في تلك الفترة ٠

اما الترجمة للمجلد الثاني فتحتوي ايضا على فهرس كامل للاعلام والاماكن المشهورة التي وردت في ذلك المجلد والتي هي من مجهودات المترجم ٠ كما انه يشمل على مجموعة ممتازة من الصور الفتوغرافية عن مباني مكة والمسجد الحرام واعيان مكة وبعض ما يستخدمه السكان في مكة في حياتهم اليومية وكذلك صور الحجاج٠

ثانيا : كتاب الامثال والحكم في الحجاز :

وهذا الكتاب هو كما ذكرنا اعلاه احد المجلدات الستة التي كانت عبارة عن مقالات وابحاث كتبها سنوك هورغروني عن الاسلام والشعوب العربية والاسلامية ويعتبر هذا الكتاب دراسة جيدة للامثال واللهجات في منطقة الحجاز عامة وفي مكة خاصة على انه لا يخلو من تحامل في كثير من الاحيان ٠ وقد طبع هذا الكتاب في ليدن ضمن السلسلة التي ذكرناها اعلاه وذلـك عـام ١٩٢٥م ٠

من هذا يتضح للقارىء الكريم ان في كتابي سنوك هورغروني هذين دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية لمكة المكرمة كما ان ما كتبه عن الناحية الثقافية في مكة المكرمة يعتبر فريدا في نوعه حيث انه اظهر ان المسجد الحرام كان بمثابة الجامعة يفد اليها المسلمون من كل حدب وصوب لتعلم الدين الاسلامي واللغة العربية على ايـدى علماء افاضل كان لهم الفضل في المحافظة على مكانة مكة المكرمـة كمركز اشعـاع تشع منـه مختلف الدراسات الاسلامية والعربية الى كافة انحاء المعمورة ، كما انه على الرغم من ان كثيرا من الكتب التي كتبها عـدد من الكتاب المستشرقين وغيرهم قد ترجم معظمها الى اللغة العربية وخاصة خلال السنوات العشرين الماضية ممـا مكن كثيرين من الكتاب من الاستفادة منها (١) ٠٠ حيث ان كتاب سنوك هورغروني عن تاريخ مكة بالذات قد ترجم الجزء الثاني منه الى اللغة الانجليزية وحبذا لو ترجم في المستقبل القريب الى اللغة العربية لان هـذه الترجمة سوف تعطي دراسة مفيدة لتاريخ المنطقة في تلك الفترة وخاصة ما يتعلق منها بالناحية الثقافية في مكـة المكرمة ٠ على انه يجب ان نضع في الاعتبار اننا عندما ندرس هذا الكتاب فانه لا يخلو من الدس على الاسلام وعدم فهمه الفهم الصحيح والعميق ويجب ايضا ان نكون حذرين في قبول كل ما يسجله لنا من معلومات عـن منطقة الحجاز في كتابه آنف الذكر واعتقد ان هذا هو واجب المؤرخ كما هذا لا يمنع تماما مـن دراسة الكتـاب واعتباره من المصادر التي كتبت عن هذه المنطقة ومحاولة تصحيح ما لا يتفق مع الحقيقة او ما سجل عن غير فهم لان رسالة ندوة تاريخ الجزيرة العربية رسالة عظيمة تهدف الى تقديم دراسة سليمـة وصحيحة عـن تاريخ الجزيرة العربية كموطن للعروبة ومنبع لرسالة الاسلام الخالدة ٠

(١) لمعرفة عدد الكتب المترجمة للغة العربية من مختلف اللغات أنظر
Index Translationum pub. by UNESCO (Paris)

وصدر من هذا الكتاب أكثر من ٢٤ مجلدا حتى الان ٠

دراسة لمخطوطة عن اليمن لمؤلف مجهول

محمد بن علي الأكوع

« هذا الكتاب تاريخ اليمن في الكوامن والفتن وملوك حمير وفي رجال الحديث من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن وفد الى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من اهل اليمن ومن خرج من العمال وما جرى في اليمن الى القرن الخامس من الهجرة المحمدية صلى الله عليه وآله وصحابته الطاهرين اجمعين آمين » ٠

وصف المخطوطة :

والكتاب يقع في مجلد ضخم يحتوي على ١٧٥ خمس وسبعين ومائة لوحة بالتصوير الشمسى وكل لوحة تشتمل على صفحتين فمجموع الصفحات ٣٧٦* ثلثمائة وستة وخمسون صفحة* عدد سطور كل صفحة بين واحد وثلاثين الى خمسة وثلاثين سطرا ، عدد كلمات السطر يتراوح بين اثنتي عشرة الى اربع عشرة كلمة٠

وخط الكتاب متفاوت فالعنوان والمقدمة التي عدد صفحاتها اثنتا عشرة صفحة بينما باقي خط الكتاب الى نهايته مخالف لذلك ويمتاز بالجودة والرونق الا انه مهمل الحروف غير منقوط في الغالب فقرائته محتاجة الى عناء معن واذا مارس قراءته اي انسان وعرف قاعدة الخط تسنى له فهمه وقراءته بسهولة بينما بعض الصفحات قد اصابها البلل ٠

تاريخه :

ليس فيه تاريخ لنقله ونساخته وانما هنالك تاريخ لمقابلته على اصله وذلك سنة ٦٢٢ اثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة ولا يبعد ان الناسخ هو المقابل لهاذ الخط واحد ٠ وهذا فيما يخص القسم الاول اما القسم الثاني الذي يبتدىء من لوحة ٩٣ الى نهايته وهو بالقلم المعتاد السالف الذكر فليس فيه تاريخ وانما قال فيه كاتبه : «بلغت قصاصة ضعيفة على نسخة ضعيفة» ،وفي الهامش بقلم مخالف لما في الاصل مفاده ان مالك الكتاب اعاره للامام شرف الدين في شهر رجب سنة ٩٢٧ تسع مائة وسبع وعشرين سنة من الهجرة ٠

اما وصف محتويات الكتاب وهو الاهم فانه يقدم لنا مأدبة دسمة وشهية للآكلين من المعلومات العزيزة الغزيرة ٠ فبعد ان يتكلم بالمقدمة عن جغرافية اليمن وحدودها كاملة من كل جهاتها يذكر امهات مدنها وموانيها ويتعرض لانسابها ويقرر الحق في نصابه ثم سرد ملوك حمير ومدد ملكهم واعمارهم على ما هو عند مؤرخي العرب ٠

وهو بالدرجة الاولى يحرص كل الحرص ان يسوق القصة والاخبار بالتحديث وتسلسل الرواية على طريقة المحدثين وعلى غرار تاريخ المؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبري رحمه الله ، وانقل لكم نصا من ذلك على سبيل المثال ففي ترجمة معاذ بن جبل الانصاري رضى الله عنه يقول : حدثني القاضى الحسين بن محمد قال اخبرني ابو الخير محمد بن احمد بن محمد الهمداني عن عبد الله بن موسى عن اسرائيل عن ابي اسحاق عن ابي وهب الهمداني وعن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذا الى اليمن فقال له : اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ٠

كما اهتم بكثير بسرد عهود رسول الله صلى اللهعليه وسلم لامرائه ومراسلته لاهل اليمن، وبذكر ٠ بحيث ان هذه من مميزات هذا التاريخ اذ ان بعضها لا توجد في الكتب التي قد ظهرت في عالم المطبوع[1] نص من النصوص ليدل البعض على الكل ٠

---

* كذا بالاصل وينبغي ان يكون مجموع الصفحات ١٧٥ × ٢ = ٣٥٠ صفحة (المحرر)

حدثني القاضيان سليمان بـن محمـد النقوي والحسين بن محمد البوسى قالا : حدثنا القاضى عبد الاعلى قال حدثني الديري عن عبد الرزاق بن همام قال حدثني معمر قال اعطاني سماك بن الفضل الشهابي كتابا من النبي صلى الله عليه وسلـم الـى مالـك بن كلاس والمصبعين فقرأته فـاذا فيه فيما تسقي الانهـار والسماء العشر وفيما يسقي بالمسنى نصف العشر ٠

ومن الجدير بالذكر والذي راعاه المؤرخ انه دوّن كل رسائل الخلفاء الراشدين لعمال اليمـن والمراسم التي اعطوها لامراء الجيوش التي يتحدث فيها عن سياسة الخليفة والمنهج الذي ينبغي ان يسيرعليه ذلك العامل او القائد وهي كثيرة ومن ذلك ما كتبه الخليفة الاول ابوبكر الصديق رضى الله عنه الى اهل صنعاء بعد انتفاضهم على عمال النبي صلى الله عليه وسلم وورد اهل صنعاء على ابي بكر وهذا الكتاب يعتبر من مفردات هذا التاريخ الذي لم نطلع عليه في غيره ولولا ضيق الوقت وخوف الملل لاطرفتكم بايراده ٠

ومن شدة حرص هذا المؤرخ على تسجيل كل ما وصل اليه انه سجل عهود الدولتين الاموية والعباسية وان كان الكثير قد ضلت في الاوراق المتساقطة وما ابقت لنا الايام الا بضع وثائق منها وثيقة من مروان بن محمد ابن مروان الاموي فيما يجري لقضاة اليمن من الرزق شهريا اتلوها عليكم على سبيل المثال وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان احق ما تعهد به امير المؤمنين وتفقده ورجا الفضل على يديه وغايته التوسع على ولاة حكام المسلمين واعوانهم وكفهم بذلك عن ما تنازعهم اهوائهم ٠

وقد اجرى عليك امير المؤمنين من الرزق في كل شهر ثلثمائة درهم وعلى عشرة نفر ممن احببت من اهل بيتك واستعنت به على عملك خمسين درهما في كل شهر ورجاء امير المؤمنين ان يكون في ذلك كفاية لك ولهـم وورعا عن غيرها مما هو افضل لكمفي عاجل امره وآجله ، وكتب الى عامله ان يدفع اليكمعند محله ولا يراجع امير المؤمنين في شيء منه فعليك بتقوى الله فيما اسند اليك ووثق فيه من الحكومة في دمـاء المسلمـين وحقوقهـم واحمل عوائدهم وما تستعين بهم منهم على مثل ما عليه حالك في الصحة والنزاهة والورع والاستعانة والكينونة وذلك عند ما يحق عليك واعلم ان امير المؤمنين غير تارك لعهدك واعوانك بما انتم اهلـه من صلته ومعروفـه والافضال عليكم بذلك واغناكم بما سواه انشاء * الله ٠

كما سرد الكثير من عهود الخلفاء العباسية الى عمالهم وامرائهم باليمنوبصفة مطولة لا نستطيع ايرادها بكمالها ولا الاقتصار على البعض منهـا خوف السآمة والملل ٠

ومن براعة ملاحظته ودقة ادراكاته انه اورد عدة نصوص لكتابـة الشروط اي العقود الشرعيـة كالبيع والشراء للعقارات والدور وغيرها وعقود الايجار والمزارعات والاوقاف والوصايات وما يتبع ذلـك وهـي بحق توضح لنـا طرق المعامـلات الشرعيـة لتلـك العصور السحيقة من اواخر القرن الثالث الهجري ٠

واغرب من كل ذلك انه رسم سجلا كاملا فيه نص للمتحاكمين في حانوت بصنعاء وما تبع ذلك من نقض وابرام وان محاكم الاستئناف قديمة فهو صورة صادقة لما تسلسل الينـا من القـرون الخالية من القضايـا الشخصية والحالة الاجتماعية ٠

وترجم لكثير من الصحابة والتابعين وتابعيهم واسهب في تراجم شخصيات بـارزة لها ثقلها التاريخـي ذكر عمال النبي صلى الله عليه وسلم وعمال خلفائه الراشدين والامـويين والعبـاسيين لليمن ومـدد اقامتهـم يد دخولهم وعزلهم وما قاموا به من اعمال وما نتج من احداث ٠

كر مساجد صنعاء وما اوقف عليها من عقارات وارضين محددا كلقطعة بحدودها الاربعة حتى تمتازعن ، للصنائع اليدوية وذكر الطراز الذي كان يعمل للخلفاء وكبار الجيش من وشى صنعاء مما دل ان ة والنسيج للبرود اليمانية لا زالت الى عهد الدولة العباسية ٠

(المحرر)

المطهر بن محمد الجرموزي
ومؤلفاته عن الدولة القاسمية

عبد الله بن حامد الحبيد

ولد المطهر بن محمد الجرموزي في جمادي الاخرة سنة ١٠٠٣ هـ ، وتوفي في ذي الحجة ١٠٧٧ هـ (١) . ويبدو ان مطولات التراجم اليمنية قد اغفلته ، فهو لم يظهر في « مطلع البدور ومجمع البحور » لصديقه القاضى احمد بن صالح بن ابي الرجال ، واظن ان الاخير لم يترجم الا للذين تفقهوا في مذهب الزيدية ، هذا بالرغم من ان صفة « العلامة » للجرموزي قد ظهرت بعد العنوان في كتابه « الجوهرة المضيئة » . كما ان محمدا بن على الشوكاني لم يترجم له في كتابه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، وانما هناك تعليق لنسابة اليمن ومؤرخها السيد محمد بن محمد زبارة في هامش « البدر الطالع » ج ٢ ص ١٨٣ توضيحا لما كتبه الشوكاني عن ابن المطهر الجرموزي (جعفر) مرددا ما قاله المؤرخ المعاصر للمطهر الجرموزي يحيى بن الحسين ابن القاسم في تاريخه « بهجة الزمن » ، من ان المطهر كان متوليا لبلاد عتمة من اول دولة الامام المؤيد بالله محمد ابن القاسم من عند فتحه لها ، واستمر المذكور متوليا لها الى تاريخ وفاته في السادس من ذي الحجة ١٠٧٦هـ (٢) .

غير ان هناك ترجمة قصيرة للمطهر الجرموزي اوردها محمد المحبي في الجزء الرابع من كتابه « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » ص ٤٠٦ ، نقلا عن القاضى حسين المهلا ، وجاءت ان هذه الترجمة في كتاب الاخير بعنوان « النفحة » ، حيث ذكر ان المطهر الجرموزي كان من اعيان الدهر وافراد العصر علما وعملا ، ونباهة وفضلا ، كما ذكر ان له تاريخا جمع فيه احوال الائمة الثلاثة : الامام القاسم وولديه محمد المؤيد واسماعيل المتوكل وذكر فيه كثيرا من وقائعهم ، وسيرهم واحوالهم ومكاتباتهم . وقد اتت معرفة المهلا للجرموزي من ان الاخير كان صديقا لوالده ، ودارت بينهما مراسلات ، كما ان المترجم كان صديقا لاولاد المطهر ، ولذلك فقد ترجم لهم في كتابه « النفحة » كأدباء (٣) .

غير ان المتتبع لمؤلف الجرموزي الثاني « الجوهرة المضيئة » ، وهو سيرة الامام المؤيد محمد بن القاسم ، يجد انه ذكر كثيرا عن نفسه كمستشار للامام المؤيد وكحاكم لاقليم عتمه . كما نجده يتحدث عن نفسه في مؤلفه الثالث « سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم » كمتصل بالامام فهو يقول : وفي العام المذكور اراد الامام عليه السلام كما اخبرني بذلك مكاتبة وشفاها ، للتقدم الى محروس شهاره لموجبات اعظم واعمقها معاهدة تلك المعاهد المحروسة والمحال المأنوسة (٤) .

قيام الدولة القاسمية :

بعد قتل السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) على يد السلطان سليم الاول العثماني ، اصبح الاخير وريثا لممتلكات دولة المماليك الجراكسة ، ولذلك فقد اتجهت انظاره نحو اليمن لان القوات المملوكية كانت تحتله في ذلك الوقت منذ سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥م) حين ارسلت اليه حملة تحت قيادة حسين الكردي قائد الاسطول المملوكي ، وقد استطاع العثمانيون القضاء على بقية الجراكسة سنة ٩٤٥ (١٥٣٨م) بعد ان تمكن سليمان الخادم من قتل الناخوذة احمد اخر حاكم جركسى اثناء حفل اقيم للا[illegible] مدينة المخا (٥) .

وبعد القضاء على الجراكسة في اليمن دخل العثمانيون في حرب شديدة مع الامام شرف[illegible] ابنه المطهر الى ان تمكن العثمانيون من القضاء على حكم الائمة الزيدية سنة ٩٩٤ هـ (١٥٨٥ القبض على اولاد الامام المطهر وارسالهم الى القسطنطينية ليكونوا تحت مراقبة السلاطين هنا[illegible]

المطهر بن محمد الجرموزي ومؤلفاته عن الدولة القاسمية

وقد ظن الاتراك العثمانيون ان القبض على زعماء الزيدية في اليمن قد انهى المشكلة ، وان احتلالهم لهذا القطر العربي سيدوم طويلا ، غير انه لم يدر بخلدهم انه سيظهر ائمة اخرون على مسرح المقاومة ، فكان اولهم الامام المنصور القاسم بن محمد بن علي (٩٦٧ هـ – ١٠٢٩ هـ) الذي اقترنت باسمه الدولة القاسمية التي قامت سنة ١٠٠٦ هـ ، وذلك حينما قام بثورته ضد الاتراك العثمانيين في ذلك التاريخ ، تلك الثورة التي استمرت الى سنة ١٠٢٨ هـ وبعدها عقد معهم هدنة .

واستمرت هذه الهدنة لمدة سنة فقط في حياته توفى بعدها في سنة ١٠٢٩هـ ، فتولى ابنه الامام المؤيد محمد بن القاسم (٩٩٠هـ – ١٠٥٤هـ) الامامة ، الا أن الهدنة انتقضت في سنة ١٠٣٦هـ حينما قتل الاتراك في صنعاء أحد قضاته ظنا منهم ان كان يقوم بالدعاية للامام في هذه المدينة التي كانت تقع تحت سيطرتهم ، فقام الامام بثورة عارمة ضدهم ، معتمدا في ذلك على مساعدة اخوانه والقبائل الزيديه الشديدة البأس ، وتمكن من طردهم سنة ١٠٤٥هـ .

أما الامام الثالث في الدولة القاسمية والذي سنتعرض له هنا ، فهو المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ – ١٠٨٧هـ) ، وهو أحد عظمائها ، كان عالما بأصول مذهب الزيدية وفروعه ، ولم تقف علومه عند مذهب الزيدية وانما تعداه فأخذ يقرأ كتب الحديث التي رويت عن طريق أهل السنة ، وله عدة مؤلفات توجد في مكتبة الحكومة الالمانية في برلين ومكتبة الامبروزيانا في ميلان في ايطاليا ، وقد اقترن اسمه بتوسعه في اليمن الجنوبي كما سنبين ذلك فيما يأتي .

المطهر الجرموزي يؤلف ثلاث سير لحياة الأئمة الثلاثة ومحتوياتها :

تعرض كثير من المؤرخين اليمنيين لتاريخ الدولة القاسمية وأخبارها وما وقع فيها من الاحداث ، وخاصة في فترة حكم هؤلاء الأئمة الثلاثة العظماء السالفي الذكر . ومن بين هؤلاء المؤرخين السيد المطهر بن محمد الجرموزي الذي أفرد لكل واحد منهم مؤلفا خاصا دّون فيه أخبار الامام المترجم له ، وما حدث في اليمن في عصره .

وأول هذه المؤلفات هو « النبذة المشيرة الى جمل من عيون السيرة في أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد بن علي » . وهذه النسخة توجد في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٥٤٠٣٣٢٩ O.R. وكان الدافع الى تأليف هذا الكتاب كما ذكر الجرموزي أنه قد سمع الكثير من أخبار هذا الامام الا أن النسيان قد أخذ على كثير منها ، ولذلك أخذ يدّون ما وصل اليهمن معلومات ثم وضعها في هذا الكتاب .

بدأ المؤلف بمقدمة للموضوعات التي سيكتبعنها ، ثم تطرق الى نسب الامام الى أن أوصله الى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ونشأته وخصائصه وصفاته الاخرى : كالشجاعة والعلم والورع والصبر .

كما تضمن هذا المؤلف العديد من الرسائل التي أرسلها الامام الى الافراد والمجموعات أو الاجابة عليها ، العهود ، وهي عبارة عن تعيينات لأشخاص مهمتهم تولى الحكم في بعض الاقاليم من قبل الامام . سائل والعهود نجد آراء الامام القاسم السياسية في أن أمور الحكم لا تكون الا في أهل البيت ، احدى معتقدات الزيدية ، اذ انه من الواجب أن يكون الامام المتولي للسلطة منحدرا من حسين ابني علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه في أي مكان وأي زمان اذا شهر سيفه مثل ثورته ضد هشام ابن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ ، وأن يكون فقيها لأن زيدا بن علي كان

وبما أن للشعر أهمية كبرى في ذلك الوقت فقد دّون الجرموزي الكثـير من القصائد للامام نفسه ، ومن أخصها قصيدة ضد التصوف والصوفية ، وهي بعنوان « الكامل المتدارك لبيـان مذهب المتصوف الهـالك » ، وقد ردّ عليها السيد محمـد بن عبد الله بن الامام شرف الدين بأمر سنان باشا ، كما يوجد الكثير من قصائد المدح وخاصة بعد الانتصارات ، أو قصائد الرثاء بعد الهزائم أو موت احد المقربين من الامام كأبنـه علي وعمه عامر بن علي اللذين قتلهما الاتراك ، وقد سلخوا جلد عامر وحشوه تبنا ليتألم الامـام القـاسم نفسيا من هـذا العمل ومن ثم تصبح هزيمته عسكريا سهلة ، ويوجد أيضا كثير من قصائد الرثاء في الامام القاسم الذي مات سنة ١٠٢٩هـ ٠

وقد ترجم الجرموزي في هذا المؤلف لأربع طبقـات من الرجال : هم علمـاء عصر الامـام من أهل البيت وهم طبقتان : الاولى الذين أيدوه ومن هو في عصره ، والطبقة الثانية منهم الذين تفقهوا في أيام خلافته ولحقوا [illegible] طريقته ، وأما الطبقتان الاخريان فهم أكابر شيعة الامام : الاولى الذين ايدوه في عصره

وأخذت أخبار ثورة الامام القاسم الجزء الاكبر من هذا المؤلف حيث يوجد تفصيل شامل لمقدمات الثورة وأحداثها الى عقد الهدنة سنة ١٠٢٨هـ ، وكانت هذه الثورة على أربع فترات : الاولى من بدء دعوة الامـام الى خروجه من شهاره الى برط ، والثانية من خروجه من برط الى انعقاد الصلح بينـه وبين سنان باشا ثم جعفـر باشا ، والثالثة من خروجه على جعفر باشا بعد موت ابراهيـم باشا ، والرابعة عن خروجـه على محمد باشا ثم الهدنة سنة ١٠٢٨هـ ٠

ولم يغفل الجرموزي عن ذكر اصلاحات الامام القاسم من بناء المدارس والمساجد ، أو اصلاح الوديان وشق القنوات لتجري فيها المياه المستخرجه من الينابيع ٠

اعتمد الجرموزي في مؤلفه هذا على كتـابات من سبقه من المؤلفين عن الامام القاسم ، كالسيد احمد بن محمد الشرفي في الجزء الثالث من كتابه « اللآلىء المضيئة في أخبار أئمة الزيـدية » (٧) وقد كـان الشرفي أحد حكام الاقاليم في اليمن من قبل الامام ٠ كما اشترك معه في الثورة ضد الاتراك ٠ وكذلك اعتمد الجرموزي أيضا على ما كتبه السيد عيسي بن لطف الله وأظنه في كتـابه « روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » (٨) ، فنجده كثيرا ما يقول : وذكر السيد العلامة أحمد بن محمد الشرفي أو قال السيد عيسى بن لطف الله ٠ ولتجميع المعلومات لهذا الكتاب اتصل أيضا بالكثـير من الرجال الـذين كانوا يشاهـدون الوقائع كوالده والامام المؤيد محمد بن القاسم وغيرهم من القـادة العسكريين أو الذين عاشوا مع الامام ، فهـو مثـلا يقول : « واخبرني والـدي » أو « لنـرجع الى روايـة الشيخ ناصر بن عبد الملك » ، وهو قد يذكر للرواية عدة أشخاص أو يقول : ونقلت من رسائل الامام القاسم التي جمعها ابنه الامام المؤيد محمد ، وقـال في موضع آخر : وأما دعوته وحروبه وطرف من سيرته فمما أخبرني الثقة من جماعة من أصحابه ، أو وسمعت من القاضي العلامة شمس الدين أحمد بن سعد الدين في مجلس القراءة في الحضرة الشريفة الامامية حضرة الامام المؤيد بالله أنه بعد دخوله حدود العصيمات ٠٠٠

وقد ألف الجرموزي كتابه هذا بعد وفاة الامـــام بفترة طـويلة ، وكـان عمره في سنة الوفـاه في سنة ١٠٢٩ سبعا وعشرين سنة ، وفي آخر الكتاب دلالة على أن الفراغ من تأليفه كان في سنة ١٠٦٤هـ ٠

أما المؤلف الثاني للمطهر الجرموزي فهو « الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية » ، وهذه النسخة في مكتبة الحكومة الالمانية في برلين ، ضمن مجموعة جلازر رقم ١٤٧ ٠ ويبدو واضحا أنها مسودة المؤرخ نفسه لأنه يوجد فيها تقطع في ترتيب المعلومات ، واختلاف في الخطوط فلم تكن على نسق واحد ٠

المطهر بن محمد الجرموزي ومؤلفاته عن الدولة القاسمية

تولى الامام المؤيد محمد بن القاسم الامامه بعد وفاة أبيه سنة ١٠٢٩هـ . وأجمع العلماء من السادة والشيعة على مبايعته كما ذكر ذلك الجرموزي الذي كان حاضرا احتفالات تولي الحكم . وقد عقب على ذلك بقوله : « ولقد رأيت في تلك الايام عجبا » .

وقد تطرق الجرموزي الى صفات الامام المتعدده كالكرم والرفق بالناس ، والبعد عن قرناء السوء منذ صغره . وشجاعته ، وورعه وكرم أخلاقه ، وصبره ومروءته . ثم انتقل الى وصف حياته العلمية كطالب ومدرس في حياة والده واثناء امامته وأخيرا كمؤلف .

ويضم هذا المؤلف بين دفتيه كثيرا من القصائد التي قيلت في مختلف المناسبات . من مدح الامام أو مدح الابطال الذين انتصروا على اعداء الامام كالأتراك أو الخارجين عليه من غيرهم أو في رثاء أحد من البارزين من اقاربه وغيرهم .

وقد أخذت ثورة الامام المؤيد ضد الاتراك الجزء الاكبر من هذا المؤلف والتي استمرت من سنة ١٠٣٦هـ الى طردهم على يديه سنة ١٠٤٥هـ . وقد اعان الامام في حروبه هذه اخوته الحسن والحسين وأحمد واسماعيل تعضدهم القبائل الزيدية ، كما انه حوى الكثير من ثورات المغامرين في اليمن وعلى رأسها تلك الثورتين اللتين قام بهما أحمد بن الحسن بن القاسم والملقب في حضرموت « بسيل الليل » . ثم ثورة الامام المهدي أخيرا من سنة ١٠٨٧ الى سنة ١٠٩٢هـ . وكان الأخير ابن شقيق الامام . وقد غاضب عمه لعدم اعطائه مناطق نفوذ والده الحسن المتوفي سنة ١٠٤٨هـ . كما أن الجرموزي تطرق في هذا المؤلف أيضا الى الصراع الذي دار بين الامام المتوكل على الله اسماعيل وأخيه أحمد على تولي الامامة في اليمن بعد موت أخيهم الامام المؤيد محمد سنة ١٠٥٤هـ .

وقد تخلل الكتاب الكثير من رسائل الامام وعهوده المرسلة الى الاشخاص والجماعات في اليمن وخارجه . والتي ضمنها نصائحه وآراءه في سياسة الحكم .

وقد ترجم الجرموزي في مؤلفه هذا لست طبقات من الرجال ، وهم طبقتان من علماء أهل البيت : فالأولى التي عاصرت والده ثم عاصرت الامام المؤيد نفسه . والطبقة الثانية الذين تفقهوا في زمانه ثم والوه ، ثم طبقتان أخريان وهم الشيعة الذين تنطبق أوصافهم على ما في الطبقتين الاوليين . أما الطبقة الخامسة والتي ترجم لها الجرموزي فهم علماء الشافعية من القائلين بامامة المؤيد محمد ، وأخيرا ترجم للطبقة السادسة وهم الامراء الذين تولوا الحكم في المناطق المختلفة في اليمن أو الذين اشتركوا في القتال ضد الاتراك أو ضد الخارجين على سلطة الامام من المغامرين اليمنيين، ثم ختم هذا الكتاب بذكر أولاد وبنات الامام المؤيد محمد بن القاسم .

ويوجد الجزء الثاني من هذا المؤلف في مكتبة الامبروزيانا في ميلان تحت رقم ARABO ٧٣٠٥ A ١١٥ A بعنوان « الجزء الثاني من سيرة مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله ابن المنصور بالله». وقد ظهر هذا الجزء أكثر وضوحا وترتيبا من « الجوهرة المضيئة » ، غير أن المؤلف حذف منه طبقات الرجال الست الذين عاصروا الامام المؤيد والذين ذكرهم في « الجوهرة المضيئة » .

جمع المطهر الجرموزي مؤلفه هذا من ملاحظاته الشخصية . فقد كان أحد مستشاري الامام ومعاونيه ، والمتتبع للحوادث في هذا المؤلف يرى ذلك ، فهو في موضع مثلا يقول : « وفي هذا العام في شهر القعده أمرني وغيري ممن وجهه ـ كما بلغني ـ بالبقاء وان كمل العمل حتى يأتي رأيه الكريم » . كما ان المؤلف كان حاكما في اقليم عتمه ، فهو على اتصال بالامام أو برجال القصر ، فنراه يقول : « وأخبرني أن الامام أخبره » ، « وأخبرني أصحابه الذين معه » ، « وأخبرني مولانا الحسن » . وكان الاخير شقيق الامام والقائد العام لجيشه أثناء الثورة ضد الاتراك .

أما المؤلف الثالث الذي كتبه المطهر الجرموزي فظهر تحت عنوان « سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل ابن القاسم بن المنصور » . وهذه النسخة توجد في مكتبة الفاتيكان تحت رقم ٩٧١ وهي التي اعتمدنا عليها في دراستنا هذه . غير أنه لم يظهر هذا العنوان على الكتاب ، وربما وضع الاستاذ DELLA VIDA, G.L. هذا العنوان عندما أسند اليه تأليف فهرست المخطوطات الاسلامية الموجودة في مكتبه الفاتيكان في روما (٩) . وقد ظهر عنوان آخر لنفس الكتاب وهو « نزهة الاسماع والابصار بما في السيرة المتوكليه من الاخبار » . وهذه النسخة موجودة في مكتبة الشعب في المكلا في حضرموت (١٠) .

ويبدو أن نسخة الفاتيكان هي مسودة المؤلف غير أنه لا توجد ثغرات كثيرة ، كما أن الخط واضح ومتناسق . ولم تظهر هنا حياة الامام الاولى ولا فترة شبابه . ولا الكيفية التي وصل بها الى الحكم . ولربما اكتفى المؤلف بما دونه عنه في مؤلفه « الجوهرة المضيئة » ، حينما تطرق الى الصراع على الامامه بينه وبين أخيه أحمد ابن القاسم .

بدأ المؤلف سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم (١٠٥٤هـ - ١٠٨٧هـ) بتوسعات الاخير في الحدود الشرقية لليمن (اليمن الجنوبي حاليا) فقوى من قبضته على لحج وعدن سنة ١٠٥٥هـ ، وكان الامير عبد القادر حاكم أبين قد استولى على المنطقتين بعد طرده الأتراك باسم الامام المؤيد محمد بن القاسم سنة ١٠٣٦هـ . وبقيت سيطرة الاخير اسميه الى ان انتزعها الامام المتوكل على الله اسماعيل في التاريخ السابق من الامير حسين بن عبد القادر . ولم يقف الامام عند هذا الحد وانما انتزع منه مقاطعة ابين فأصبح الامير طريدا شريدا بدون مأوى .

وبعد هذا الاستيلاء أخذ الامام ومستشاروه في اليمن يراقبون الفرصة المؤاتية لاحتلال بقية اجزاء اليمن الجنوبي . وقد حانت تلك الفرصة سنة ١٠٦٥هـ عندما تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن بن القاسم (سيل الليل) من هزيمة احزاب اليمن الجنوبي في نجد السلف بقيادة حسين الرصاص ، ونتيجة لهذه الهزيمة فقد خضع اقليم يافع ، وأرض الرصاص . وأرض الفضلي والواحدة للامام ، وما ان أتت سنة ١٠٧٠هـ حتى تمكن الجيش اليمني بقيادة أحمد بن الحسن أيضا من احتلال حضرموت . ثم في سنة ١٠٧٧هـ خضع اقليم ظفار لحكم الامام في اليمن بعد ان تمكنت قواته من طرد حاكمه الكثيري .

وتطرق الجرموزي لكل الثورات التي قامت ضد الامام المتوكل على الله منأهالي اليمن الجنوبي بعداحتلال الجيش اليمني لمناطقهم ، والثورات المحلية في اليمن التي قام بها ضد الامام بعض المغامرين ، ومن بينهم من كان يرسل للامام الرسائل العلمية منتقدا سياسته في الحكم وقد دونها الجرموزي في مؤلفه هذا .

ويعتبر هذا المؤلف سجلا حافلا لاعمال الامام الاصلاحية وتحركاته داخل اليمن ، كما ضم الكثير من رسائله وعهوده التي أرسلها الى كثير من الافراد والحكام داخل وخارج اليمن ، ومن بينها عهد طريف ثبت فيه الامام حكم أحد سلاطين الهند المسلمين ، ويدعى محمد اوزبك . كما دونت كثير من القصائد التي قيلت في مدح الامام أو في بعض المناسبات .

وتعرض الجرموزي لذكر بعض الرحالة والعلماء الذين وفدوا على الامام في اليمن ، ومن بينهم من زار الهند واندونيسيا والقسطنطينيه ، وقد دون أحدهم نظام التعليم في الدولة العثمانية ، كما دون أيضا الرحلة التي قام بها القاضي الحسن بن أحمد الحيمي من المخا الى غندار عاصمة الملك فاسلداس ملك الحبشة سنة ١٠٥٦هـ والذي ظن الامام أنه سيعتنق الاسلام فأرسل له الحيمي يتلمس ذلك ، ولكن تبين أخيرا انه يريد أن يقيم علاقات تجارية مع اليمن وخاصة بعد ان قطع صلته بأوربا بعد طرد المسيحيين الكاثوليك من الحبشة .

كما دون الجرموزي ارتفاع الاسعار و ظهور بعض الآفات ، فهو يذكر أن ريحا شديدة هبت على ذمار سنة ١٠٥٦هـ وتساقطت النجوم سنة ١٠٦٠هـ ، كما ظهرت الجرذان بكثرة في أماكن متعددة سنة ١٠٦٨هـ مما تسبب عنها أكل المحاصيل الزراعية ، ونزول صاعقة على شهاره سنة ١٠٦٩هـ ، وظهور الجراد سنة ١٠٧٠هـ ٠

اعتمد الجرموزي في تأليف هذا الكتاب على مشاهداته الخاصة ، واتصالاته بالامام كحاكم لاقليم عتمه وبرجال القصر والقادة العسكريين الذين كانوا يرسلون تقاريرهم أولا بأول عن نتائج المعارك . وباتصاله شخصيا بالذين شهدوا الحوادث . فهو يقول مثلا : « من ذلك ما أخبرني به القاضي العلامة شمس الدين وخلف السلف الراشدين احمد بن صالح بن أبي الرجال أطال الله بقاه » وكان أحد قضاة الامام المتصلين به على الدوام فهو يعرف الشيء الكثير مما يدور داخل الدولة ٠ وقال في موضع آخر : « قال القاضي شمس الاسلام أحمد ابن صالح بن ابي الرجال أيده الله فيما كتبه التى أنه حصل مع الامام السرور وظهور النعمة بوصول مولانا الصفي» (أي أحمد بن الحسن) » ، الا انه قد اعتمد أيضا في تدوين بعض المعلومات على عامة الناس فاستحق أن يطلق عليه المثل القائل «حاطب ليل » ، فهو مثلا يذكر أن الامام المؤيد محمد بن القاسم سنة ١٠٤٠هـ (أو سنة ١٠٤١هـ) قد أرسل البهال الاسدى الى سلطان حضرموت ، وقد وصف الجرموزي هذا الرسول بأنه من حذاق العوام. (١١) فدون عنه كلاما سخيفا عن العلامة الحسين بن أبي بكر بن سالم – عميد أسرة آل أبي بكر ابن سالم في مدينة عينات – عندما زاروه في منزله في التاريخ السالف الذكر ، وقد تولى هذا العميد خطة مقاومة توسعات الزيدية في اليمن الجنوبي مما حدا بالمطهر الجرموزي الى ان يركز هجومه عليه في مؤلفاته ٠

واذا ألقينا نظرة على مؤلفات المطهر الجرموزي نجد أن التعصب للأئمة الزيدية واتباعهم واضح كل الوضوح وقد علل ذلك قائلا : « والله ولي العفو عن المقصرين في حقوق الأئمة الهادين ، نسأله القيام بحقه (أي الامام الذي يكتب عنه) وحقوقهم (أي الأئمة الآخرون) » ٠ وعلل أيضا قائلا : « فالعقيدة صحيحة والحمد لله والمحبة للحق وأهله صريحه » ، ويعني هنا بأهل الحق هم الأئمة وأتباعهم من الزيدية ٠

ونتيجة لهذا التعصب الأعمى فانه أخذ يكيل اللعن والشتم لمن قام ضد الامام من غير الزيدية ، فهو قد حمل على الاتراك حملة شعواء فلم تكن هناك مثلبة الا وذكرها ، وكلما ذكر قائدا منهم قال : « لعنه الله ان كان حيا ، ولا رحمه الله ان كان قد مات » ، كما تهجم على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري آخر سلاطين الدولة الطاهرية بقوله : « الناصبى لعنه الله » ٠ وكان هذا السلطان قد توسع في اليمن على حساب الائمة مما حدا بالمطهر الجرموزي الى أن يلعنه حتى ولو كان تحت الثـري ٠

ولنرى الآن ما ذكره النهر والي في كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني ص٣٠ » عن هذا السلطان مرددا ما رثي به علامة اليمن ومسندها ومحدثها [illegible]

فما صلاح فيه بعد صلاحه ولا عامر والله بعد عامر

وقد عقب النهروالى قائلا : « وفيه مراث كثيرة . واستمر يـرثى بعد تطاول زمان وفاتـه أيضا ، بحيث أنني سمعت بعد سنة أربعين وتسعمائة (أي بعد أكثر من مرور عشرين عاما على وفاته) وأهل اليمن ينعونه بمراث جعلوا لها طرائق يغنون بها » .

الهـــوامـــــش

١ ـ المحبى ، محمد أمين : خلاصة الاثر في اعيان القـرن الحادى عشر ، حـ ٤ ص ٤٠٦ ، بيروت ٠

٢ ـ الشوكانى ، محمد بن علي : البدر الطالـع بمحاسن من بعد القرن السابع. حـ١ ص ١٨٣، القاهرة ١٣٤٨هـ
يوجد هنا فرق سنه في حياة الجرموزى فيما دونه المهلا ويحى بن الحسن

٣ ـ المحبى ، محمد امين : خلاصة الاثر ، حـ ٤ ص ٤٠٦٠

٤ ـ الجرموزي، المطهر بن محمد : سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل ورقة رقم ٢٦٣

٥ ـ النهروالى ، قطـب الدين البرق اليمانى في الفتـح العثماني ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، الرياض ، ص٨٥ ٠

٦ ـ يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الامانى في أخبار القطر أليمانى ، ألقسم الثانى ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
القاهـــــرة ، ص ٧٦٤ ٠

٧ ـ توجد نسخة من الجزء الثالث من « اللالىء المضيئة » للشرفي في مكتبة امبروزبانا في ميلان تحت رقم
C 101 ARABO

٨ ـ توجد نسخة من « روح الروح » لعيسى بن لطف الله في مكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ٤٥٨٣ ٠
OR 4083

(٩)

Della Vida, G.L., *Elenco dei Manoscritti Arabi Islamici della Biblioteca Vaticana* (Rome, 1935).

١٠ ـ الجشى ، عبد الاله محمد : فهرســت المخطــوطات اليمنية في حضرموت ، المحافظة الخامسة ، عدن ، ١٩٧٥

١١ ـ الجرموزى ، المطهر بن محمد : سيرة المؤيد محمد بن القاسم حـ ٢ ص ٣٢ أ ، ص ٣٢ ب ٠ سيرة المتوكل على الله اسماعيل ص ٢١ أ ـ ص ٢١ ب ٠

مصادر التاريخ المحلي لاقليم عمان

فاروق عمــر فوزي

تمهيد :

من المعلوم ان كتب التاريخ الحولي العام للاسلام كتاريخ الطبري واليعقوبي وابن الاثير وغيرهم ، ركزوا اهتماماتهم على الاقاليم المركزية كالعراق والشام ولم يكترثوا كثيرا بمجريات الاحداث وتقلباتها في الاقاليم الاخرى البعيدة عن المركز ، وهنا تأتي اهمية التواريخ المحلية للاقاليم حيث فصل في الحوادث والحركات التي تعرض لها هذا الاقليم او ذاك (١)

ولكن صعوبات عديدة تجابه الباحث في التواريخ المحلية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

قلتها فلم تكن كل الاقاليم او المدن الاسلامية محظوظة بحيث تيسر لتاريخها ان يكتب على يد احد ابنائها والساكنين فيها • ثم ان هذه التواريخ على ندرتها لا تزال غير منشورة بل مخطوطة ومبعثرة في مكتبات متفرقة يصعب على الباحث جمعها • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان لكتب التاريخ المحلي مناهج متنوعة فبعضها على شكل كتب التراجم وبعضها سير والاخرى طبقات حيث تأتي المعلومات التاريخية متناثرة بين هذه التراجم والسير وتحتاج الى جهد وصبر من اجل جمعها • ومع ان كتب التاريخ المحلي تعالج مواضيع اقليمية خاصة باقليم معين او مدينة معينة الا انها مع ذلك تشير الى حوادث تاريخية عامة حدثت خارج الاقليم، وربما كانت احيانا لها علاقة بالاقليم اثرت على احداثه بطريقة او باخرى • وتشترك كتب التاريخ المحلي بصفة متميزة هي موقفها العدائي او السلبي من السلطة المركزية حيث تفسر الاحداث من وجهة نظر الاقليم نفسه لا السلطة المركزية ولذلك فهي تسهب في ايراد تفصيلات وافية عن احداث الاقليم لا نجد عنها الا اشارات عابرة في كتب التاريخ الحولي العامة •

ان تاريخ عمان في العصر الاسلامي الوسيط تاريخ غامض ومتشابك ومعقد ، ومما يزيد في تعقيده ندرة المصادر عنه حتى وقت قريب حيث يشير بروكلمان (٢) الى ندرة المخطوطات في تاريخ عمان وانه لم يعثر على مصادر مهمة حتى بداية القرن الحادي عشر الهجري / الثامن عشر الميلادى ، ولا يوجد بين المخطوطات التي ذكرها الا خمسة مخطوطات تهتم بالتاريخ • فهل افتقر هذا الاقليم الى بروز مؤرخين قديرين من ابنائه ليكتبوا تاريخه ويخلدوه للاجيال عبر القرون ؟! ان نظرة فاحصة الى ما دونه البرادي (٣) في قائمته عن اسماء كتب العلماء الاباضية المشارقة والمغاربة وكذلك الى ما اشار اليه الحارثي (٤) في كتابه الموسوم (العقود الفضية في اصول الامامة الاباضية) تعطينا اكثر من دليل على كثرة الكتب التي ألفت عبر القرون في تاريخ عمان وتطور الحركة الخارجية فيها • ولذلك فان تاريخ عمان كتب ولم يصل الا القليل منه الى ايدينا ذلك لان غالبية أهل عمان من الخوارج الاباضية وهذا يعني انهم « متمردون » على الخلافة العباسية ، وليس ببعيد ان تطمس اخبارها واحداثها ومعتقداتها ، اما خوفا من السلطة المركزية العباسية او طمعا وبذلك ظلت هذه الاخبار تدون سرا او تنقل شفاها لفترة طويلة • ولم يكتب لمعظمها ان تنسخ وتنشر في ارجاء العالم الاسلامي بل بقيت محصورة في حوزة العلماء وعلى رفوف المكتبات ، وكلما أجهد الباحث نفسه في تاريخ عمان كلما عثر على مصادر أكثر تزودنا بمادة أكثر غنى واوفر معلومات •

وقد استطاع البحث العلمي في السنوات الاخيرة ان يضيف الى معلوماتنا عن مصادر تاريخ عمان اكثر مما اشار اليه بروكلمان ومن اعقبه من الباحثين فألقيت اضواء جديدة على مصادر لم تكن معروفة سابقا ابرزت لنا تاريخ عمان وتطور الدعوة الاباضية فيه من زاوية جديدة كانت حتى الان مغمورة او غامضة لانها تعبر عن وجهة نظر أهل عمان انفسهم من خلال عقيدتهم الخارجية الاباضية (٥) •

مصادر التــاريخ المحلي لاقليم عمان

وسنحاول من هذا البحث تصنيف مصادر تاريخ عمان الى ثلاثة اصناف رئيسيــة هــي كتــب السير العمانية، وكتب النسب، وكتب التاريخ المحلي، ومع انكتب الطبقات(٦) وكتبالعقيدة والفقه(٧) التيألفهاكتاب اباضية مشارقة ومغاربة لا تخلو من معلومات تاريخيةعن احداث عمان الا انها تقع خارج نطاق هذا البحث . اما لكون مؤلفيها ليسوا عمانيين او لان غالبية مادتها ليست في تاريخ عمان .

كتب السيرة العمانية :

وتشتمــل على سير عديدة ألفهــا علماء اباضيــة متعاقبون بعضهم عاصر الاحداث وكــان شاهــد عيان للتقلبات السياسية والنزعات القبلية والعقائدية التي جرت بعمان وخاصة خلال القرنــين الثانــي والثالــث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين حيث شهدت عمان اوج نشاطهــا السياسي والعقائــدي في عهــد الامامــة الاباضية الاولى التي سقطت في حوالي ١٣٦هـ/٧٥٣م والامامة الاباضية الثانية التي سقطت في ٢٨١هـ/٨٩٣ ـ٨٩٤م .

والمهم في هذه السير العمانية ان اصحابها يعبرون عن وجهة نظرهم الخاصة في تقويم الاحداث التاريخية في عمان وفي اجراءات الامام الاباضي . فبعضهم يؤيده وبعضهم يعارضه ويرفض اجراءاته بل لا يعترف بأمامته ، ولذلك يمكن ان نعتبر السير العمانية من اقدم ما وصلنا في تاريخ عمان . وعليها اعتمــد المؤرخون الذيــن جاؤوا فيما بعد مثل الازكوي والعوتبي وابن رزيق وغيرهم . ومن اهم هذه السير :

١ ـ سيرة شبيب بن عطية العماني الذي يبدو بانه عاصر الامامة الاولى بعمان وكتب بعض انطباعاته عن احداثها .

٢ ـ سيرة ابي المؤثر الصلت بن خميس الحروضي الموسومة « كتاب الاحداث والصفات » ويبدو ان المؤلف كان ضد الامام الصلت بن مالك حيث يظهر اثره في ازدياد الصراع القبلي واثر ذلــك في سقوط الامامــة الاباضية الثانية وكان حيا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . ونقل بعض اخباره عن محمد بن محبوب بن الرحيل (ت٢٦٠هـ) .

٣ ـ سيرة ابي الحسن علي بن محمد البسيوي او (البيسانــي) ويعتبر مــن علمــاء القــرن الخــامس الهجري . وهو على عكس ابي المؤثر ، من انصار الصلت بن مالك ومؤيديه وكتب سيرته المسماة « الحجة على من ابطل السؤال في الحدث الواقع بعمان » مدافعا عن وجهة نظره هذه .

٤ ـ سيرة احمد بن عبد الله الرقيشي الازكوي المسماة « مصباح الظلام » وهو من علماء القرن السادس الهجري . وقد اعتمد في كتابة سيرته على من سبقه من السلف وخاصة عن ابي المؤثر عن ابن الرحيل .

ان هذه السير جمعت ويبدو انها نسخت نسخا عديدة (٨) من قبل علماء الاباضيــة في انحاء عديدة من العالم الاسلامي .

كتب النسب :

ولعل اهمها كتاب « انساب العرب » لابي المنذر سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري الذي توفي في نهاية القرن الخــامس الهجري (٩) . ويؤكــد المستشرق ولكنسون (١٠) بان الكتاب الف في اواخر القرن الخامس الهجري كذلك . وتعتبر المخطوطة كتابا في التاريخ في اطار النسب اي على غرار « انساب الاشراف » للبلازري، الا انها تحتوي كذلك على سير وتراجم ولا تقتصر معلوماتها علىعمان ولكن المعلومات التي تخص عمان فيالمخطوطة معلومات مهمة ، ومما يزيد في اهميتها انها غير موجودة في مصادر اخرى .

يستقي العوتبي معلوماته من مصادر محلية وغيرها فهو يذكر مثلا ابا الحسن علي بن محمد البسيوي العماني (١١) ويذكر روايات تاريخية مختلفة ومتناقضة دون ان يشير الى سندها او مصدرها الذي استقى منه المعلومات التاريخية ٠

ولعل المعلومــات الخاصة بالتكتــلات القبلية الرئيسية في عمان هي اهم ما في المخطوطة خاصة حين يتكلم العوتبي عن قبائل الازد بالذات حيث يعتمد على رواة محليين ، كما انه يتكلم عــن تاريــخ الدعوة الاباضيــة ودخول العقيدة الخارجية الى عمان ويذكر حملة العلم في كل قبيلة عمانية واسماء الائمة وانجازاتهم ٠

ولا بد من الاشارة بان العوتبي ذو ميول ازدية وعقيــدة اباضية واضحة في التفاصيل التي اوردهــا عن قبائل الازد اليمانية ودورها في احداث التــاريخ الاسلامي ولذلك يجدر الحــذر قبل قبول ارائــه ومقارنتهــا بغيرها من مصادر التاريخ العماني ٠

لم تجر حتى الآن محاولة لتقييم المادة التاريخية الموجودة في مخطوطة « انساب العرب » (١٢) ومع ذلك فيمكننا القول دون تحفظ بان المخطوطة تحتوي على معلومات أصيلة الا انها مبعثرة ولا تظهر أهميتها الحقيقية الا اذا استكملت من مصادر اخــرى كالسير العمانية وكتب التــاريــخ المحلي المتــأخــرة ، ويــرى المستشرق ولكنسون بــان مقارنة المعلومات التاريخية الموجودة في « انساب العرب » مــع معلــومات « كشف الغمــة » للأزكوى سيكون دون شك ذا فائدة كبيرة خاصة فيما يتعلق بالهجرات القبلية الاولى الى عمــان ٠ أما السيد مهدي طالب (١٣) فــيرى بان الازكــوى نقل مادته فيمايتعلق بانتقال الازد الى عمان وكذلك ما يتعلق بالصراعات القبلية التي سبقت سقوط الامامة الاباضية الثانية من العوتبي باختصار ٠

ولا شك فان أهمية كتاب العوتبي تبدو جلية اذا علمنا ان مؤرخي عمان المتأخرين من امثال الازكوى في كشف الغمه وابن رزيق في « الصحيفة القحطانية » والسالمي في « التحفــة » قد نقلــوا قسما من معلومــاتهم من « انساب العرب » ٠ على ان ابن رزيق نقل بعض معلوماتــه نقلا مشوها غــير مــوثــوق (١٤) وفي نسخــة « انساب العرب » المحفوظة في دار الكتب المصرية اشارة جلية الى مدى الجهد الذي يجب ان يبذله الباحث في تاريخ عمان حيث تبعثرت مصادره وتفرقت موارده ٠ يقول ناسخ المخطوطة انه جمع اوراق هذا الكتاب في مجلد واحد بعد أن كانت مبعثرة ومتفرقة ، ويرى السيد مهدي طالب بــان الناسخ اضاف الى المخطوطة الاصلية ولكنــه ميزها عن الاصل (١٥) ٠

كتب التاريخ المحلي

وتشمل مصادر عالجت مادتهــا بصورة رئيسية ، الاحداث التي وقعت في أقليم عمان ٠ وكان مؤلفوها من أهل عمان ولعل أهم هذه المصادر ثلاثة هي : ـ

(١) كشف الغمة الجامع لاخبار الامة ـ لمؤلفه سرحان بن سعيد الازكوي من القرن الحادي عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ٠ وقد كتبت المخطوطة في حوالي ١٧٢٨م ولا تزال مخطوطــة ومحفوظة في مكتبــة المتحف البريطاني ، ويوجد منها نسختان الاولى برقم OR. 8676 وتبــدأ بمقدمــة وتنقسم الى أربعين بابــا وتشتمل على العقائد والتاريخ والسير ، وتتكون من ٤١٠ ورقة اي ٨١٩ صفحة وتنتهي بالعبارة التالية : ـ

« ولا حــول ولا قــوة الا بالله العــلي العظيــم فليمهــد العذر الواقف عليه ، والناظر فيه وما كان فيه من خطأ فليصلحه ابتغاء مرضات ربه فانني لست بــأهل للتصنيف ولا ممن يعد المنــاشير والتاليف والحمد لله رب العالمين وصلى على محمد خاتم النبيين والمــرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا » ٠

أما النسخة الثانية من نفس المخطوطة والمرقمة OR. 6568 فهي نسخة موجزة تتكون من ٤٧ ورقة وهي اقل وضوحـا من الاولى وتقتصر على معلومـات تاريخية في الغالب (١٦) ٠

وقد ترجم الضابط السياسي البريطاني اللفتانتكولونيل روس الجزء (٣٣) من هـذه المخطـوطـة الى الانكليزية ونشرها سنة ١٨٧٤م في كلكتا ، كما وان نفس الجزء نشـر سنـة ١٩٣٨ مـن قبـل كلـين في هامبرج (١٧) ٠

تشتمل الابواب الثلاثة الاولى على ذكر اخبار الجاهلية واعتقادات أهل الشرك وذكر ملوك العرب والعجم واخبارهم ٠ ويختص الباب الرابع في ذكر انتقال الازد الى عمان وطرد الفرس منها ٠

اما الابواب التالية حتى الباب السادس والعشرين ، فتشتمل على اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ٠ ويختص الباب السابع والعشرون بذكر جـواب عبد الله بن اباض لعبد الملك ابن مروان ٠

اما الباب الثامن والعشرون فيشتمل على ذكر الفرق الاسلامية ، وهو لا شك مهم لانه يظهر بوضوح رأى الاباضية من الفرق الاخرىالتي ظهرت على المسرح السياسي الديني في المجتمـع الاسلامي وموقف الاباضية من فرق الخوارج الاخرى (الفصل الثالث) ويفصل الباب التاسع والعشرون في اعتقادات الاباضية وهي وجهـة نظر مهمه لانها منبعثة عن مؤلف خارجي العقيدة يتكلم عن فرقته ٠ ولا شك فانـه يندر ان نجـد في مصادرنا التاريخية روايات تعبر عن وجهة نظر الخوارج انفسهم ٠

وتعود أهمية الباب الثلاثين في كونه يبحث في اخبار الدولتين الاموية والعباسية فيعطي وجهة نظر الخوارج الاباضية فيهمـا ٠

أما الابواب التالية ٠٠٠ من الباب الحادي والثلاثين الى الباب الشـامن والثلاثين فهي تركز على حركـة الخوارج الاباضية وانتشارها في عمان والمغرب ٠ والـواقع ان بابا واحـدا منها خصص للمغـرب وهو البـاب الموسوم « في ذكر انتشار المذهب الاباضي بأرض المغرب وذكر أئمتهم وعلمائهم »

وتبدأ الابواب الاخرى بسرد تـاريخ عمـان من انتشار الاسلام فيها حتى حكم اليعاربة ٠

اما الباب التاسع والثلاثون ففيه ذكر لتواريخ بعض الصحابة وعلمـاء الاباضية في عمـان وغـيرها ٠ ويختتم المؤلف كتابه بالباب الاربعين الذي يتعلق بامور دينية عقائدية بحتة ٠ ومما لا شك فيه ان وجهة نظر المؤلف ـ وهو خارجي ـ في هذ ه‍الامور مهمة أيضا لانها تعكس موقف الاباضية منها (١٨) ٠

الهدف من تاليف الكتاب ـ يشير المؤلف الى الهدف الذي دعاه الى التأليف فيقول :

« وقد دفعتني الحاجة الى جمع هذا الكتاب وتاليفه وتلخيص معانيه وتصنيفه وان لم أكن أهلا للتاليف وذلك لما رأيت أكثر أهل زماننا قد غفلوا عن أصل مذهبهم الشريف وقد رغبت انفسهم عن قراءة الكتب التي اصّـلها السلف » (١٩) ٠

وفي هذا الكلام اشارة واضحة الى قلة المصادر المتوفرة عن العقيدة الاباضية ودعوتها السياسية والى عزوف الناس عن القراءة والتحري حيث شعر الازكوى بالخطر الذي يهدد المذهب الاباضي وتراثه بالانقراض والنسيان لنقص في الكتب المتـداولـة بين الناس حـول هذا المذهب ، ولذلك قام الازكوى بتأليف كتابه هذا ٠

هذا من جهة ومن جهة اخـرى فان الازكوى يشير الى انه اعتمد على كتب السلفمن علماء الاباضية ولكنه لم يشر اشارات واضحة الى مصادره الا في القليل النادر ٠ يقول الازكوى :

« ولقد طالعت الكتب الكثيرة وسألت أهل الخبرة فلم اقف على علم ذلك » (٢٠) ويقول في مناسبة اخرى :

« ووقفت على كتاب مسطور ان سبب هذه الوقعة ٠٠٠ » (٢١) ويشير الازكوى في مناسبة اخرى الى انه اطلع على «السيرة القحطانية» لابي قحطان خالد بن قحطان ٠ ولا بد أنه اعتمـد على سير عمانية اخـرى دون ان يذكرها بالاسم وربما ظن ان ذكر الاسانيد سيؤدي الى الملل خاصة وانه يدرك عزوف الناس عن القراءة الـذي اشار اليه في مقدمة كتابه ولو انـه ذكرها لافـادنا فائدة كبيرة ٠

منهج الازكوى في الكتابة التاريخية ــ بيّن المؤلف طريقته في الكتابة التاريخيـة حين قـال عن « كشف الغمــة » : ــ

« ظاهره في القصص والاخبار وباطنه في المذهب المختار لان الناس لقراءة الاثر لا يستمعون ولاستمـاع القصص عن اللغو ينتبهون ، فملت الى رغبتهم لكي يكونوا مستمعين (٢٢) » ٠

وفي مقارنة يعقدها السيد مهدي طالب هاشم بين بعض قصص الازكوى عن احداث عمان في القرن الاول والثاني الهجريين وبين المصادر المتقدمة يستنتج السيد مهدي بأن :

« الكثير من اخباره لم يضف اليها شيئا جديدا عما كتب قبله ولكنه استعمل اسلوبه في السرد وروايـة الخبـر (٢٣) » ٠

ولكن اذا كان الازكوى قد جمع المادة التاريخية منكتب السلف فاليه يرجع الفضل دون شك في تبويبهـا وتنسيقها وتصنيفها وترك الغث والابقـاء على السمين منهـا ٠ وهـذا فضل يجب ان لا ننكـره او نقلل من أهميتــه ٠

اما مصادره التاريخية فقد اشار الازكوى الى بعض من اعتمد عليهم من الرواة مثل محبوب بن الرحيل بن هبيرة القرشي ، واشار الى « الصحيفة القحطانية » لابي قحطان خالد بن قحطان ، ومع انه عادة لا يذكر مصادره فيمكننا القول بان غالبيتها عمانية ٠ ومن مقارنة مادة الازكوى بالمادة المتواجدة في المصادر المتيسرة الاخـرى نلاحظ ان الازكوى نقل من المصادر التالية : ــ

(١) السير العمانية : أ ــ اعتمد على سير عديدة منها « مصباح الظلام » للرقيشي الازكوى (القرن ٦ هـ) الذي تعود رواياته الى ابي المؤثر (القرن الثالث الهجري) الذي يستند بـدوره على محمـد بن محبـوب بن الرحيل (توفي ٢٦٠هـ) وكـذلك على سيرة البسيوي (القرن الخامس الهجري) ٠

ب ــ اعتمد على مصادر مغربية اباضية مثل « الجواهر المنتقاة » للبرادي (القرن الثامن الهجري) وكذلك طبقات الاباضية للدرجيني (القرن السابع الهجري) ٠

جـ ــ اعتمد على كتاب «انساب العرب» للعوتبي وخاصة ما يتعلق بالتنقلات القبلية اليمانيـة الى عمان وفي داخل الاقليم نفسه ثم الصراعات القبلية أثناء عهد الامامة الاباضية الثانية ٠

د – اعتمد على روايات شفوية حيث يقول الازكوى أحيانا ·· « وسألت أهل الخبرة » ·

هـ – وفيما يتعلق بالمادة العقائديـة في الكتاب فلا شك انـه اعتمـد على كتب فقهيـة وسير مثل كتـاب البسيوي (٢٤) ، « اصل ما اختلفت فيه الامةبعد نبيها صلى الله عليـه وسلم » ، وكتب فقهية مغربية اخـرى اذ ان الاحاديث النبوية الموضوعة التي تمجـد البربر والفرس والتي أوردها الازكوى لا شك قـد اقتبست من كتب مغربية اباضية ·

(٢) الفتح المبين في سيرة البو سعيدين – لمؤلفه حميد بن محمد بن‌رزيق (عاش في حدود ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م)· ويفصل الكتاب في عهد البوسعيد في عمان الذي بدأ في سنة ١١٥٤هـ / ١٧٤٢م ولكنه يتكلم في البـداية عن احداث عمان قبل هذه الفترة وقد ترجم جورج بيرسي باجر سنة ١٨٧١م جزء من هذا الكتاب (بين سنة ٦٦١م الى ١٨٥٦م) (٢٥) ·

ويعتمد الكتاب على مصادر عديدة لا يذكرها ولكن اعتماده واضح فيمـا يتعلق بكتـاب الازكوى « كشف الغمة » وتشير لورا فاليري Laura Vaglieri ان ابن رزيق نقل حرفيا عن «كشف الغمة» مع بعض الاختلافات في الاسماء والكلمات والفقرات التي ربما تعود الى خطأ ارتكبه النساخ تحريفا او تصحيفا او ربما تعود الى محاولة ابن رزيق وهو اباضي متطرف ان يحذف أو يغض الطرف أو يبرر بعض أعمال الائمة الاباضية الذين يواليهم فيسكت عن ذكر الاحداث التي ليست في صالحهم (٢٦) ·

ولكن هناك بعض الروايات التاريخية التي ينفـرد بها بن رزيـق والتي تشير الى انه اعتمـد على مصادر اخرى مكتوبة او شفوية غير « كشف الغمة » (٢٧) ·

وللمؤلف ابن رزيق كتب اخرى في تاريخ عمان منها « الصحيفة القحطانية » (٢٨) وكذلك قصيدة بائية شرح عليها ابن رزيق ، تبدأ بذكر آل الجلندي وتنتهي بذكر الامام سلطان بن مرشد آخر أئمة اليعاربة (٢٩) ويبدو ان بعض معلـومات « الصحيفة القحطـانية » نقلت نقلا مشوها من العوتبي دون الاشارة اليه ·

(٣) تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان : لمؤلفه نور الدين بن حميد السالمي (توفي سنة ١٩١٣م) وهو ، كمـا نلاحظ ، كتاب متأخر الا انه وهذه أهميته يجمع مـادته من مصادر قديمة من القرنين الثاني والثالث‌الهجريين فيعتمد على كتب ابي عبيدة والاصمعي والجاحظ ويعتمد على مجموعة من السير العمانية الاصلية التي الفها علماء أباضية اشرنا اليهم سابقا مثل سيرة ابي المؤثر وسيرة ابي قحطان وكتاب للفضل بن الحواري كما اعتمد على « كتاب الانساب » للعوتبي وعلى كتب التاريخ الحولي مثل ابن الاثير وابن خلدون (٣٠) ·

أما اراؤه السياسية فتميل بصورة واضحة الى المذهب الخارجي الاباضي فهو يعتبره الفرقة الاسلامية الوحيدة ذات النهج الصحيح · يقول السالمي في مقدمته :

« حيث كان العدل وسيرة الفضل في عمان اكثر وجودا بعد الصحابة من سائر الامصار ، تشوقت نفسي الى كتابة ما امكنني الـوقوف عليه من اثار أئمة الهـدى ليعرف سيرتهم الجـاهل بهم وليقتدي بها الطـالب لاثرهم مع قلة المادة في هذا الباب اذ لم يكن التاريخ من شغل الاصحاب بل كان اشتغالهم باقامة العدل وتأثير العلوم الدينية وبيان ما لا بد من بيانه للناس اخذا بالاهم فالهم · فلذلك لا تجد لهم سيرة مجتمعة ولا تاريخا شاملا فتتبعت ما امكنني تتبعه من كتب السير والاثار والتواريخ » (٣١) ·

ونلاحظ هنا ان المـؤرخ السالمي يشكو من قلة الكتب التاريخية عن عمان ويحاول ان يبرر ذلك تبريرا غير مقبول في نظرنا لان تاريخ التراث القومي ضرورة وطنيـة ومسؤولية كبـرى لا تقل في أهميتهـا عن أيـة

مسؤولية اخرى او واجب آخر ٠ ثم ان تاريخ عمان كتبه العديد من علمائها ولكنه مبعثر ومتفرق لم تجر محاولة لجمعه او نشره ، كما ان معظمه لم ير النور بعد ٠

من ذلك كله يبقى كتاب «كشف الغمة» للازكوى من أحسن كتب التاريخ المحلي تكاملا ووثوقا فيما يخص تاريخ عمان رغم كونه لا يذكر موارده ويختصر احيانا معلوماته اختصارا مخلا ولو انه اعطى لقلمه العنـــان . لظهر كتاب «كشف الغمة» في عدة مجلدات ضخمة لتاريخ عمان ٠ ويصف فوآد السيد هذا الكتاب فيقول : (٣٢)

« والذي فيه كالذي في بقية كتب التواريخ مع التوسع في اخبار الاباضية وبيان آرائهم »

أما السيد مهدي طالب فيرى ان السالمي لا ينقد رواياتــه ولا يميز بين صحيحهـــا وسقيمهـــا (٣٣) ومن المؤرخين سردوا رواياتهم دون نقدهـــا أمثال الطبري واليعقوبي وابن الاثير وغيرهم تاركين عملية نقد الروايات للقارىء الباحث ٠

(٤) قصص واخبار جرت بعمان ، وهو كتاب لمؤلف مجهـــول (٣٤) ، جاء في مطلعه : « ذكـــروا والله اعلم وأعرف وأحكم وأرأف وأرحم فيما مضى وتقدم من احاديث الامم فيما قبل ٠٠ » . وختمه بعبارة :

« والحمد لله على كل حال فهذا بما وردت به الاخبار عن الائمة والملوك والشيوخ والشجعـــان من أهل عمـــــان » ٠

الخـــــاتمة : ـ

رغم ما كتبه ولكنسون ولورا فاليري ومهدي طـــالب وغيرهم حول مصادر التاريخ العماني لم تظهر حتى الآن بحوث عميقة حول هذه المصادر من حيث مواردها وأسانيدها ومن حيث مقارنة المادة التاريخية الموجودة فيهـــــا ٠

اننا على يقين بان علماء الاباضية وشيوخهـــا من السلف قد خلفوا تصانيف كثيرة عن فرقتهم الاباضية في المشرق والمغرب ، ورغـــم ان بعضها قد احـــرق او اتلف بيد خصومهم فقد بقي الكثير الذي تناقلته الاباضية سرا أو روته شفاها ٠ ان الاعتناء بهذه الكتب وجمعها وتحقيقها سيبرز أهمية أقليم عمان بشريا واقتصاديـــا وسياسيا في العصـــر الاسلامي ٠ فقـــد نشأ في عمان أول كيان سياسي مستقل عن الخلافة العباسية أثر تنظيم سري دقيق ومعقد هو التنظيم السري الاباضي الذي ابتـــدأ في البصرة ثم انتشر في عمـــان والمغـــرب وحـــقق انجازات سياسية ناجحـــة ٠

الهـــوامـــش

١ ــ راجع : فاروق عمر ــ طبيعة الدعوة العباسية ــ بيروت ١٩٧١ المقدمة. (تحليل المصادر ــ نفس المؤلف ــ تاريخ الموصل) نقد وتعريف . مجلة المكتبة ١٩٦٨ ٠

٢ ــ بروكلمان ــ تاريخ الادب العربي (بالالمانية) الجزء الثاني ص ٤٠٨

٣ ــ البرادي ــ رسالة في مؤلفات العلماء الاباضية المشارقة والمغاربة . مخطوطة تقع في ثلاث ورقات ٢٠٥ أ ــ ٢٠٨ ب ضمن كتاب « تبيين افعال العباد » مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢١٧٩١ تبدأ الرسالة كما يأتي : (رسالة في تفييد كتب اصحابنا مما الفه الشيخ ابو القاسم بن ابراهيم البرادي) ٠

٤ ــ سالم بن حمد الحارثي . العقود الفضية في أصول الامامة الاباضية ــ بيروت ١٩٧٤

٥ ــ راجع المصادر القديمة والحديثة التي اشرت اليها في مقالتي الموسومة « ببليو غرافية في تاريخ عمان » مجلة « المورد » ١٩٧٥ ٠ ومقالتي الموسومة « ملامح من تاريخ حركة الخوارج الاباضية كما تكشفها مخطـوطة الازكوي » . مجلة المؤرخ العربي » العدد ٢ ــ ١٩٧٥ ٠

٦ ــ مثل : « طبقات الاباضية » لابي العباس احمد الدرجيني توفي في القرن السابع الهجري وهي مخطوطة في ٢٧١ ورقة ٠ وكتاب « الجواهر المنتقات فيما اخل به كتاب الطبقات » للبرادي المتوفي في القرن التاسع الهجري مطبوع بالجزائر سنة ١٣٠٥هـ وكتاب ابي زكريا الورجلاني المتـوفي سنة ٤٧١هـ المـوسوم « السير واخبار الائمة » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية في ١٠٢ ورقة وكتــاب « السير » للشمــاخي المتوفي سنة ٩٢٨هـ وهو مطبوع بالجزائر ٠

٧ ــ مثل : « الجامع » لابي محمد عبد الله ابن محمد بن بركة العماني (مخطـوط) ٠ « وديوان العمــاني » تأليف عبد الله بن زياد العماني . و « مختصر الخصــال » لابـراهيم بن قيس الحضـرمي من القـرن الخامس الهجري ٠ وكتاب « شرح قواعد الاسلام » لاسماعيل بن موسى الجيطالي المتـوفي سنة ٧٥٠هـ و « شرح مقدمة التوحيد » للشماخي المتوفي سنة ٩٢٨هـ وغيرهــا ٠

٨ ــ هناك نسخة من السير العمانية مجمـوعة ومحفوظة في المتحف البريطاني بلنــدن وهنــاك نسخة اخرى محفوظة في مكتبة الامام غالب بن علي بالــدمام بالمملكة العربية السعودية ٠

٩ ــ مخطوطة بدار الكتب المصرية تقع في ١٧٨ ورقــة من الحجم الكبير ٠

١٠ .

J.C. Wilkinson, " The Origins of the Omani State". in *The Arabian Peninsula*. ed. D. Hopwood. (London, 1970), p. 86.

١١ ــ راجع مهدي طالب هاشم « الدعوة الاباضية في المشرق » (اطروحة ماجستير قسم التاريخ كلية الاداب ــ بغداد باشراف الدكتور فاروق عمر شباط ١٩٧٧) الفصل الاول في تحليل المصادر ٠

١٢ ــ فاروق عمر « ببليوغرافية في تاريخ » عمان مجلة « المورد » صفحة ٢٧٧ ٠

١٣ ــ مهدي طالب ــ المرجع السابق (الفصل الاول) في تحليل المصادر ٠

١٤ ــ راجع فــاروق عمر « ببليوغرافية تاريخ عمان » مهدي طالب ــ المصدر السابق (الفصل الاول) كذلك Wilkinson, *op. cit.*, p. 88.

١٥ ــ يقول الناسخ (وربما كانت هذه الاوراق متفرقة في اجزاء فجمعناها في مجلد واحــد من هذا الكتــاب) مخطوطة « انساب العرب » ورقة ٩٦ ٠

١٦ ـ هناك نسخ اخرى من المخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم تاريخ ٣٤٧ وفي دار الكتب المصرية وفي معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية وفي الخزانة التيمورية برقم ٢٥٨٢ ونسخة اخرى في المايكروفلم في المكتبة المركزية بجامعة بغداد ونسخة مصورة عنها بمكتبة كلية الآداب بجامعة بغداد = الدراسات العليا .

١٧ S.C. Ross, *Annals of Oman*, (Calcutta, 1874); H. Klin, *Akhbar Ahl Uman* (Hamburg, 1938), chap. 33.

« اخبار اهل عمان من اول اسلامهم الى اختلاف كلمتهم » .

١٨ ـ راجع ـ فاروق عمر « ملامح من تاريخ حركة الخوارج الاباضية » (مجلة المؤرخ العربي) ص ١٧١

١٩ ـ الازكوى « كشف الغمة » ورقة ٢ أ

٢٠ ـ المصدر السابق ورقة ٣٤٤ أ .

٢١ ـ المصدر السابق .

٢٢ ـ المصدر السابق ورقة ٢ ب .

٢٣ ـ مهدي طالب « الدعوة الاباضية في المشرق » (الفصل الاول) .

٢٤ ـ مخطوطة ضمن كتاب « جامع السير » الموجودة في مكتبة الامام غالب في الدمام . راجع مهدي طالب المصدر السابق

٢٥ ـ G.P. Badger, *History of the Imams and Seyyids of Oman*, (London, 1871).

٢٦ ـ فاروق عمر « ببليوغرافية في تاريخ عمان »

٢٧ ـ Laura V. Vaglieri, "l'Imamato Ibadita dell Oman", *A.I.U.O.W.*, 3. (1949).

٢٨ ـ مخطوطة «الصحيفة القحطانية» او كسفورد رقم (Rhodes House, Afr.5.3).
وهي غير « السيرة القحطانية » لابي قحطان خالد بن قحطان .

٢٩ ـ ذكرها السيد مهدي طالب نقلا عن الشيخ محمود من علماء الاباضية

٣٠ ـ راجع مقالنا « ببليوغرافية في تاريخ عمان » ـ المصدر السابق

٣١ ـ السالمى ، تحف الاعيان ، جزاءن القاهرة ١٩٦١ ص ٤ .

٣٢ ـ فؤاد السيد ، فهرست المخطوطات بدار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٢ القسم الثانى ص ٢٥٧ .

٣٣ ـ مهدى طالب ، المصدر السابق (الفصل الاول في تحليل المصادر) .

٣٤ ـ يوسف العش، فهرست مخطوطات المكتبة الظاهرية دمشق ١٩٤٧ رقم تاريخ ٣٨٥

الوجود البرتغالي في عمان في المصار المحلية العمانية

سليمان محمد الغنام

على الرغم من أهمية وخطـورة الغزو البرتغالي للخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية وما تـرتب على ذلك من تحويل طرق التجارة الدولية عبر الخليج والبحر الاحمر والجزيرة العربية الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وما ارتبط بذلك من نتائج خطيرة بعيدة المدى ليس فحسب على المناطق التي تعرضت مباشرة لهـذه الهجمة المباغته بل وأيضا على العالم العربي والاسلامي بوجه عام ، هذه الهجمة التي ترتبت عليها آثار ونتـائج لا نعتقد اننا نبالغ اذا قلنا انها غيرت المجرى التاريخي لتلك البقعة من العالم قرونا طويلة ٠ على الرغم من كل ذلك فان هذا الموضوع لم يحظ بالعناية الكافية من المؤرخين والكتاب العرب ، بل انا لنكاد نقول انها لم تنل أي عناية منهم حتى عهد قريب ، ويعود السبب في ذلك في رأيي الى ثلاثة أسبـاب هي :

أولا ــ ان هذه المنطقة ظلت قرونا طويلة وكأنها خارج نطاق العالم العربي ، بسبب العزلة التي فرضتها القوى الاستعمارية المسيطرة عليها ٠

ثانيا ــ ان المصادر العربية عن هذا الموضوع قليلة للغاية ، والمعروف منها اقل من غير المعروف ٠

ثالثا ــ ونتيجة لهذين العاملين فان أي عمل علمي من هذا القبيل يحتاج الى جهـد مكثف وصبر طويل ، ولن يكون مربحا على النطاق التجاري بأي حال ٠

ومن ناحية اخرى فقد نال هذا الموضوع من الكتاب الغربيين المهتمين بهـذه المنطقة مـن الاهتمام افضل بكثير مما نال من الكتاب العرب ، الا ان هناك اعتبارات لا بد من اخذها في الحسبان حكمـت معالجـة هؤلاء الكتاب لهذا الموضوع ــ وهذا ليس تقليلا للجهود الطيبة والمثمرة التي بذلها بعض هؤلاء ــ اول هذه الاعتبارات، ان تلك المؤلفات اعتمدت الى حد كبير ــ ان لم يكن كامـلا ــ على تقارير الشركـات الغربيـة ، وعلى مذكرات وتقارير مستشارين عسكريـين وسياسيـين ورحالـة تنقصهم الحيدة من ناحيـة والاطلاع العميق على احوال البلاد وعاداتها وتقاليدها من ناحية اخرى ٠

وثاني هذه الاعتبارات ان معظم هؤلاء المؤلفين كانوا في كتاباتهم اسرى للون سياسى معين حكم نظرتهم للامور وبالتالي نتائج ابحاثهم ٠

وثالثها ، او في الحقيقة نتيجة لهذين العالمين كانت احكامهم ابعد ما تكون عن الحياد الضروري لمعالجة القضايا التاريخية ٠

ورابعها ، ان من حاول من هؤلاء الكتاب الاستفادة من المؤلفات المحلية فانها كانـت تنقصهـم الدرايـة والمعرفة باللغة العربية بصفة عامة واللهجات المحلية بصفة خاصة ٠

وعلى هذا الاساس فهذا البحث محاولة لاستخراج النصوص المتعلقة بالوجود البرتغالـي في عمان مـن المصادر العمانية المتوفرة الان وامكن الاطلاع عليها ، وبعضها لم يزل مخطوطا ، وبعضها تمـت ترجمتـه الى بعض اللغات الاوربية ٠

الا انه مما يلفت النظر ويؤسف له حقا ان المصادر العمانيةتجاهلت ، وبشكل يكاد يكون تاما ، مرحلة هامة وطويلة من مراحل الوجود البرتغالي في السواحل العمانية هذه المرحلة التي بدأت بظهور البرتغاليين في

مياه الخليج (٩١٣هـ/١٥٠٧م) وحتى اول صدام لهم مع الامام الجديد ناصر بن مرشد اليعربي في صحار (١) ٠ ويبدو ان سبب سكوت المؤلفين العمانيين عن هذا الحدث يعود الى العوامل الاتية :

الاول : وكما يشير السالمي (٢) ، ان اهل عمان لا يعتنون بتدوين الاحداث التاريخية لذاتها وانما تأتي عرضا في سير الائمة ومناقشة القضايا الدينية كالاحكام وغيرها ٠

الثاني : ان معظم موانىء عمان الهامة حتى قبل مجيء البرتغاليين بفترة طويلة كانت تخضع لمملكة هرمز (٣) ٠ وبالتالي اصبحت خارج نطاق اهتماماتهم او مهماتهم ٠

الثالث : ان المؤلفين العمانيين شعروا ان الاحتلال البرتغالي لموانئهم . وما يعنيه من سيطرة هؤلاء النصارى وتفوقهم الكاسح ليس فيه ما يشرف ذكره فأعرضوا عن تدوينه عمدا (٤) ٠

ومن زاوية اخرى فان الاوضاع الداخلية في عمان والمعاصرة لهذه الفترة حظيت باهتمام المؤلفين العمانيين ، وان كانت ليست بالوضوح الذي تبدو به الفترة التالية والتي بدأت بمجيء الامام ناصر بن مرشد اليعربي سنة ١٠٣٤/١٦٢٤ ٠ ويعلل السالمي سبب هذا بقوله « وانما كتبنا من سيرة هذا الامام ما لم نكتبه في سيرة من قبله لان بعض اصحابه قد ارخوا بعض سيرته ولم يؤرخ من مضى الا ما وجدناه من القضايا التي يحتاج البحث عنها في الاحكام » (٥) ٠

وسنحاول في الصفحات القليلة التالية وقبل معالجة موضوعنا الرئيسى (الوجود البرتغالى في المصادر العمانية) اعطاء صورة عجلى عن الاوضاع السائدة في عمان قبيل الغزو البرتغالي ورسم صورة واضحة ــ ما امكن ــ للاوضاع الداخلية ابان هذا الوجود ٠

عمان قبيل الغزو البرتغالي :

هناك ظاهرتان لازمتا التاريخ العماني منذ الصدر الاول للاسلام وهما : عدم خضوع هذا القطر للخلافة الاسلامية سواء في دمشق او في بغداد الا في حالات قليلة محدودة وبعد جهود كبيرة مرهقة تبذلها الخلافة ، ولكن ما ان تتراخى قبضة الخلافة حتى تفلت عمان من سيطرتها وتعود الى انفصالها من جديد ٠ والظاهرة الثانية هي استمرارية انتخاب الائمة وفق المذهب الاباضى السائد في معظم اجزاء عمان ٠

وفي الحقيقة ان هاتين الظاهرتين احداهما نتيجة للاخرى : فانفصال عمان ــ بالاضافة الى عوامل اخرى ــ يعود الى حد كبير الى سيادة المذهب الاباضى الذي يرفض الخضوع لسلطان الجور ، حسب عقيدتهم ٠ ومن ناحية اخرى فان انتخاب الائمة لم يكن متصلا بدون انقطاع ، ولم يكن السبب الوحيد لهذا الانقطاع هو التدخل الخارجي فهناك عامل داخلي كان له دور كبير في هذا ، وهو وجود امراء اقوياء يستطيعون فرض وجودهم بالقوة وبالتالي يتعطل انتخاب الائمة ، وقد امتدت احدى هذه الفترات قرابة قرنين ونصف من حوالى سنة ٥٥٧هـ ــ ١١٦١/١١٦٢م ، بعد موت الامام محمد بن خنبش (٦) الى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، حين تم انتخاب الامام الحواري بن مالك (٧) ٠ ونتج عن توقف انتخاب الائمة في هذه الفترة ان اصبحت تلك الفترة حلقة مفقودة في التاريخ العماني حسب المصادر المتوفرة على الاقل ، وذلك للسبب الذي سبقت الاشارة اليه : وهو ان المؤلفين العمانيين لا يهتمون بتدوين الاحداث التاريخية لذاتها وانما يعنون بتدوين سير الائمة وما يتعلق بها ٠ وبعد فترة الانقطاع هذه تبدأ الصورة تتضح قليلا قليلا حيث يصبح لدينا سلسلة تكاد تكون متصلة بتعاقب الائمة، وبعض اللمحات عن مجريات الامور في عمان ٠

وبمجيء الامام الحواري بن مالك سنة ١٤٠٦/٨٠٩ بدأت مرحلة جديدة في تعاقب الائمة ٠ ولكن هذا التعاقب لم يكن متصل الحلقات ايضا ، حيث تشهد فترات انقطاع امتدت احداها قرابة اربعين عاما : ما بين موت الامام ابي الحسن بنخميس سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م (٨) وحتى انتخاب الامام عمر بن الخطاب سنة ٨٨٥هـ /١٤٨٠م (٩) ٠ ويبدو ان السبب في ذلك هو النزاع بين الائمة وامراء بنى نبهان (١٠) ، حيث نرى الامام عمر بن الخطاب بعد سنة من انتخابه يتلقى هزيمة ساحقة على يد الامير سليمان بن سليمان النبهاني (١١) ، الا انه لم يلبث ان جددت له البيعة فاستطاع توجيه ضربة قوية للنباهنة، فصفى املاكهم وصادرها سنة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م (١٢) ٠ ولكن الامامة بعد موت هذا الامام انتكست مجددا حيث شهدت السنوات العشر او الاثنى عشرة سنة التالية ما لا يقل عن اربعة ائمة بعضهم تولى الامامة اكثر من مرة ، مما مكن لسليمان بن سليمان النبهاني من استعادة السلطة وبقي « اياما مالكا بالقهر والجبرية ، متغلبا على من تحته بالسلطة والقهر ينسب اليه من الاعمال ما ليس بالجميل » (١٣) ٠

فترة الغزو البرتغالى :

حين وصل البرتغاليون الى مياه الخليج (٩١٣هـ/١٥٠٧م) كانت امامة عمان تشهد استقرارا نسبيا حيث استطاع محمد بن اسماعيل في سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م التغلب على سليمان بن سليمان النبهاني (١٤) ، ومن ثم انتخب اماما وظل ما يقرب من ست وثلاثين سنة اماما ، اي حتى وفاته سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م ٠ والملفت للنظر انه لم ترد اي اشارة في المصادر العمانية الى البرتغاليين واحتلالهم لموانيء عمان ، او اسهام هذا الامام في المقاومات اليائسة التي ابداها سكان هذه الموانيء ضد الاحتلال البرتغالى ، سواء عند بدء هذا الاحتلال او الثورات التي حدثت في كل من مسقط وقريات وصحار وقلهات سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٣م (١٥) ٠ واقرب تفسير لهذا الموقف هو ان هذه المناطق اعتبرت لفترة غير قصيرة من ممتلكات مملكة هرمز ، كما ان العنف والقسوة والتفوق الذي ظهر به الوجود البرتغالى جعلت اي محاولة للصدام معهم في هذه المرحلة غير ذات جدوى ٠

واذا عدنا الى تتبع الاوضاع في الداخل نجد ان تطورا تهامة حدثت في عمان ، فبعد وفاة الامام محمد ابن اسماعيل تمت البيعة لابنه بركات، الا انه لم يحظ بتأييد كافة العلماء ، فحدث انشقاق بينهم وتم انتخاب امام اخر مع وجود هذا الامـام وهو عمر بن القاسم الفضيلي (١٦) وليس لدينا معلومات عن تاريخ انتخاب هذا الاخير ولا وفاته ولكـن في عهد بركـات هذا ايضا انتخب امام آخر هو عبدالله بن محمد القرن في يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م (١٧) ، ولا ندري هل كان انتخاب هذا الاخير بعد وفاة الامام الفضيلي ام كان في حياته المهم في الامر انه اصبح هناك اكثر من امام واحد في وقت واحد، ويعلق السالمي على هذا بقوله : « وبنصب الائمة في وقت واحد تشتتت الكلمة وتفرقت الجماعة وضعفت دولة المسلمين » (١٨) ٠

ويكتنف الغموض مصير هذين الامامين : بركات بن اسماعيل وعبد الله بن محمد القرن ، واخر اشارة اليهما في مصادرنا المتوفرة هو نجاح الاول في اخراج الثاني من حصن بهلا سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م (١٩) ٠ ولا يبدو انه تم انتخاب امام بعد هذين الامامين حتى مجيء الامام ناصر بن مرشد اول ائمة الاسرة اليعربية سنة ١٠٣٤ـ١٦٢٤ ، وانما شهدت هذه الفترة نمو قوة النباهنة من جديد حيـث استولى سلطان بـن محسن بـن سليمان النبهاني على نزوى سنة ١٥٥٦/٩٦٤ (٢٠) ٠ وبلغت قوة النباهنة ذروتها فيهذه المرحلة في عهد حفيده سليمان بن مظفر بن سلطان الذي جاء الى الحكم سنة ١٥٧٢/٩٨٠ تقريبا ، واستطاع بفضل تحالفه مع بني هناءة القضاء على ثورة اهل نزوى وحلفاءهم الجبور بزعامة محمد بن جيفر (٢١) ٠ ويبدو ان سليمان هذا كان يتمتع بدهاء وحنكة سياسية ، فقد تزوج بزوجة زعيم الجبور هذا بعـد قتله في المعركـة ليضمـن ولاء هـذه القبيلة ، كما انه لبى استنجاد حاكم صحار محمد بن مهنا الهديفي الذي تعرضت بلاده لغزو اجنبي (٢٢) واستطاع هذا الحلف دحر العدوان ، الا انه لم يلبث ان انشق عليه حلفاؤه الاقوياء بنو هناءة (٢٣) ، فحاول

ترميم هذا الصدع الا ان محاولاته لم تنجح وكان هذا الانشقاق بداية النهاية لحكمه ، فقد لجأ بنو هناءة الى حاكم سمائل القوى الامير عمير بن حمير الذي انتهز الفرصة وعقـد تحالفـات واسعـة مع المناوئـين لسليمان والخائفين من نمو قوته ، فتحالف مع سلطان الرستاق مالك بن ابي العرب اليعربي جد الامام ناصر بن مرشد ومع قبيلة الجهاضمة اصحـاب سمـد الشان (٢٤) والمضطهدين من سليمان ، بالاضافـة الـى بنـي هناءة ، واستطاع هذا الحلف بعد وقعات متعددة انزال هزائم متتالية بسليمان حتى تم اخراجه من عاصمة بهلا حوالى سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م (٢٥) ، حيث مات بعد ايام قليلة واصبح الامير عمير بن حمير الرجل الاقوى في عمان ٠

ولا شك ان هذه التطورات اثارت مخاوف صاحب صحار وحليف سليمان القديم محمد بن مهنا الهديفي ، فقاد حملة ضد دير السيب التابعة لعمير (٢٦) والتي كانت تحت حكم اخوته وحقق الهديفي نجاحا في حملته هذه ، فصمم الامير عمير على الانتقام من الهديفي ويبدوان هذا الاخير كان على جانب من القوة ، لهذا لم يجرؤ عمير على مهاجمته وحده فاتصل بالبرتغاليين في هرمز (٢٧) الذين لا شك وجدوها فرصة سانحـة لاستعـادة صحار التي اصبحت منافسا خطيرا لمسقط (٢٨) ٠ ولا ندري ما هي شروط الاتفاق بين البرتغاليين والامـير عمير ، ولكن يبدو ان البرتغاليين اشترطوا الاستيلاء على صحار حيث نرى الامير عمير بعد القضاء على الهديفي ينسحب الى عاصمته سمائل (٢٩) ويستولى البرتغاليون على صحار وكان قتل الهديفي ليلة ٢١ ربيـع الاخر سنة ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م (٣٠) ٠

وفي العام التالى استطاع الامير عمير ان يقضى على اخر معاقل النبهانيين من بني عم سليمان بن مظفر في حصني مقنيات وينقل (٣١) ، الا ان الغموض يكتنف مصير الامير عمير فلم نعد نسمع عنه شيئا على الاطلاق٠ وعندما بدأ عهد الامام ناصر بن مرشد بعد ثمان سنوات نجد ان زعيم آل عمير في سمائل هو مانع بن سنان العميري ، فلعله قد مات خلال هذه الفترة ٠ ويبدو ان هذا الاخير لم يستطع ملء الفراغ الذي تركه الامير عمير فلم يعد مانع بن سنان اكثر من امير كبقية الامراء الاخرين ، ويختتم السالمي هذه الفترة بقوله « ٠٠٠ ولبث سيف بن محمد الهنائي في بهلى ، وال عمير في سمائل ومالك بن ابي العرب اليعربي في الرستاق ، والجبور في الظاهرة والنصارى في مسكد وصحار وجلفار وصور وقريات ، وخربت عمـان بعـد العدل والامان وعاثـت الجبابرة ٠٠٠ وبقيت عمان كذلك حتى اظهر الله الامام الارشد والهمـام الامجـد امـام المسلمـين ناصر بـن مرشد » (٣٢) ٠

البرتغاليون في عمان في المصادر المحلية العمانية :

كما سبق القول تحجم المصادر العمانية عن الاشارة الى البرتغاليين في سواحل عمان حتى مجيء الامام ناصر بن مرشد سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وبدء الصراع معهم حتى اخراجهم النهائي مـن مسقـط ، باستثنـاء اشارتين وردتا عرضا ، الاولى : عندما استنجد حاكم صحار محمد الهديفي بالسلطان سليمان بن مظفر لرد هجوم اجنبي متوقع ، وزعمت هذه المصادر انه هوجم منقبل الايرانيين (٣٣) ٠ والاشارة الثانية والتي سبقت الاشارة اليها ايضا عندما احتل البرتغاليون صحار سنة ١٠٢٥هـ/١٦١٦م ٠

وعندما بدأ الصراع بين البرتغاليين والامامة اليعربية اصبحنا نجد معلومات قيمة وفـيرة نسبيا تتابـع مراحل هذا الصراع حتى خروجهم النهائي ٠ ولكن هذه المعلومات على وفرتها النسبية ، وبعد مقارنتها ببعضها البعض ، نجدها تستقي معلوماتها من مصدر يكاد يكون واحدا ، ولكن ليست كلهـا تستقيه من هذا المصدر مباشرة ، لهذا نجد بعض الاختلاف في الالفاظ واحيانا تحريفا في الاخبار المروية ٠

هذا المصدر هو **كتاب سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد** (٣٤) ، ومؤلف هذا الكتاب هو عبد اللـه بـن خلفان بن قيصر بن سليمان ، هو معاصر للامام ناصر وقد انتهى من تأليفه في حياة الامام يوم الثلاثاء عنـد العصر الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ١٠٥٠ هـ (٣٥) وقد ألفه بناء على طلب من الشيخ محمد بن سيف الوالي والشيخ ناصر بن ثاني بن جمعة بن هلال (٣٦)٠

ونلاحظ ان ابن قيصر انتهى من تأليف كتابه هذا قبل وفاة الامام ناصر ، الا ان يدا تدخلت واضافت في اخر الصفحة الاخيرة (٣٧) بيتين من الشعر تؤرخ وفاة الامام ناصر بأنه كان في يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ، ووضع تاريخ وفاة الامام فـي‌بيتين من الشعر محاولة ذكية لايهام القارىء انها مـن وضع المؤلف الذي اعتاد نظم القصائد في المناسبات المماثلة ، كما انه وضع تاريخ انتهائه من مؤلفه في ابيات من الشعر ايضا ٠ والذي يجعلنا نستبعد نسبة تأريخ وفاة الامام للمؤلف هي :

اولا : أنه خلال السنوات التسع ــ بين الانتهاء من تأليف الكتاب والتاريخ المزعوم لوفاة الامـام ــ لم يرد في هذا الكتاب اي ذكر للاحداث ، فليس من المعقول انه لم يجر فيها اي شيء يستحق التدوين ، ونستبعد ان يكون هناك سبب حال دون المؤلف وتدوين احداث تلك الفترة ٠

الثاني : انه من المستبعد ان حدثا مثل هذا ــ وفاة الامام الناصر ــ لا يستحق من المؤلـف الا هذيـن البيتين ، وانما نتوقع مرثية طويلة كما اعتاد ان يفعل مع من هم اقل شأنا من الامام واقل منه نيلا لاعجـاب المؤلف٠ ومن نقاط ضعف‌مؤلفنا انه لا يهتم بذكر تاريخ وقوع الاحداث، ففيما يخص موضوعنا لم‌يذكر الا تاريخ هجوم قوات الامام على صحار سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م ، كما انه يكثر من استعمال الكلمات الدارجة ويتكلف السجع ٠

الكتاب الثاني : **كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الامة** (٣٨) ٠

خصص مؤلف هذا الكتاب الباب السابع والثلاثين من كتابه وجعله تحت عنوان : **في ذكر ظهور الامام ناصر بن مرشد رحمه الله وذكر الائمة من بعده الى وقوع الفتنة بين اليعاربة** (٣٩) وفي معلوماته عن موضوعنا يعتمد اعتمادا كاملا على كتاب ابن قيصر ، وان لم يشر الى ذلك ، الا انه كان اكثـر تضلعـا في اللغة العربيـة ونحوها فصاغ عبارته بأسلوبه واستبعد مسجوعه ٠ وهذا الكتاب هو مصدرنا الاول فيما بعد الامام ناصر بن مرشد وخاصة في فتح مسقط على يد الامام سلطان بن سيف٠ ويبدو انه ادرك الخطأ الذي اشرنا اليه في تاريخ وفاة الامام ناصر وانها كانت سنة ١٠٥٩ فجعل عبارته غامضة حيث يقول « وكانت وفاته يوم الجمعة لعشر ليال خلوية من ربيع الاخر سنة وخمسين والف » (٤٠) ــ هذا ان لم تكـن سنـة الاحـاد سقطت سهوا مـن الناسخ ــ ولكن المؤلف اخطأ في نقل معلوماته عن فتح جلفار ، او سقطت منه العبارة سهوا فأسقط فتح دبا تماما ، واصبحت عبارته توحي بأنه كان في جلفار حصنان احدهما للبرتغاليـين والاخر للفرس (٤١) ، بينمـا الحقيقة ان الفرس كانوا في جلفار والبرتغاليين في دبا كما انه‌ذكر ايضا اثناء الحديث‌عن فتح جلفار ان‌فرقة من اهلها ظاهرت جيش العجم (٤٢) ، بينما تذكر السيرة ان فرقة من النصارى هي التي ظاهرتهـم فأوهـم بهذا الخطأ والذي قبله من جاء بعده ٠

الكتاب الثالث : **الفتح المبين المبرهن لسيرة السادة البوسعيديين** (٤٣) ، لمؤلفه حميد بن محمد بن رزيق٠ لا يبدو ان ابن رزيق اطلع على **كتاب سيرة الامام العادل،** وانما اعتمد على رواية **كشف الغمة** حيث نجده يتابعه في اخطائه في جعل حصنين في الصير احدهما للبرتغاليين والاخر للفرس (٤٤) السابق الايماء اليهما ولكنه يذكر احيانا بعض الاضافات الهامة ، خاصة عن رفض البرتغاليين دفع الجزية اثناء الهجوم على صحار (٤٥) ، وان قائد جيش الامام الذي فتح صور وقريات كان سلطان بن سيف بن مالك (٤٦) ، واثناء حصار مسقط في عهد الامام سلطان يعطي تفصيلات مسهبة (٤٧) ٠

الكتاب الرابع : **كتاب تحفة الاعيان المبرهن لسيرة اهل عمان** لمؤلفه نور الدين عبدالله بن حميد السالمي٠ ليس هناك شك في انه اطلع على المصادر الثلاثة السابقة واستفاد منها ، الا انه يتحفظ كثيرا في الاخذ عن ابن

رزيق لعدم ثقته فيه (٤٨) ٠ اما كتاب ابن قيصر فعلى الرغم من معرفته به (٤٩) الا انه ـ فيما يخص موضوعنا على الاقل ـ اخذ معلوماته عن طريق **كشف الغمة** ، يثبت ذلك مقارنة النصوص في الكتابـين بمـا لا يدع مجالا للشك ، ويبدو ان السبب في عدم الاخذ مباشرة عن كتاب ابن قيصر هو سهولة لفظ «كشف الغمة» وامانته في النقل ، الا ان هذا ادى الى الوقوع في نفس الاخطاء التي وقع فيها مؤلف كتاب **كشف الغمـة** والتـي سبقـت الاشارة اليها ، الا انه ذكر ان وفاة الامام ناصر كانت سنة ١٠٥٠ ثم عاد فناقض نفسه وذكر ان مدة امامته كانت ستا وعشرين سنة بينما ذكر ـ كما تؤكد المصادر السابقة ـ ان بيعته بالامامة كانت سنة ١٠٣٤ ٠

الكتاب الخامس : **مجهول المؤلف وايضا بدون عنوان**

وهو نفس المجلد الذي يحتوي على كتاب **سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد** فيمخطوطة المتحف البريطاني ٢٣/٣٤٣ ، ويأخذ من رقم ٥٠ (نهاية كتاب السيرة) حتى اخر المجلد (الورقة ١٧٣) وفي كـل صفحة ١٣ سطرا ٠

ويبدأ بقوله « رب يسر بسم الله الرحمن الرحيم وتمم بالخير قال الكلبي ان اول من لحق بعمان من الازد مالك بن فهم بن غانم بن دويس بن عدنان بن عبدالله بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الازد الازدي ثم الدويسى ، وكان سبب خروجه الى عمان ٠٠٠ » (٥٠) ٠

وينتهي بقوله : « وقد اعطى سيدنا قيس بن الامام كوت المطرح ومحصولها وبقي مدة بيده الى ان اراد الله اظهار ما هو كائن ، اراد السيد سلطان الكوت الغربي من سيدنا محمد بن خلفان واحجر عليه بالكوت الشرقي ، وذلك بعد عهود وايمان جرت بينهما ، فلم يجد بدا من تسليمه وكان فيه خصيف بن مطر النيري ، فمكث اياما وامر بتخلصه من الشيخ ماجد بن سعيد وفسح لمولانا محمد بن خلفان ، وخرج من مسكد الى بيته فلج جبل الفاف ثم اراد الله اصلاحهم واصطلحوا ورجع مولانا محمد بن خلفان وكيلا بالفرضة » (٥١) ٠

وهو ناقص الاخر ، وكما رأينا ينتهي بذكر السيد قيس بن الامام المتوفي سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م ٠ وفيما يخص موضوعنا فهو ينقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن **كشف الغمة** ٠

الكتاب السادس : **مجهول المؤلف** ايضا وليس له عنوان ويقع في ٤٧ ورقة وفي كـل ورقـة ٢٣ سطرا في مخطوطة المتحف البريطاني Or 6568 وكاتبه يدعى جعفر بن سالمين بن عبد الله النخلي ، وقد انتهى من كتابته يوم ٢٠ جمادي الاولى ١٣٠٨ هـ ٠

ويبدأ بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم ، ذكر والله اعلم واعز واحكم واروف وارحم فيما مضى وتقدم من احـاديث الامم فيمـا قيل ان سبب اخراج الفرس من عمان وانتقال مالك بن فهم اليها ، وكانت يومئذ اهلها الفرس ، وكان مالك وقومه من اهل سبا ٠٠٠ » (٥٢) ٠

وينتهي بقوله « فهذه مما وردت به من الاخبار عن الائمة والملوك والشيوخ والشجعان من اهل عمان ، تاريخ يوم ٢٠ جمادي الاولى سنة ١٣٠٨هـ ، وقد تم هذا الكتاب مما وجدته مكتوب (كذا) في هذه الصحايف من تأليف والتواريخ عن الائمة والمشايخ والسلاطين والشجعان المتقدمين الاوايد (؟) والله اعلم ٠ والحمد لله رب العالمين حق حمده كثيرا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وكتبـه الفقـير الحقـير اقـل العباد خادم المسلمين جعفر بن سالمين بن عبد الله النخلي تابع اولاد محمد بن بشير بن محمد بن بشير النحيري الذي هو من بلد العليا من ناحية وادي بني خروص والله اعلم بصحة ذلك ٠٠٠ » (٥٣) ٠

هذا الكتاب ينتهي بذكر مجيء احمد بن سعيد البوسعيدي واخراجه العجم من عمـان ٠ وفيما يخص موضوعنا فانه ايضا يعتمد كلية على **كشف الغمة** ويكاد نقله يكون حرفيا ، الا انه يبدو انه اطلع على **كتـاب سيرة الامام العادل** حيث نجده عند ذكر وفاة الامام ناصر يقول : « كما قال الشاعر في تاريخه (٥٤) » ، ثم يورد البيتين اللذين سبقت مناقشتهما مع بعض الاختلاف في اللفظ ٠

بهذا العرض السريع يتبين لنا بوضوح ان المصدر الاساسي لجميع هـذه المؤلفات فيمـا يتعلق بوجـود البرتغاليين واجلائهم عن عمان في عهد الامام ناصر بن مرشد هو كتاب **سيرة الامام** ٠ اما اخراجهم النهائي على يد سلطان بن سيف فمصدرنا الاول هو **كشف الغمة** ،لهذا سنورد النصوص الخاصة بهذا الموضوع من **كتاب السيرة** فيما يتعلق بفترة الامام ناصر ، ومن **كتاب كشف الغمة** فيما يتعلق ببدء فترة الامام سلطان بن سيف ٠

سيرة الامام العادل ناصر بن مرشد

الورقة ٢١

خبر افتتاح قرية لوى

قال الراوي لهذه السير الطرايف ولهاية القصص الشرايف : قال الراوي لحضر (؟) هذه الامثال وضبط هاية الاحوال الاقوال (كذا) ، ثم ركـب عبدالله بن محمد يقطع الجبال مع الشوى (؟) متوجها بالجنود الى قرية لوى ، وذلك لاختلاف رأي الجبور بعضهم ببعض وقتل محمد بن جفير وحصول العداوة ما بينهم والبغض حتى وصل الى الفليج من قرية مجيس، وبات مع جيشه في ذلك القاع النفيس ، ثم ركب منها متوجها لقرية لوى ونزل بجامعها لصحة رواية من روى ، وعلى جميع اهلها ونخلها احتوى ، ودارت الجيوش بحصنها حينما نزل ، واستقام الحرب فيما بينهم فلم تزل ، وكان مالكه سيف بن محمد بن جفير الهلالي وعنده من الجنود كل سميدع وغضانفر مصالى ، واما اخوته ووزراءهم التجوا الى صحار وهي حينئذ في ملك النصارى لصحة الاخبار ٠ وكان مانع بن سنان في صحار عند النصارى والناس من وقع الحروب (الورقة ٢٢) وقطع الدروب حيارى ، فما زالوا في صحار يغيرون من لوى لجيش الامام (كذا) ، ولا يكفون ايديهـم عن الخاص والعـام لاسيمـا اذا عسعس ديجور الظـلام ويمدون جماعتهم المحصورين ما استطاعوا عليه من الطعام واصناف آلات الحروب على الدوام ٠ قال الراوي : فأرسلوا ابناء جفير للوالى عبدالله بن محمد الموصوف بالخير يسعون في انواع الصلح واسبابه خاضعين له ومنتظرين لجنابه ، فعلم على ما هو عليه من سجية وطبيعة كما قيل : الحرب بالخديعة ، فلما ان وضح لديه حالهم جهز لهم جيشا وامر فيه الوالى محمد بـن على ليهجـم جمعهم المستكن بصحار ، وليكن ذلك بعد الهدوء في غياهب الاسحار ، فأتوهم عند ذلك قبل بدء الصباح في موضع يدعى بمنقل مقرن في الاحاديث الصحاح ، وهو مما يلي الجنوب من الحصن على ساحل البحر فهنـاك قد وقـع فيهم الطعن والضرب والنحر ٠ ثم رجع والي الامام محمد بن علي الى الولاة (كذا) حاكيا لاصحابه ما فعل في اضداده وسواه٠ فما زالوا حاصرين الحصن بعد هذه الوقعة بمدة ، معتدين للحرب باعدل آلة واكمل عدة ، حتى ارسل سيف ابن محمد بن علي رجال اليحمد وهم العدة، اذ هم يومئذ رؤساء الرستاق ونجباء الامـام واهل الشوكـة يوم التلاق ليدخلوا به على الوالى الاكبر والمقدم الغضانفر والكوكب الدري الازهر وهو عبداللـه بن محمـد الافخر ليخرجوا من حصنهم آمنين ومن سائر النهب والسلب سالمين ٠ فأعطاهم والى الامام الامان وادخل عليهم رجال اليحمد بالاعلان ، فخرج سيف بن محمد في الوقت والحين ولم يعلم به احد من المسلمين ، وخرجت من بعده ساير الاقوام وما تضمنه ذلك الحصن من الانام ٠ فدخل والى الامـام الحصن وذلـك خبر اذن الله تعـالى بالنصر ، وقد كان الحصر ستة اشهر في التعداد كما روى لنا ذلك في صحيح الاسناد ٠٠٠ » ٠

الوجود البرتغالي في عُمان في المصادر المحلية العمـانية

(حصار مسقط)

قال الراوي لهذه السيرة الرائقة والطريفة المنيقة الفائقة ، ثم ان جهز الامام جيشه العرمرم ، وامر فيه الشيخ التقي المكرم والتقي الصفي المفخم ذا التقوى والايمان الشيخ مسعود بن رمضان ومعه رؤساء القبائل من عمان وسيرهم قاصدين مسكد بالتحقيق ، فأناخ الجيش بموضع يقـال (له) طوى الـرولة بالتصديق وهي بالمطرح بقرب المسكد المذكورة ، ودارت رحى الحرب المنون ما بين المسلمـين والمجرمـين للاخبار المشهورة ، ووقع بينهم الضرب والطعن الشديـد ٠ وكـان النصر للمسلمين على المشركين والتأييد ، وهدموا ما احتووا عليه من مسكد من بروج باذخة ومبان شامخة وقتل من المشركين خلق كثير لا يحصون عددا ، وذلك مما روى لنا من الحديث مسندا ، فحين تحقق المشركون بالهلاك وايقنوا ان لا لهم من الضيق فكاك بعثوا رسلهم للشيخ مسعود بن رمضان لينعم عليهم بالصلح بعد المشقة والهوان ، فصالحهم على فك ما تحت ايديهم من عصايب اموال العمور واموال الشيعة من صحار ٠ فأذعنوا بالطاعة بعد عظائم الامور، فأخذ لهم العهود على ذلك واعطاهم الامان ، ورجع الجيش مؤيدا منصورا الى عمان حاكيا للامام ما كان من المشركين من الطوع والاذعـان وقـال المصنف (١٧ بيتا من الشعر) » ٠

الورقة ٢٧ ـ « خبر افتتاح قرية الصير »

قال الراوي لهذه المذاهب النفيسة والحاوي لهاية الملاحات الانيسة : ثم ان الامام نصره الله جهز جيشا لهاما وامر فيه على بن احمد بن عثمان النزوي وجعله مقداما ، وعضده ببني عمه ابي العرب الامجاد وامرهم على امتثال امره وإلطوع له والانقياد ، فقام الجيش على اقدامه بقطـع السباسب والآثـار ويجتـاز الصياصح ويجاوز القفار ، مستقبلا قاصدا بمشيئة الله تعالى بلدة جلفار حتى بلغها ذلك الجيش الكبير ٠ وكان بحصنها ناصرالدين العجمي الامير وعنده جيش من العجم اهل مينا (؟) ووقار وحصير ٠ فحصرت العرب العجم بحصن الصير (الورقة ٢٨) ، وما زالوا مجتهدين في الجهاد من غير تقصير مشمرين في ذات الله تعالى غاية التشمير، قد استنصروا الله فنصرهم وهو نعم المولى ونعم النصير ٠ ومـا برحوا قائمـين بالحرب والنزال والعزم القوي الذي لا يزال ، فظاهرت الاعداء فرقة من المشركين وكانوا في قتال المسلمين على المجرمين بقدر قايهم (؟) ، وكان لحصن الصير برج معتزل عنه له جدار والجدار هو متصل بالحصن وهو له مدار وفيه اقوام تقاتل آناء الليل واطراف النهار ، وكان غربان النصارى تدفع بمدافعها المسلمين عن الحصن بضرب مدافعها وليس ضربها عن سطوات المسلمين بنافعها ٠ فعزم المسلمون على هجم (كذا) البرج الذي هو للحصن منقاد ، واتفقت آراؤهم اذا غشى القوم الرقاد فهجموا عليه ليلا واخذوه قهرا ومالوا على الحصن وافتتحوه جهرا ، وذلك من فضل الله على الناس وتتابع نعمه وحسن الطافه الخفيه فيهم (و) واسع كرمه ، وجعل والى الامام بحصن الصير من جنابه واليا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، وللبغى ماحيا ٠ فشد الله يومئذ للاسلام مأزرا ٠ وقال المصنف في ذلك شعرا (١٦ بيتا) » ٠

الورقة ٢٩ ـ « خبر افتتاح قرية دبا »

قال الراوي لهذه الاقاويل المرتبة والحاوي لهاية التماثيل المنتخبة : ثم اقبل الجيش الذي كان بجلفار قاصدا قرية دبا مع رجال الدهامش يقطعون الاقفار ومعهم خميس بن محزم مجتمعين في مقصدهـم بالواحـد الملك القهار ، وكـان خميس بن محـزم مجدا مجتهدا مشمرا في ذات الله اذياله باذلا في الجهاد حينئذ نفسه وماله ٠ وكان بقرية دبا حصن بساحل البحر للنصارى فدخل جيش المسلمين البلد ليـلا ونهـارا ، واستولى على جميع اهلها ونخلها جهارا فحصر النصارى جيـش الامام وبنوا فيها حصنا مشمخرا لايرام ٠ فاستذلت دولة المشتركين غاية الاستذلال وبعثوا رسلهم يومئذ في الحال٠ فصالحم الوالي المؤيد بالتمكين لحقن دماء المسلمين ولاستراحتهم من الزحـام والقرار الى حـين ٠ فأقام المسلمون بحصن دبا رجلا مـن الثقـات آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ومعهم بعض الشراة (١٥ بيتا من الشعر) » ٠

الورقة ٣٠ ـ « خبر سير الوالى على صحار »

قال المؤلف لهذه الروايات والمصنف لهاية الحكايات : وكان رجال العمور شراة في خدمة الامام ، وكان الوالى بها حينئذ حافظ بن سيف المعروف بابن يحي في الانام ، فاسندوا عليه في اخذ صحار بعض الاسانيد في تعريض الكلام ان يوجه لها جيشا ويؤسس لها حصنا ليحوز الانام، فاستحسن رأيه السديد وصغى اليه وكان طائعا ومعتمدا عليه ، فبعث برسله لمن بقربه من القرى والدور ورؤساء (الورقة ٣١) القبائل وبني خالد وبني لام ورجال العمور ، واخذ من قرية لوى شراة الامام وهم العمـدة وشوكـة الجمهور بالتمـام ، فسار بالجنود متوجها الى صحار قادما عليها بالجحافل راد الضحى من النهار، وكان رجال من اهل صحار يدعونه الى ملكها فأجابهم على ذلك ولم يعزم على تركها ففصل بالجنود وبات بقرية عمق ، ولم يعلم به من صحار احد من الخلق ، وصبحها ضحى النهار في اخر يوم من محرم الحرام لسنة ثلاث سنين واربعين سنة وألـف مـن هجرة خير الانام محمد (ص) ، واناخ بمكان يدعى بالبدعة من صحار وذلك هو اول يوم نزل بها لصحة الاثار ، وصال جمع المسلمين على المشركين حتى وصلوا الى حصن ابن الاحمر ووقع بينهم الطعن والضرب فيمـا قضاه اللـه وقدر . وكانت النصارى تضرب بمدافعها المسلمين وما أصاب من مصيبة الا باذن الله رب العالمين ، وكان الظفر حينئذ للاسلام حتى ادخلوهم حصنهم بالتمام . ثم انتقل الوالى من المكان الذي كان قدما فيه ونزل بالمقدمى من صحار ما يحكيه المصنف ويرويه ، فما قام بها الا مدة قليلة من الايام وما زالت النصارى تضرب بمدافعها الانـام وتوجهها قاصدا لجمع الاقوام ، فاشتد ذات يوم على المسلمين شدة ضربها لاستخفافهم بالقصد لفئة الاسلام والعلم بقربها ، فجاءت ضربة من مدفع مرتفع بمكان عال فخاضت النخيـل والجمـوع وقصدت مجلس الوالى وكان جالسا بين ارباب دولته وبجنبه اخوه في الله وهو راشد بن عتاد وشراة الامـام تحيط بهم ومعهم خلق كثير من اهل البلاد فأصابت راشد بن عتاد دون اولئك الصفوف (الورقة ٣٢) ، وكان ذلك لحصول القضاء وحلول الحتوف فمات حينئذ ودفن في الحال . فعزم الوالى من ذلك المكان على الارتحال ، ثم عزم الوالى على بناء حصن في صحار وذلك لاجل الاقامة فيه . واقام ونزل فيه والى الامام حافظ بن سيف ، ولم يزل الحرب ما بين المسلمين والمشركين بمدينة صحار مستقيما دائما آناء الليل واطراف النهار الى ان استقل قاضى القضاة الرستاقي خميس بن سعيد ، واستقامت عنده طائفة اليحمد وهم اولى البأس والشدة وذروة من انتخبه من ذوي الرأي السديد ، وجعلوا يقطعون الدكادك والبيد ، ويخترقون المرافع والصعيد حتى اتوا الى قرية بوشر فأرسل لهم المشركون بالصلح كفايـة للشر . فأنعم عليهم الشيـخ خميس بـن سعيـد بالرضى والصلاح ، ورجعوا عنه ببلوغ القصد والنجاح . ثم بعث رسله للنصارى في مسكد ليطلع على احوالهم ويتأكد ، ثم لم تزل الرسل بينهم متواترة واسباب الخير والسرور متكاثرة . ثم ركب خميس بن سعيد واناخ بالمطرح واقام بها اياما فلم يبرح . ثم ارسل للنصارى فأجابوه وأذعنوا له طوعا فلم يحاربوه وجاءت رجالهم اليهم ووجوه اهل البلاد ، وامتثلوا لامره عليهم وبما أراد ، فأرسل القاضى خميس بفك المقابض التي كانت عليهم ورخصوا للناس الى التوجه اليهم واطفأ الله نار المشركين فخمدت ، وشكرت البرية باريها فحمدت ، وكفت الايادي عـن القتال ولاسيافها غمدت . وقال المصنف عبد الله بن خلفان بن قيصر بن سليمان شعرا من الوافر (١١ بيتا) » .

الورقة ٣٣ ـ « خبر افتتاح بلدة قريات »

قال الراوي لهذه السيرة الحميدة والطريقة الرشيدة : ثم ان مولانا الامام المؤيد المنصور جهز جيشا ووجهه بعض الولاة (كذا) الى صور وهي بلدة شاسعة من ملك النصارى ، فنزل المسلمون بها وحصروها جهارا ، فلم تزل الحرب ما بينهم ليلا ونهارا حتى خول الله المسلمين نصرا واعان عـلى النصارى فافتتحوهـا قهرا . ثم توجهت فئة الاسلام لقصد فيه الظلام (كذا) بقرية قريات ، وللنصارى فيها حصن لصحة الاحاديث (و) الروايات . واناخ المسلمون فيها بجيشهم الهمام وبنوا فيها حصنا لمولانا الامام وحاز المسلمون على اهلها وجميع الاموال والتمام ، وجعلوا في الحصن واليا ومعه بعض الشراة ، وذلك مما قضاه اللـه في خلقـه واجراه

فافتحت الولاة حصن قريات وصور ودانت جميع القبائل لمولانا الامام المنصور ، فاحتوى ملك الامام على جميع اقليم عمان من صور الى الصير ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس وهو حسبنا ونعم النصير وقال المصنف (١٠ ابيات من الشعر) » ٠

الورقة ٣٧٣ ـ كشف الغمة

« ٠٠٠ ثم ان لمسلمين لما مات الامام ناصر بن مرشد بن مالك عقدوا لابن عمه الامام سلطان بن سيف ابن مالك حتى نصره الله عليهم وفتحها ، ولم يزل يجاهدهم اينما تجدهم (كذا) في بر وبحر ٠٠٠ ولم يزل قائما مستمرا رحمه الله وغفر له وقبر حيث ما ظنت غير الامام ناصر بن مرشد ، وكانت وفاته ضحى الجمعة السادس من شهر القعدة سنة تسعين والف سنة » * ٠

على ان الخلاف لم يزل قائما حول تاريخ اخراج البرتغاليين من مسقط ، ويعود سبب هذا الاختلاف الى عدم معرفة تاريخ وفاة الامام ناصر بن مرشد بشكل دقيق ، وهذا التاريخ الذي يقع بين سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م وسنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م ٠

(*) كذا بالاصل (المحرر)

المصـــــادر والتعليقـــات

١ ـ انظر ص ١٢٢ من هذا البحث ٠

٢ ـ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي : **تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان** ، الطبعـة الخامسة ١٣٩٤/١٩٧٤ ، ج ١ ص ٣٥٣ ٠

٣ ـ يفهم مما أورده **مؤلف كشف الغمة الجامع لاخبار الامة** (مخطوطة المتحف البريطاني رقم OR8076 الورقة ٣٥٢) أن أمير هرمز ـ القديمة ـ المسمى محمود بن احمد الكوشي الذى وصل الى قلهات ثم غزا ظفـار ـ كان يسيطر على سواحل عمان ويطمع في حملتـــه هذه التي حدثت سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م الى مد نفـوذه حتى على الداخل (ينظر ابن بطوطه) ٠

٤ ـ Cf. S.B. Miles, *The Countries and Tribes of the Persian Gulf*, 2nd edition, (London, 1966), p. 141.

٥ ـ **تحفة الاعيـــان** ، ج ٢ ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

٦ ـ **المصدر السابق** ، ج ١ ص ٣٤٩ ٠

٧ ـ **نفســـه** ، ج ١ ص ٣٦٩ ٠

٨ ـ **نفســـه** ، ج ١ ص ٣٧٠ ٠

٩ ـ **نفســـه** ، ج ١ ص ٣٧١ ٠

١٠ ـ ليس لدينا صورة واضحة عن حكم بني نبهان ومدته . والمعلومات عنهم غامضة يلخصها السيابي ، سالم بن حمود في كتابه **اسعاف الاعيان في انساب اهل عمان** (منشورات المكتب الاسلامي ، بـيروت سنة ١٣٨٤/١٩٦٥ ص ١١٨) بقوله : « وقد ملك بنو نبهـــان عهدا طويلا لم يزل الملك فيه من أيديهم الا أعواما يسيرة ثم يعود اليهم ، فمن قائل ملكوا عمان مرتين ومن قائل مرة واحدة تسلسل الملك فيها قدر خمسمائة سنة وبعضهم يقول قدر مائتين وستين أوسبعين عاما»٠

١١ ـ السالمي ، نفســه ، ج ١ ص ٣٧٢

١٢ ـ **نفســـه** ٠

١٣ ـ **نفســـه** ، ص ٣٧٨ ٠

١٤ ـ **نفســـه** ، ص ٣٨٠ ٠

١٥ ـ F.C. Danvers, *The Portuguese in India*, 2nd. impression (London), Vol. I, p. 354.
Miles, *op. cit.*, p. 156.

وأنظر أيضا ، ويلسون ، أرنولد : **الخليج العربى، مجمل تاريخي منأقدم الازمنة حتىأوائلالقرن العشرين** نقله الى العربية د ٠ عبد القادر يوسف ، الكويت ، **بدون تاريخ** ص ٢١٨ ٠

١٦ ـ السالمي، **نفســه** ، ج ١ ص ٣٨٦ ٠

١٧ ـ **نفســـه** ٠

١٨ ـ **نفسه** ص ٣٨٧ ، والواقع ان انتخاب اكثر من امام واحد فيوقت واحد تعود جذوره الى اواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، عندما عزل الامـــام الصلت بن مالك وانتخب الامام راشد بن النظـر سنة ٢٧٢/٨٨٥ ، فاختلف العمانيون في ذلك فتمســك بعضهم بامامة الامام المعزول (الصلت) وتابع آخرون الامام الجديد (راشد)٠ ثم بعد ذلك بفترة طويلة تبلور هذا الانشقاق وأدى الى نشوء فرقتين : احداهما تدعى الرستاقية وهي التي ترى امامه الصلت ، والاخرى تدعى النزوانية وهي التي ترى صحة امامـة راشد وظل هذا الانقسام حتى ظهـور الامام ناصر بن مرشد ٠ أنظر السالمي ، **نفســه** ، ج ١ ص ١٩٦ و ص ٢١٢ ٠

١٩ ـ السالمي ، **نفسه** ، ج ١ ص ٣٨٦ ٠
٢٠ ـ **المصدر السابق** ، ص ٣٨٨ ٠
٢١ ـ **نفسه** ٠
٢٢ ـ السالمي ، **نفسه** ، وقد ذكر انه هجوم من العجم وليس لدينا تاريخ محدد لهذا الهجوم ، ولكن من المؤكد انه بعد سنة ١٥٧٢/٩٨٠ التي فيها او بعدها بقليل جاء سليمان بن مظفر الى الحكم ٠ وفي هذه الفترة كانت ظروف فارس الداخلية لا تسمح بالقيام بمثل هذا العمل انظر :

Sir P. Sykes, *A History of Persia*, 3rd. edition (London, 1969), Vol. 2, pp. 170-172.

والاقرب الى الاحتمال ان هذا الهجوم كان من قبل البرتغاليين الذين لاشك يزعجهم منافسة صحار للموانى الخاضعة لهم ٠
٢٣ ـ السالمي ، **نفسه** ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ ٠
٢٤ ـ **نفسه** ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ ٠
٢٥ ـ **نفسه** ، ص ٣٩٤ ٠
٢٦ ـ **نفسه** ، ص ٣٩٦ ٠
٢٧ ـ **نفسه** ، ص ٣٩٧ ٠
٢٨ ـ ج٠ج٠ لوريمر ، دليل الخليج ـ ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، ١٣٨٧/١٩٦٧ ص ٢٤٠ Danvers, *op. cit.*, p. 191.
ويلسون ، أرنولد ، **نفسه** ص ٢٤٥ ٠
٢٩ ـ السالمي ، **نفسه** ، ج ١ ص ٣٩٨ ٠
٣٠ ـ **كشف الغمة الجامع لاخبار الامة** المنسوب لسرحان بن سعيد ، مخطوطة المتحف البريطاني رقم Or. 8076 الورقة ٣٦٣ ٠
٣١ ـ السالمي ، **نفسه** ، ح ١ ص ٣٩٩
٣٢ ـ **نفسه** ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠١
٣٣ ـ أنظر أعلاه ، هامش رقم (٢٢)
٣٤ ـ مخطوطة المتحف البريطاني رقم Add 23343 . ويقع في ٥٠ ورقة في كل صفحة ١٣ سطرا ٠
٣٥ ـ الورقة ٤٩ ٠
٣٦ ـ الورقة ٠٣
٣٧ ـ الورقة ٥٠ ٠
٣٨ ـ ترجمت وطبعت اجزاء منه سنة ١٨٧٤ في :
The Journal of the Asiatic Society of Bengal, Vol. XLIII, Part 1, by E.C. Ross.
تحت عنوان *Annals of Oman.*
وينسب هذا الكتاب لسرحان بن عمر بن سعيد السرحاني الأزكوي ، الا أن هذه النسب محل شك ، أنظر :
W. Phillips, *Oman, A History*, (London, 1967), Note No. D, p. 19.
٣٩ ـ مخطوطة المتحف البريطاني ، رقم Or. 8076 ، الورقة ٣٦٤ ٠
٤٠ ـ الورقة ٣٧٠ ٠
٤١ ـ الورقة ٣٦٩ ٠

٤٢ ـ **نفســه** ٠

٤٣ ـ مخطوطة مكتبة جامعة كيمبردج تحت رقم Add 2892 نشـره Badger تحت عنـوان : *History of the Imams and Seyyids of Oman*, (London, 1871).

٤٤ ـ الورقــة ١١٩ ٠

٤٥ ـ **نفســه** ٠

٤٦ ـ الورقــة ١٢٠ ٠

٤٧ ـ الورقــة ١٢٣ـ١٢٧ ٠ وهو هنا لا يكتفي بمـا جاء في **كشف الغمة** حيث يقـول : « أخبرني غـير واحد من الثقات المســنين الذين نشأوا في زمن الامـام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي رحمه الله فاتفقوا في الرواية معنى واختلفوا لفظا فكان معنى كلامهم اللفظـــي ٠٠٠ » ٠

٤٨ ـ **تحفة الاعيـان** ، ج ٢ ص ٩٥ ٠

٤٩ ـ **نفســه** ، ج ٢ ص ٢١ ٠

٥٠ ـ الورقــة ٥٠ ٠

٥١ ـ الورقــة ١٧٣ ٠

٥٢ ـ الورقــة ١ ٠

٥٣ ـ الورقــة ٤٧ ٠

٥٤ ـ الورقــة ٣٤ ٠

صــلاح العقـــاد

مرت رحلة نيبور بمرحلتين متــواليتين بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ـ ففي خلال المرحلة الاولى زار الفريق العلمي الحجاز واليمن · ومن المخا أبحر من بقى على قيد الحياة الى بومباى سنة ١٧٦٣ ، وهناك فقد رحالتنا آخر رفقائه ، فقام وحده بالمرحلة الثانية بين عامى سنــة ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ وطــاف خلال هذه المرحلة بسواحل الخليج · وكان من أوائل الذين ادركوا دور العرب البارز في الملاحة والتجارة على كلا شاطيء الخليج

وتبدأ المرحلة الاولى بابحار الفــريق العلمي من السويس على احدى المراكب المتجهة الى جدة وقد حملوا معهم توصية باشا جدة الذي التقوا به في اسطنبول · كمــا أرسل معهم اثنان من تجــار القاهرة الــذين لهم معاملات مع الحجاز خطابات توصيه ، ويبدو ان تلك الرسائل سهلت مهمة الفريق في جدة وساعدت على حسن استقباله · وهنا نتوقف عنــد أهم الملاحظــات التي سجلها نيبور عن أحوال الحجاز السياسية والاقتصادية·

فقبضة الدولة العثمانية كانت متراخية خاصة في مكة حيث تتفــوق سلطــة الشريف · وقــد حاولت الآستانة التدخل في تعيين الاشراف دون جدوى · لذا فان الباب العالي يكتفي باصدار الفرمان تثبيتا للشريف الذي ارتقى السلطة ·

والشريف الذي يستطيع البقاء لاطول مــدة هو ذلك الذي يتمتع بتأييد أكبر عدد من قبائل الحجاز ·

ولم يتمكن الفريق العلمي من رؤية مكة أو المدينة لان احدا منهم لم يتخف في زى الاسلام كما كان يفعل بعض الرحالة الاوروبيين · لذلك حظيت مدينة جدة بأوفى قسط من الدراسة وهي ميناء يعج بالحيوية تلتقى عنده السفن الآتية من الهند والتي لا تستطيع اجتياز البحر الاحمر الى شمال هذا الميناء · تلتقي مــع السفن المصرية القادمة من السويس ، وهي بدورها لا تتخطى ميناء جدة الى الجنوب · وقد لاحظ نيبور تردد السفن الخاصة بشركة الهند الشرقية على الميناء وتمتع الانجليز هناك بهيبة لا بأس بها · ومن المعروف ان رحلة نيبور جاءت في وقت سابق على صدور الفرمان العثماني لسنة ١٧٧٩ ذلك الفرمان الذي حظر على غير المسلمين الملاحة في البحر الاحمر شمال ميناء المخا ·

ولا تكاد جدة تصدر شيئا يذكر للخارج لندرة ما ينتجه الحجاز وعلى العكس يتلقى الميناء كميــات كبيرة من البضائع الاستهلاكية والاغذية لكفاية حاجة السكان والوافدين على البلاد بقصد الحج او الاقامة في الاماكن المقدسة ويتقاسم كل من شريف مكة والباشا العثمــاني الرسوم الجمركية التي تُحصَّل في جدة ـ وان كان الشريف يستأثر بجمارك بعض المواني الصغيرة مثل قنفدة ·

وتقدر الرسوم بعشرة في المائة من قيمة البضائع الواردة ويكون هذا التقدير [illegible]

رحلة كارستن نيبور

الامام في القرن السابع عشر انفصل عن صنعاء وصار يحكمه شيوخ مستقلون ٠ وهكذا الحال بالنسبة لمقاطعة الجوف الشرقية الواسعة حيث تقع مدينة مأرب التاريخية ٠ وهنا يروى نيبور الاساطير المختلطة بالمعلومات التاريخية والتي حيكت حول سد مأرب ٠ وفي الشمال الشرقي قرب نجران المدينة التاريخية أيضا تقع بلاد حاشد وبكيل وهما قبيلتان لهما وزنهما من الناحية الحربية فيستعين الامام بأبنائهما الاقوياء في حروبه مقابل أجر ، أو الغنائم التي يحصلون عليها ٠ غير ان القبيلتين لا تلتزمان بطاعة الامام في جميع الاحوال ٠ ونقل رحالتنا ما سمعه عن حضرموت وقبائلها ومنتجاتها من البخور الا ان هذا الاقليم كان ما يزال غامضا بالنسبة للعالم الخارجي رغم نشاط الحضارمة في تجارة المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا ٠ وكانت شركة الهند الهولندية تعرف دورهم في هذه الاصقاع ، غير ان صاحبنا لم يبد اهتماما بهذه المنطقة ٠

ومما يسترعى الانتباه انه في حديثه عن قيام الامام قاسم بن محمد بطرد الاتراك من الهضبة اليمنية في سنة ١٦٣٠ يعتبر حركته نوعا من الصراع بين العرب والترك في شبه الجزيرة ، الامر الذي لم يكن واردا بهذا الوضوح في اذهان المجتمع الاسلامي خلال القرن السابع عشر ٠

ويطيل نيبور الحديث عن ميناء المخا وتاريخه القريب والنشاط التجارى فيه ٠ وقد تعرض الميناء سنة ١٧٣٨ قبل رحلة صاحبنا بنحو ٢٥ سنة لتهديد الاسطول الفرنسي ٠ وكان سبب اطلاق المدافع على الميناء هو الحاح الفرنسيين في ضرورة استيفاء ما لهم من ديون لدى تجار اليمن قبل ان ينزلوا بضائعهم ٠ وقد يتساءل المرء كيف تتراكم الديون على اليمنيين في حين انالميناء يشتهر اصلا بتصدير البن ٠ ويعطي نيبور تفسيرا لذلك حينما يذكر أن صادرات الميناء من البن كانت تقل عن واردات الميناء التي توزع كبضائع استهلاكية في جميع أنحاء اليمن ، اذ كان هذا الميناء الذي اندثر يحلمحل عدن والحديدة في وقتنا الحاضر ٠

وقد يكون من المفيد عند اجراء دراسات في المستقبل عن رحلة نيبور مطابقة معلوماته بالسجلات الرسمية المحفوظة في دور الوثائق الاوروبية ٠

لقد أدى تدخل الاسطول الفرنسي في سنة ١٧٣٨ الى عقد اتفاق تجاري مع امام اليمن يحدد الرسوم الجمركية على البضائع الفرنسية بـ ٣ ٪ على ان يتم التقدير في الوكالة التابعة لفرنسا في المخا ٠ وكان الانجليز والهولنديون يتمتعون بنفس الامتياز في حين ان الجنسيات الاخرى من العرب والترك والهنود كانوا يدفعون ما يتراوح ما بين ٨ ، ١٠ ٪ ٠ وقد تقدر الرسوم عليهم تقديرا تعسفيا ٠ وفي جميع الاحوال فان ما يحصل من جمرك المخا يعود على الامام في صنعاء بمورد هام من موارد دخله ٠

ومما ابداه نيبور من ملاحظات دقيقة ، هو ان التجار الانجليز الذين ترددوا على المخا في ذلك الوقت كانوا غير مرتبطين بشركة الهند الشرقية ، وهذه ظاهرة غريبة لان الشركة كانت تحتكر التجارة مع الهند وجميع الاقطار المجاورة ــ وتدور أغلب المعاملات التجارية لهذا الميناء الرئيسي في اليمن مع الهند ٠ وكثيرا ما تعود السفن فارغة الى مواني تلك البلاد مما يؤكد مرة اخرى ان تصدير البن لم يكن يعادل حجم الواردات القادمة من الهند ، لذا فان التجار العرب كانوا يبعثون بالنقود « وهي غالبا مضروبة في اوروبا » لشراء حاجياتهم ٠ وبعبارة اخرى كان الميزان التجارى لليمن يميل لصالح الاوروبيين ٠ وعندما تنتشر زراعة البن في البرازيل سيعجز اليمن عن مواصلة هذا النشاط التجارى مع الخارج ٠

كانت عمان هي الحلقة الاولى في سلسلة الجولات التي قام بها رحالتنا في منطقة الخليج ٠ والحق ان نيبور سجل كثيرا من المعلومات القيمة في هذا القسم من رحلته وصحح اخطاءا شائعة وابرز دور العرب في الملاحة والتجارة وصراعهم مع الهولنديين في هذا المجال ٠

وكما حدث في معظم الاحوال اقتصرت زيـارة صاحبنا على الجزء الساحلي من عمان فاقام في مسقط بعض الوقت واتصل بحاكمها احمـد بن سعيد مؤسس الاسرة البوسعيدية ، وكان قد مضى على حكمه نحو عشرين عاما . وقد اعجب نيبور باسلوب ادارة حـاكم مسقط للبلاد ولا غرو فهو قد بدأ حياته كرجل اعمال فاهتم بعد تولى السلطة بتشجيع رعايـاه على النشاط التجاري والمـلاحى . لذلك فـان الشعب ارتـاح لحكمـه . ويتحدث نيبور عن الوسائل التي اتبعها احمد بن سعيد للوصول الى السلطة . وهي غالبا تقوم على استخدام الحيل السياسية اكثر من الحرب وقد استخدم هذه الوسائل في تحرير عمان من الحكم الفارسي والقضاء على بقايا اسرة اليعاربة ومحاولات بعض افرادها لاسترجاع السلطة . وباعتباره جغرافيا اهتم نيبـور بدراسة منتجات عمان الزراعية وخاصة التمور . ومن جهة اخرى ابرز العلاقات الاقتصادية القائمة بين عمان وبين الهند وشرق افـريقيا .

استأنف نيبور جولته البحرية بالاتجـاه شمـالا حيث طاف ببعض موانى الاحساء وكانت القطيف هي أهم المواني في ذلك الوقت ، وانتهى الى البصرة وهناك سمع عن قيام الحركة الاصلاحية الدينية في نجد وسجل عنها عدة ملاحظات ومن خلاله عرف الاوربيون للمرة الاولى بوجود هذه الحركة .

لقد ادرك نيبور عددا من المزايـا الدينية والسياسية للحركة السلفية الناشئة . فهو يذكر أنها حركة اصلاح ديني تستهدف العودة الى بساطه الاسلام الاولى ونبذ كل ما أدخل على العقيدة او الشعائر من بدع او تحريف ، ويوضح مفهوم التوحيد كما حددته الدعوة السلفية بانه التوجه الى الله وحده دون وسائط . وبهذا التصور للحركة السلفية يكون نيبور افضل فهما لها من بعض علماء الدين الاسلامي المعاصرين لها .

ومن الناحية السياسية اعتبر رحالتنا هذه الحركة محاولة لتوحيد نجد والقضاء على حالة التمزق القبلي السائدة فيها . وتوقع لهـا ان تلعب دورا هامـا في مستقبل شبه الجزيرة العربية بأسرها .

وقد اشار الى وجود اتجاهات دينية مشابهة ظهرت في نواح أخرى من شبه الجزيرة مثل « دعوة المكرامي في نجران » ولعله خلط هذا الاسم مع شخصية معاصرة ظهرت في اليمن في ذلك الوقت هي شخصية اسماعيل الصنعاني الذي تبادل الرسائل مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وعرف بتأييده للفكر السلفي . ولم تكن هذه هي نقطة الخلط فهناك كثير من الاخطاء وقع فيها نيبور عند حديثه عن الحركة السلفيـة وهو يعترف ان الروايات اختلطت عليه لانه سمع عنها من مصادر مختلفة بعضها موثوق به ، والآخر غير موثوق به ، ويذكر كيف اتصل ببعض الوافدين من نجد الى الزبير المجاورة للبصرة وبعض هؤلاء الذين قد جاءوا فرارا من النظام الجديد في نجد .

وعندما وصل الى البصرة كان قد مضى على قيام الحركة اكثر من عشرين عاما . وكان الامام محمد بن سعود ما يزال يجاهد في نجد وقد تمكن في ذلك الوقت من توحيد اقليم العارض تحت سلطته كما ان نيبور نقل روايات بعض البدو في هذا الشأن . وكان من الصعب عليه أن يفهم جيدا العقيدة الاسلامية . ولذلك أخطأ في اختيار العنوان الذي خصصه لهذا في كتابه وهو « ديانة جديدة تظهر في جزء من نجد » .

ومهما كان هناك من تشويش في التفاصيل فمما لاشك فيه أن نيبور كان افضل فهما من بعض الاوربيين الذين كتبوا عن الحركة بعد انتشارها ونذكر على سبيل المثال جان باتيست روسو «القنصل الفرنسى في حلب في اوائل القرن التاسع عشر » . الذى ادعى ان الحـركة السلفيـة مذهب خـارج عن الاسلام السني فقـرنهـا بالاسماعيلية والنصيرية وبالدعاية المنتشرة في الولايات العثمانية ضد الحركة الاصلاحية الجديدة ومـع ذلك فقد فهم الطبيعة الوطنية للحركة وتوقع لها كما قلنا ان تكـون عامـل توحيد في شبـه الجزيـرة ، ولاحظ كيف ان انصار الاصلاح الديني رغم كونهم في مرحلة البداية فانهم استطاعوا ان يصدوا عن نجـد اعتـداءات قبيلة بني خالد التي تسيطر على الاحساء وتسيء معاملة القبائل الاخرى الخاضعة لها .

رحلة كارستن نيبور

يبدأ نيبور حديثه عن المشيخات العربية الاخرى في الجزر ، وعلى الشاطيء الشرقي للخليج بهذه العبارة التي تسترعى الانتباه فهو يقول (يخطىء الجغرافيون حينما يذكرون ان الفرس يسيطرون على أجزاء من شبه جزيرة العرب . والعكس هو الصحيح فالقبائل العربية التي تتكلم نفس اللغة وتتبع نفس العادات المعروفة في شبه الجزيرة العربية ، تسيطر على الساحل الممتد من مصب الفرات حتى منبع نهر الاندوس) . ومما يجعل لهذه القبائل طابعا مميزا لها عن الفرس رغم خضوعها احيانا للسلطة الفارسية ، هي انها تتبع المذهب السني لا الشيعي . ولذلك فهي قد تعاطفت مع الافغان أثناء حروبهم مع الفرس .

وقد تأثر وضع هذه القبائل من الناحية السياسية مؤقتا اثناء حكم نادر شاه لبلاد فارس فهو قد أخضع هذه القبائل العربية كما امتدت سلطته على كثير من جزر الخليج واحتل اجزاء من الساحل العربي . ولكن ما لبث شيوخ القبائل العربية أن استردوا استقلالهم بعد وفاة نادر شاه .

حاول نيبور رسم خريطة سياسية للخليج وذلك أمر غاية في الصعوبه بالنسبة للعصر الذي تمت فيه الرحلة فالتقسيمات المحددة القائمة الان لم يكن لها وجود سواء على الشاطيء الشرقي او الغربي للخليج . وعلى هذا الشاطيء الاخير لم تتبلور دولة بمعنى الكلمة اذا ما استثنينا عمان . فالاحساء مثلا وان تنفذت فيها قبيلة بنى خالد لا يمكن وصف نظامها بأنها امارة لها قواعد في توارث الحكم كما سيحدث في الكويت او البحرين بعد قليل ذلك لان زعماء بنى خالد اعتمدوا على القهر وتخويف القبائل الاخرى وأخذ الفدية مقابل المرعى او تأمين المرور . ولم يهتموا باقامة نظام مستقر ثابت .

وقد مر نيبور بالكويت وكانت تعرف ايضا باسم القرين وقال انها بلدة مزدهرة يشتغل اهلها بالغوص والتجارة ويستخدمون في ذلك نحو ثلثمائة مركب من احجام متفاوتة ولكنه لم يذكر شيئا عن حكم آل صباح . اذ ما زالت بعض السنوات القليلة التي تفصل الرحلة عن قيام صباح الاول بتأسيس اسرة حاكمة تتوارث السلطة في البلدة وما حولها . وما زالت مجموعة قبائل العتوب تنتقل ما بين الكويت والاحساء وقطر ، ولم تخرج منها الفروع التي استقرت وكونت امارات عربية في هذا القسم من الشاطيء العربي .

وما قيل عن الكويت والاحساء ينطبق على البحرين ، فهذه الجزر يحكمها في عهد الرحلة رجل من قبيلة المطارقي* العربية ، الا انه اعتنق المذهب الشيعي ارضاءا لحكومة الفرس ، فاثار على نفسه سخط بنى جنسه من العرب ، وهذا الامر ان دل على شيء فانما يدل على ان منطقة الخليج تداخلت فيها القوى السياسية المتنافسة ، وكذلك تداخل العرب مع الفرس والسنة مع الشيعة في الجزر والسواحل مما عقد عملية التركيب السياسي المستقر في المنطقة .

ويذكر نيبور ان البحرين القديمة كانت تضم ٣٦٠ مدينة وقرية وهذا الرقم ان صح فلا بد وان ينطبق على البحرين بمفهومها القديم والذي كان يشمل الجزر والمنطقة الساحلية الممتدة من قطر الى الاحساء . أما في وقت الرحلة فلم يكن بجزر البحرين سوى مدينة واحدة ونحو أربعين قرية .

لقد عاصرت رحلة نيبور حكم كريم خان الزندي في فارس ورغم ان هذا الشاه حاول ان يسترد عظمة بلاده كما كانت في ايام نادر شاه الا انه اخفق في تثبيت سلطته على ساحل الخليج باستثناء المنطقة الواقعة حول بوشهر .

ولذلك استمرت القبائل العربية مسيطرة على الساحل ، ويقول نيبور انها لو اتحدت لاستطاعت ان « تكون دولة عربية تهيمن على الخليج ، الا ان الحروب القبلية التي تشبه منازعات الجمهوريات اليونانية في

(★) كذا بالاصل ولم نستطع التحقق من صحة هذا الاسم (المحرر) .

العهد القديم كانت هي القاعدة . وثمة وحدات قبلية صغيرة متناثرة حول القرى الساحلية ولكل منها شيخ يعيش مثل رعاياه من العمل بالتجارة دون ان يحصل من بني قبيلته رسوما باعتبار ان هؤلاء الشيوخ زعماء عشائريون وليسوا رؤساء دول » .

الا انه من بين هذه الوحدات المتناثرة لمس نيبور تعاظم شأن ثلاث منها . فقبيلة الحولة تسيطر على الساحل الممتد من بندر عباس حتى رأس بروستان اى القسم الجنوبي من الساحل الشرقي . كما ان اميرا عربيا يدعى الشيخ مهنا اكتسب نفوذا في ميناء بندر ريج واشتهر بمقاومة محاولات كريم خان للاستيلاء على ما تحت يده من مواني لانه امتنع عن دفع الرسوم للشاه .

ويبدو ان هؤلاء الحكام العرب على الشاطيء الشرقي احتموا بوضع قدم لهم في جزر الخليج لتكون ملجأ لهم في حالة اشتداد الضغط الفارسي عليهم . ولهذا اصطدموا بالهولنديين الذين كانوا يسعون في ذلك الوقت لاقامة مراكز لهم في بعض الجزر. وقد شهد نيبور كيف سقطت اهم معاقل الهولنديين في الخليج وهي جزيرة خراج في يد العرب في نهاية سنة ١٧٦٥ اى بعد مغادرة صاحبنا للمنطقة بقليل .

ومن اهم الوحدات العربية المتميزة على الشاطيء الشرقي قبيلة بنو كعب التي علا شأنها على يد زعيمها سليمان بن ناصر . وقد امتلكت هذه القبيلة منطقة خصبة شرق شط العرب . وكان عليها أن تواجه كلا من الفرس والعثمانيين للمحافظة على كيانها . ولم يكن هذا الكيان في عهد رحلة صاحبنا قد تبلور بعد على شكل امارة مستقرة ، وهو ما سيحدث في القرن التاسع عشر حينما تبرز امارة عربستان الى الوجود . وفي عهد نيبور كانت بنو كعب تعتبر من المشيخات البحرية التي لها اسطول كبير نسبيا .

بعد استعراض اقاليم شبه الجزيرة العربية والحاق الشاطيء الشرقي للخليج بهذه الاقاليم على اساس وحدة العنصر خصص نيبور الفصول الاخيرة من رحلته لوصف الاحوال الاجتماعية ونظام الزراعة والتعليم والعلوم المعروفة عند العرب ، ولم ينس الحديث عن الشعر والتنجيم والحيوانات والنباتات التي تحيا في شبه الجزيرة .

ويستوقفنا الفصل الخاص بالديانات ، فهو يحتاج في بعض معلوماته الى تحقيق ذلك ان نيبور ذكر وجود جاليات يهودية عديدة بالحجاز في شمال خيبر، كما تحدث عن وجود جاليات يهودية في عمان وفي الاحساء .

والمعروف ان اهم الجاليات اليهودية التيبقيت في شبه جزيرة العرب هي التيعاشت في اليمن حتىمنتصف القرن العشرين . أما الحجاز فقد اخلى من اليهود تماما منذ العهد الاول للاسلام . ومن الجائز ان يكون بعض اليهود المشتغلين بالتجارة قد جاؤا الى الاحساء او عمان من فارس للاشتراك في الاعمال التجارية . فالقول بوجود جاليات يهودية بالحجاز يحتاج الى تحقيق .

اما المسيحية فلم يجد لها اثرا في شبه الجزيرة وان كان قد اعتبر الصابئة الذين لهم بعض الاتباع في الاحساء حسب روايته ، منتمين الى احدى الشخصيات المقدسة في المسيحية وهي شخصية القديس يوحنا . الا انهم ادخلوا تحريفا كبيرا على العقيدة المسيحية .

مهما كانت هناك من الاخطاء التي تضمنتها رحلة نيبور فانها في مجموعها تعد فتحا جديدا للتعريف بشبه جزيرة العرب ومرجعا لمن يريد الاطلاع على الاحوال السائدة فيها في منتصف القرن الثامن عشر . ولا شك ان الرحالة الذين قدموا الى البلاد بعده قد استفادوا منها الى حد كبير . كما ان بونابارت قدمها للعلماء الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة الفرنسية الى مصر .

كتاب بوركاردت كمصدر تاريخي واقتصادى للدولة السعودية الأولـى

محمد سعيد الشعفي

شهدت الجزيرة العربية في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري (١١٥٧هـ / ١٧٤٥م) مولد دولة اسلامية في الدرعية احدى مدن اقليم العارض عرفت تاريخيا بالدولة السعودية الاولى والتـي قامـت نتيجـة للتحالف الذي تم بين المصلح الديني محمد بن عبد الوهاب وبين محمد بن سعود أمير الدرعيـة حيث تعهـد الرجلان على تنقية العقيدة الاسلامية مما علق بها من شوائب ودعوة الناس الى عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ ما دون ذلك واقامة دولة قوية اساسها التوحيد بالله والعمل سويـا على تـوحيد منطقة نجد بل الجزيـرة العربية برمتها والتي كانت تعصف بها الخلافات والحروب الأهليـة والأسرية فقد كـانت شريعة الغـاب هي السائدة ولم تكن الحالة الدينيـة بأفضل من الحالة السياسية حيث كان الناس بعيدين كل البعد عن مبادىء الدين الحنيف ويجهلون أمور دينهم ويمارسون أنواعا من الكبـائر والبـدع ويتقربـون الى الحجـر والشجر اعتقادا منهم بأنها تنفع وتضر ٠ ومن هنا فقد كان واجبمحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود دعوة الناس الى التمسك بالتـوحيد والتخلص من الامـور الشركية وذلك باقامة حدود الله وقدر لهذه الدولة الفتية أن تنجح في مدة وجيزة فيما أسست من أجله وأن تبسط نفوذها علىوسط الجزيرة العربية في بدايـة الأمـر ، فغضب من حولها لهذا النجاح الذي حققته وشنت الحملات ضدها من الجنـوب والشرق والشمال والغرب في محاولـة يائسة لاسكات صوت الحق ولكن نصر الله قـريب ٠ واستطاعت الدرعية بالمبادىء التي تحملهـا من الحـاق خسائـر متتالية بأعدائها وأصبحت قوة يخشى بأسها ويعمل حسابها وتوجت انتصاراتها في نهـاية الأمـر بضم الحـرمين الشريفين وبقية مدن الحجاز فتناقلت الدول أخبارها واستقطبت اهتمام العـالم الخارجي الذي بـدأ يتطلع الى سماع المزيد عن أخبارها ومن ثم فقد كان هذا من بين الأسباب التي دعت « بوركاردت » وغيره أن يقوموا برحلاتهم الى الجزيرة العربية الواحد تلو الآخر ٠

وقد ولد «جون بوركاردت» في لوزان سنة ١٧٨٤م في سويسرا وبعد دراسة اللغة العربية دراسة مستفيضة في بريطانيا ، وتعمق في علـوم الدين واللغـة العربية أرسل الى الشرق في مهمـة من قبـل الجمعيـة الافـريقية البريطانية حيث زار كلا من سوريا ثم النوبة واكتشف البتراء ثم النوبة وبعدئذ أرسل الى الجزيرة العربيةحيث أبحر من سواكن ومنها الى جدة التي وصلها في ١٥ يوليه سنة١٨١٤م ابان حملة محمد علي باشا على الحجاز وأقام في مدن الحجاز تحتاسم الشيخ ابراهيم حتى١٥ مايو ١٨١٥م متنقلا اثناء هذه المدة بين جدة ومكة والطائـف والمدينة وينبع وسجل كـل ما شاهده ودون ما سمعه ورآه وقـرأ وصنف مـا جمعه في كتابين أحـدهما أسماه *Travels in Arabia* وقـد طبـع في لندن سنة ١٨٢٩ أمـا الكتـاب الآخـر فعنـوانـه *Notes on the Bedouins and Wahabys* وطبع في لندن سنة ١٨٣١م ٠ وقد اعتمـد على بعض المصادر المتاحة له وخاصة بالنسبة للحجاز ٠ كما استقى معلوماته من مصادر مختلفة من علماء وتجـار وموظفـين ومواطنين عاديين وذلك خلال اقامته في الحجاز وقدر له أيضا أن يجتمع بلفيف كبير من القبائل وعدد من سكـان المناطق وتمكن من الاتصال كذلك ببعض عربان نجد والحجاز وغيرهم وهكذا استطاع أن يعطي معلومات وافية ودقيقة عن القبائل التي تطرق الى الحديث عنها ، وهو لايكتفي فقط بسرد أعدادها ومقـدار محاربيها انما كـان يبرز أهميتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ويلقى الضوء على حالتها الاقتصادية ، مثالذلك زراعتها والمواشي التي تمتلكها والتجارة التي تزاولها وقـوتها الحربية والسياسية ونفوذها بين أقرانها ٠

والحق ان الدقة في الوصف والتحرى والتمحيص في الروايات التي نسمعهـا والامانـة والصدق في نقـل الحقائق التاريخية والاقتصادية التي يسردها والنزاهة في اصدار أحكامه ساعدت كثيرا في قيمة مؤلفيه واعتبارهما من المصادر الهامة والجيدة التي لاغنى لدارس التاريخ من الرجوع اليها والاستفادة مما حوته من معلومات اصيلة ٠

كتاب بوركـاردت

والآن اسمحوا لي بعرض كتابيه للتدليل على ما ذهبت اليه من أنهما مصدر اقتصادي وتاريخي للدولـة السعودية الاولى متناولا ذلك في نقاط على النحو التالي : ـ

أولا ـ كتابه « رحلات في الجزيرة العربية » :

١ ـ كرس بوركاردت حـوالي ٣٨ صفحـة لوصف جدة كميناء لمدينة مكة المقدسة كما أعطى نبذة عن سكانها وتاريخها وأحيائها وعن حياتها الاقتصادية التي أخذت الجزء الكبـير من هذه الصفحـات حيث وصف أسواقها والبضائع التي يتعامل بهـا السكـان والوافدين لتأدية الحج وكذلك الحركة التجارية التي تقوم بها مدينة جدة والتركيز على اهميتها كمركز تجاري ليس فقط بتزويد منطقة الحجاز والجزيرة العربية بل كحلقة اتصال بين آسيا وأفريقيا وأوربا (١)

٢ ـ تناول نظـام باشاويه جـدة بشيء من الاختصار ثم ألقى الضوء على نظام جـدة الادارى في عهـد الشريف غالب وكلمة قصيرة عن دخل مدينة جدة ثم كيف آل لقب باشا جـدة الى طوسون باشا واتخاذهـا كقاعدة تموين لجيوش محمد على (٢) ·

٣ ـ وصف الطريق بين جدة والطائف ثم تحدث عن اقامته في الطـائف وأعطى نبـذة قصيرة جـدا عن حياتها الاقتصادية والمعمارية ثم أورد مقابلته مع محمد على ونظامه الجديد واخـيرا وصف الطريق بين الطائـف ومكـة (٣) ·

٤ ـ كمـا وصف بوركاردت المشاعر المقدسة واعطى صورة عن بناء مكة وعن أحيائها وتجارها مع وضع خارطة تفصيلية (٤) ·

٥ ـ وصف المسجد الحرام وصفا دقيقا وأورد بعض مقتطفات تاريخية من الأزرقي والفاسي عن بنـاء الكعبة والمناطق المحيطة بها (٥) ·

٦ ـ كما زودنا بملاحظات عن سكان مكة وجدة عنطبقاتهم الاجتماعية والعرقية وعاداتهم وتقاليدهم وعن الحياة العلمية ونبذة عن قاضى مكة ثم كلمة قصيرة عن دخـل شريف مكـة وعن الضرائب التي يجنيهـا من البضائع المستوردة والرسوم التي تجبى على البواخر التي ترسو في مينائي جدة وينبع وقدر دخل الشريف من الرسوم التي كانت تؤخذ من الحجاج وما ترسله الدولة العثمانية الى الحرمين الشريفين ثم يختتم ذلك بالكلام عن نفقات شريف مكة على قواته وأتباعه ويعطى أخيرا قائمة بأسعار السلع الغـذائية في مكـة في ديسمبر سنة ١٨١٤م وهذه تعتبر وثيقة تاريخية (٦) ·

٧ ـ تحدث بعد ذلك عن قدوم الحجيج الى مكة من كل فج عميق مع القـاء ضوء على قيامهم بالمعـاملات التجارية ثم يصف المشاعر المقدسة (منى وعرفات ومزدلفة) موضحا ذلك بخريطتين احداهما لعرفات والاخرى لوادى منى (٧) ·

٨ ـ أعطى بوركاردت وصفا كاملا ودقيقا لرحلته من مكة الى المدينة المنورة مارا في طريقه بوادى الصفراء مشيرا الى وادى جديدة والهزيمة التي منيت بها هنا قوات طوسون باشا على أيدى القوات السعودية عند بداية احتدام الصراع بين جيوش محمد على تحت قيادة طوسون باشا وقوات الدرعية (٨) ·

٩ ـ تحدث عن المدينة المنورة ووصف أحياءها وشوارعها ومسجدها الشريف كما ألقى الضوء على حالتها الاقتصادية وعلى وجه خاص مشاريعها ومصادر مياهها وحاصلاتهـا الـزراعيـة وأعطى نبـذة عن شيخ الحـرم والمزورين ونبذة مقتضبة عن معالم المدينة المنورة التاريخية والعمرانية والأثرية مع تزيين كتابه بخريطة عن المدينة ، كما وصف السكان وأصولهم العرقية وحياة المدينة الاقتصادية والعادات والتقاليد التي كانت سائدة فيها آنذاك ، كما أعطى فكرة عن النظام الادارى الذي كان معمولا به فيها (٩) ·

١٠ ـ وصف الطريق من المدينة الى ينبع كما تعرض لموقع ينبع وألقى الضوء على نمط الحياة في المدينة مع اعطاء لمحة سريعة عن تجارتها وعن الزراعة والمحصولات التي يهتم بها المواطنون وكذلك عن مياهها ثم يتعرض في سطور عن حكم الشريف غالب لها مع الاشارة الى قبيلتي حرب وجهينة واهميتهما الحربية مبينا الدور الذي لعبته في الحرب التي دارت بين سعود وغالب من ناحية وبين سعود وقوات طوسون من ناحية ثانية (١٠).

١١ ـ وأخيرا وصف الرحلة من ينبع الى القاهرة مشيرا الى الملاحة العربية والى القبائل التي تعيش على الساحل (١١) .

أما كتابه الثاني والذي أسماه « ملاحظات على البدو والوهابيين » ويقع في مجلدين حيث تناول المجلد الاول المواضيع التالية :

١ ـ تحدث بوركاردت عن تصنيف القبائل العربية التي تقطن الصحراء السورية وقسمها الى نوعين : (النوع الأول) يعيش بالقرب من الاجزاء المزروعة في سوريا وخاصة في موسمي الصيف والخريف بينما يبتعد عنها في الشتاء أما (النوع الثاني) فيبقى طوال العام متاخما للاجزاء المزروعة . وقد ذكر أن قبيلة عنزة من النوع الاول وهي قبيلة كبيرة تمتد جذورها من نجد الى الحجاز ووادى السرحان فالحماد فبادية الشام حتى حمص وحماة وحلب ، هذه القبيلة اعتنقت مبادىء الدعوة السلفية منذ خمسة عشر عاما أي منذ حوالي ١٧٩٩ م ثم يشير الى أن عنزة تنقسم الى بطون وأفخاذ وعشائر منها ولد علي والحسنة والرولة وبشر يتحدث عن كل واحدة منها والقبائل المتفرعة عنها ثم يتكلم عن قبائل الشمال وهي التي تعيش بسوريا (١٢) .

٢ ـ ثم يتحدث بوركاردت عن حياة البدو « عن طريقة نصب خيامهم واعطاء وصف كامل لقطعها المختلفة وكذلك ملابسهم وأسلحتهم وغذائهم وعن صناعاتهم وعن غناهم وفقرهم وعلومهم وموسيقاهم وشعرهم وأعيادهم وعن الامراض المنتشرة في الصحراء وطريقة معالجتها ونوع التعليم الذي كان يلقن في البادية » (١٣).

٣ ـ تناول بوركاردت حالة البدو الدينية قبل الدعوة السلفية ووصفهم بأنهم كانوا يجهلون أمور دينهم ولكنهم بعد اعتناقهم مبادىء الدعوة أصبحوا يقومون بشعائر العقيدة على خير ما يرام متخلين عن العادات البعيدة كل البعد عن تعاليم الاسلام الحقة ويختم حديثه في هذا الصدد بالكلام عن مبادىء الدعوة السلفية حيث امتدحها لانها تنبع من كتاب الله وسنة نبيه والسلف الصالح (١٤) .

٤ ـ ويصف كذلك عادة الزواج والطلاق في البادية والحكومة البدوية وطريقة قضائهم ثم يتطرق الى الحديث عن الحروب والمناوشات والأخذ بالثأر وكرمهم في الضيافة وأخلاقهم وأخيرا عن حيواناتهم وزراعاتهم (١٥) .

٥ ـ يعطى ملاحظات اضافية عن كثير من المواضيع التي طرحها من قبل غير أنه تناولها بطريقة أفضل حيث يقارن هنا بين بعض القبائل وبعضها الآخر ويورد أمثلة توضيحية تعزز كلامه ، فمثلا يقول بأن البنادق نادرة بين بدو سوريا وبوجه عام بين أولئك الذين يقيمون شمال العقبة بينما نجد أن بادية نجد والحجاز واليمن مسلحين ببنادق ، وأشار الى ان القوات الرئيسية التابعة للدولة السعودية (الوهابيين) والذين هم من المشاة مسلحين بهذا النوع وأنهم يحصلون على هذه الاسلحة عن طريق الشراء من المدن المتاخمة لهم ويشير الى أن بدو نجد مهرة في التصويب وكذلك بدو جبال الحجاز وبامتلاكهم هذا النوع من البنادق ما أن احتدموا بقوات محمد علي في أرض جبلية الا وانتصروا عليها ، ثم يتحدث عن جهود الدولة السعودية لنشر التعليم في القرى ويوضح كيف استطاعت الدرعية تجميع مكتبات قيمة من جميع أجزاء الجزيرة وأنه ما من مخطوطة في التاريخ والعلوم الدينية وجدت في مكة والمدينة أو مدن اليمن الا وسارعت الدولة السعودية الى شرائها وحملها الى الدرعية ويقول ان مكتبة الامام سعود تعتبر في ذلك الوقت اغنى المكتبات بدون منازع بالنسبة للمخطوطات العربية التي تعالج موضوعات تاريخية (١٦) .

كتاب بوركـاردت

٦ ـ ويعطى بوركاردت ملاحظة جديرة بالاهتمام فيما يتعلق باعتنـاق بعض القبائل لمبـادىء الدعـوة السلفية حيث يقول بأن جهود الدولة السعودية في نشر العقيدة الحقة قد أتت بـدون جدوى لأن الخـوف من العقاب قد أرغم البعض على السير في ركابها ولكن بمجرد أن ضعف نفوذها نتيجة لهجوم جيوش محمد علي باشا عادت بعض القبائل الى ممارسة ما كان سائدا من قبل وعلى النقيض من ذلك فقد لاحظ أن السكان المستقرين في مدن نجد واليمن حافظـوا على مبـادىء الدعوة بحماس شديد وأخلصوا لنظام الدولة التي أسست على هدى من الكتاب والسنة (١٧) ٠

٧ ـ يشير بوركاردت أن البدو كان لديهم قضاة في كل أنحاء الصحراء الا أن معرفة سعود بقراراتهـم غير العادلة واستعدادهم لقبول الرشوة اضطر الى الغاءهذا النوع من القضاء في المنـاطق التي كـانت خاضعة لحكمه وأرسل بدلا منهم قضاة من الدرعيـة ليحلـوا محلهم تدفع رواتبهم مباشرة من بيت المـال وحازوا على رضا الناس قاطبة حتى من اعدائهم لانهم كانوا يحكمون بما أنزل الله ٠ ويشير بوركاردت هنا الى العيون أو الدوريات التي يبثها القائد السعودى لتزويده بتحركات العدو « فيقول : لقد أخبرني الشخص الذي أرسل في سنة ١٨١٥ من قبل طوسون باشا لكي يتفاوض مع عبد الله بن سعود بأنه قابل دورية مصحوبة بحراسة وكتيبة صغـيرة على بعد ميلين من مخيم عبد الله ٠ وأن مرافقه الذي صاحبه أعطى كلمة السر لكل حارس مر به والتي كانت في تلك الليلة كلمة نصر ٠ وهذا يدل على الحيطة والحذر الذي كانت تطبقه الدولة السعودية الاولى » (١٨) ٠

أما المجلد الثاني من كتابه « ملاحظات على البدو والوهـابيين » فقد استهلـه بتصنيف اضافي للقبـائـل العربية ويحتوى على ٤٩ صفحة تحدث مرة أخرى فيها عـلى بعض افخـاذ وبطون وعائـلات وعشائـر قبيلـة عنزة ، مثـل ولـد علـي والرولـة وبشر وتحـدث عن السلقـاء وشيخهـا ابـن هـذال ودوره في مقـاومـة طوسون باشا ونوه الى أنه اشترك في أغلب المناوشات التـي تمت بين طـوسـون باشا وقـوات الـدرعيـة من ١٨١٢ ـ ١٨١٥ في منطقة الحجاز وخاصة أثناء تقدمه في سنة ١٨١٥ نحو القصيم كما تناول الكلام باختصار على بعض القبائل مثل الحويطات وهثيم وغيرها لكنه لم يتعرض الى الحـديث عن دورهـا أو علاقتها بالـدولة السعودية اذ أنه يشير اليها عرضا ، ثم يتحـدث عن جهينه وعن المنطقة التي تشغلها ولمح الى أن هذه القبيلة يشتغل البعض منها في الزراعة في ينبع النخل الا أن الأغلبية منها بـدو رحل ، ويشير الى أن محـاربي هـذه القبيلة يقدر بحوالي ثمانية آلاف ويدينون بالولاء لشريف مكة وقد أثبتوا دورا فعالا في الاستيلاء على المدينـة سنة ١٨١٢م (١٩) ٠

ثـم ينتقل بوركاردت بعدئذ الى الحديـث عن قبائل تدين بالولاء للدرعية مبتدئا بـ :

(أ) شمر : والذي قدر أن من يحملون سلاحا من هذه القبيلة يتراوح بين ثلاثة ألاف وأربعة آلاف ٠

(ب) بدو القصيم وأجزاء أخـرى من نجد ، وأوضح أن من أهمهم (مطير) القبيلـة القـوية التي قدر مقاتليها بألف ومائتين خيال وما بين ستة آلاف الى ثمانية آلاف ممـن يحملون السلاح ٠ وتمتد ديارهـم مـن القصيم حتى المدينة ٠ وذكـر ان شيخ مطير فيصل الدويش تحالف مع طوسون باشا ضد الدرعية ٠

(ج) القبائل الواقعة بين القصيم والمدينة ومكة وقد ركز على قبيلة حرب فقال ان محاربيها يتراوحون بين ٣٠ و ٤٠ ألف وكلهم مسلحون بالبنادق وقد استسلموا أخيرا للدولة السعودية ثم تناول الحـديث عن بعض بطونها وأفخاذها ٠

(د) قبيلة عتيبة وقد قـدر أن محاربيها يتراوح عددهم بين ستة آلاف وعشرة آلاف مسلحين بالبنادق ٠

(هـ) القبائل المحيطة بكل من مكة والطائف ثم تلك التي تمتد من الطائف حتى نجران وكان يشير الى عدد محاربي كل قبيلة على حدة وألقى بعض الضوء على الحالة الاقتصادية والاجتماعية (٢٠) ٠

ثم تحدث عن خيول وجمال الجزيرة العربية حيث وصفها وصفا كاملا وشيقا (٢١) .

ركز بوركاردت على تاريخ الدولة السعودية الاولى وقد تضمن معظم هذا المجلد مواد لتاريخ الوهابيين حيث تناول الموضوعات التالية : ـ

١ ـ مقدمة تعرض فيها لمصادره التي استقى منها معلوماته والصعوبة التي واجهته نظرا لعدم توفر الاتصال بأهل نجد لانهم كانوا في حالة حرب مع قوات محمدعلى اثناء وجوده في الحجاز ومع هذا فقد تمكن من امدادنا بمعلومات قيمة تدل على اطلاعه على بواطن الأمور ولا أستبعد أن يكون قد اطلع على بعض المصادر التي تؤيد وجهة نظر الدعوة أو على الأقل بأن يكون أولئك الذين زودوه بالمعلومات يدينون بالولاء لمبادىء الدعوة السلفية . حيث يقول بأن المبادىء التي جاء بها محمد بنعبد الوهاب ليست دينا جديدا ، وانما جهوده انصبت على اصلاح ما فسد من معتقدات المسلمين والى نشر الدين بين البدو الذين كانوا مسلمين بالاسم ولكنهم

٥ ـ دخل الدولة ، وقد استهل كلامه بالقول بأن سياسة الدولة السعودية في هذا المجال شبيهة بمـا اتبع من قبل في الدولة الاسلامية الاولى والذي يتكـون من الآتي : ـ

(أ) خمس الغنيمة ·

(ب) الـزكـاة

(ج) العشور

(د) الغـرامات

(هـ) الأموال المصادرة

والتي كانت تدفع لبيت المال وفق الكتاب والسنة ، وقد اقتضى الأمر أن يكون في كل قرية ومدينة بيت للمال يعين لادارته كاتب يرسل من الدرعية وكانت موارد الدولة تنفق وفق تعاليم الدين الحنيف على الفقراء والمساكين والقضاة والولاة والعمال وموظفي بيت المالوما يحتاجه الجيش من عتاد وعلى المساجد وحفر الآبار واصلاح الطرق والصرف على الضيافة وفدية اسرى الحروب وغير ذلك (٢٨) ·

٦ ـ التنظيم العسكرى ، لم يكن هناك فرق يذكر بين التنظيم العسكرى السعودى وبين ما كان معمولا به من قبل بين القبائل العربية وهذا لا يعني أنـه لم يكن هناك جيش دائم، فقد جرت العادة بأن يرسل شيخ القبيلة ـ اذا عزم على مهاجمة اعدائـه ـ الى رعايـاه بالانضمام اليه وبعد الانتهاء من المهمـة المنـاطة بهـم يعودون الى اوطانهم · وقد بقيت نفس القاعدة متبعة في الدولة السعودية الاولى ما عدا ان مئات قليلة من المقاتلين اختيروا ليكونوا حرسا خاصا يحتفظ بهم في الدرعيـة نفسها · فعندما يعتزم الامام القيام بغزو احدى المناطق يصدر أوامره الى شيوخ القبائل وحكام المناطق بأن يقوم كل فريق بتجهيز عدد من رجاله مزودين بمؤن كافية والاجتماع به في مكان معين وغالبا ما كان التجمع يتم عند ماء معروف · ويقدر بوركاردت الكمية التي يحتاج اليها الجيش من المؤن والذخيرة لمدة تكفيه أربعين او خمسين يوما · وطريقة القتال واستعمال اسلوب المفاجأة فـي الجهة التي يراد مهاجمتها فالامام يعلن عزمه على السير الى جهة معينة ثم يتحول عنها فجأة الى غيرهـا حتـى لا يعرف بها العدو فيستعد لملاقاته · وعن اسلوب القتال يذكر بوركاردت بأن الجيش يقسم الى ثلاثـة او اربعـة أقسام كل واحد وراء الآخر ويبدأ الهجوم بالفرسان ثم راكبو الهجن · ومن اساليب سعود خاصة التظاهر احيانا بالفرار أمام عدوه ثم العودة فجأة لمهاجمته· واذا استسلم العدو قبل بدء القتال اعطى له الامـــان على اموالهـم وأرواحهم ·· وهكذا (٢٩) ·

٧ ـ ثم انتقل بعد ذلك الى تناول علاقات الشريف غالب بالدرعية من ناحية وباشا بغداد من ناحيـة أخرى ، فبالنسبة للشريف يقول ان زيادة نفوذ الدولة السعودية ونجاحها في نشر مبـادىء الدعـوة السلفية أثارت غيرة الشريف لأن الكثير من القبائل وخصوصا تلك المحيطة به تقع تحت نفـوذه ولا شك أن المحاولات التي بذلت من قبل الامام عبد العزيز لبسط سيطرتـه على تلك القبـائل واستمالتها الى جانبـه تسببت في احتدام الصراع بينه وبين الدرعية · وقـد حاول أن يكسب الباب العـالي الى جانبـه فكتب يبين لهـم خطر السعوديين واتهمهم بأنهم كفار الا أن الباب العـالي أصغى كثيرا لمـا ورده من باشوات بغـداد لانهم كانـوا يمارسون نفوذا مشابها على بعض القبائل بل ان غارات قوات الدرعية كـانت تصل باستمـرار الى مشارف البصرة ، لذا فقد أعدت حملة بقيادة مساعد باشا بغداداشتملت على أربعة أو خمسة آلاف جندى تركي نظامي وضعف العدد من قبائل الظفير وشمر والمنتفق · ولكنها بدلا من التقدم نحو الدرعية رأسا اتجهت نحو منطقة الحسا وعند سماع عبد العزيز بهذه الحملة ارسل قوات كبيرة تحت قيادة ولده سعود لمواجهتها وقد فشلت الحملة في تحقيق أهدافهـا وعادت بخفى حنين الى بغداد مما دعى القوات السعودية الى مواصلة مهاجمتها لمدن هذه الباشوية ككربلاء وبعض مدن العـراق ·· وهكذا (٣٠) ·

وعلى الجانب الاخر قرر عبد العزيز وضع حد لغارات ومؤامرات الشريف غالب وخاصة بعد قبول قبائل عسير وجنوب الطائف مبادىء الدعوة والانضواء تحت لوائها وبين الدور الذي لعبته كل من قبيلة عسير بقيادة أبو نقطة وعثمان المضايفى شيخ قبيلة عدوان والـذي يمت بصلة الرحم للشريف غـالب نفسه في الاستيلاء على الطائف ومكة ومحاصرة الشريف في جدة ٠ ثم تحدث عن كيف استسلمت المدينـة وقبائل حـرب وجهينة وينبع ثم عن الاجراءات التي اتبعت لتأدية شعائر الصلاة والقضاء على الأمور الشركية وطرد مـوظفي الدولـة العثمانية ٠ ثم كيف تم الحاق الحجاز نهائيا بالدولة السعودية (٣١) ٠

وقد أدى هذا الى ان الدولة العثمانية بدأت تعد العدة لاستعـادة الحرمين الشريفين ، فجاءت الخطوة الاولى من سوريا حيث أعد يوسف باشا قوة لمهـاجمة منطقة الجوف سنة ١٨٠٩ الا أنه لم يفلح ٠ وأمام هذا قرر سعود بأن يأخذ زمام المبادرة حيث هاجم حوالي خمس وثلاثين قـرية في منطقة حـوران التي تبعـد عن دمشق بيومين فقط (٣٢) ٠

وبينما كانت باشوية كل من بغداد وسوريا تمارس اعتداءاتها ضد الدرعية كانت مصر بعيدة كل البعد عما يدور داخل الجزيرة وعندما فشلتا في وقف توسع الدولة السعودية رأى الباب العالي بأن مصر تستطيع أن تقوم بالدور الذي أخفقا فيه وذلك لعدة اعتبارات ولذا فقد بدأت مصر تعـد نفسها للقيام بالمهمة المنـاطة بهـــا (٣٣) ٠

٨ ــ حملـة طوسون باشا الى الحجاز ، لقد بدأ محمد على بالاستعداد للحملـة فبنى اسطـولا ضخما مكونا من ثمانية وعشرين سفينة كبـيرة وبعض القوارب الصغيرة ٠ كما أعد مستودعات ضخمة في السويس ملئت بالقمح والبسكويت والتموينات الاخرى تمهيدا لارسالها الى الحجاز ومن اجل ارسال قوات كبيرة رأى أن يرسل البعض عن طريق البحر والبعض الآخر عن طريق البر ولذا عمد الى اصلاح قلاع طرق الحج من القاهرة حتى ينبع وفي نفس الوقت اتفق مع الشريف غالب على العمل سويا من اجل استعادة الحرمين الشريفين (٣٤)٠

وبعد أن استكملت كل الاستعدادات أعطيت لها الأوامر بالتحرك نحو ينبع التي استسلمت بعد مقاومة ضعيفة وبعد أن ترك طومسون حامية بها اتجه نحو المدينة ، وفي وادى الصفراء دارت معركة بالغة العنف بـين قواته وقوات الدرعية فى وادي الجديدة حيـث ألحقـت الهزيمة بقواته وولـت الادبـاء غير أن محمد على لـم يستسلم فقد بدأ من جديد يعـد حملـة اخرى ولهذا السبب أرسل مبالغ كبيرة من المال لابنه من أجل توزيعه على شيوخ القبائل ليتخلوا عن تأييد الدرعية ٠ وقـد نجحت الخطة في استمالة جـزء كبير من قبيلة حـرب وخاصة بني سالم وبني صبيح اللذين تسيطران على وادى الصفراء ووادي الجديـدة والى جـانب ذلك انهالـت القوات والمؤن على طوسون من والده وعندما تم كل هذا قرر أن يقوم بمحاولة أخرى للوصول الى المدينة وقـد نجح بالفعل في هذه المرة ولم يجد مقاومة تذكر الا في المدينة التي قاومت قلعتها مقاومة عنيفة الا أنها اضطرت الى الاستسلام بعد أن أعطيت الحامية الأمان وتلى هذا سقوط كل من مكة وجدة (٣٥) ٠

٩ ــ حضور محمد على الى الحجاز ، تكلم عن نهاية عثمان المضايفى بالقصيم ومكة وارساله الى مصر ثم اشاراته الى أنه بالرغم من استسلام مدن الحجاز الكبيرة الا أن قوة الدرعية ما زالت على أشدهـا حيث أنهـا تسيطر على معظم القبائل المحيطة بها ومن ناحية فقد حضر محمد على الى الحجاز وكان أول عمل قام به هـو بذل قصارى جهده لحل مشكلة نقل المؤن من جدة الى مكة والطائف ، أما جدة فقد استعملت وكـذلك ينبع كقاعدة لاستقبال المؤن والمعدات الحربية اللازمة للقوات وقد واجهته صعوبة كبيرة في نقل المؤن والمعـدات من جدة الى مكة اكثر من ارسالها من مصر الى جدة ٠ لان معظم الجمال التى احضرت للحملة تهالكت بعد وصولها

الى الحجاز مباشرة فمن بين الثمانية آلاف التي رافقت الحملة بقي على قيد الحياة فقط خمسمائة جمل ومن هنا فقد انصب اهتمامه على تزويد الجيش بوسائل المواصلات ووزع مبلغا كبيرا من المال على شيوخ القبائل من اجل امداد جيشه بالحيوانات اللازمة (٣٦) ٠

ثم بعدئذ اتجه الى التخلص من الشريف غالب وواجهته بعض الصعوبات في هذا الأمر لأنه كان يحتفظ بقوات كبيرة لحمايته ولكنه بوسائله الخاصة استطاع أن يقبض عليه ويرسله الى مصر ٠

١٠ ـ دور غالية زعيمة قبيلة البقوم في معاونة قوات محمد على باشا ، لدرجة أنهـا كانت تثـير الرعب والخوف بين صفوف القوات عند سماعهم باسمها وتتالت الهزائم بالحملات التي ترسل من وقت الى آخر الى منطقة جنوب الطائف حيث لم تنجح حملة مصطفى بيه مما دفع محمد على الى ارسال ابنه طوسون على رأس قوة مؤلفة من ألفي جندي من أجل الاستيلاء على تربة الا أن جهـوده باءت بالفشل وفقد مؤنـه وخسر أكثـر قواته ٠ ويعزو بوركاردت فشل طوسون الى احتياجه الى الجمال ٠ وقد أمضى محمد على شتاء سنة ١٨١٣ م وبداية ١٨١٤م في الاستعداد ، فقد وصلته عدة آلاف من الجمال من مصر وزود بأعداد لا بأس بها من الجنـود كما أرسل مصطفى بيه الى مصر لشراء خيول لتعويض ما فقدته القوات ٠ ولتحويل أنظار القوات السعودية الى جهة أخرى قرر أن يرسل قوات تتجـه للاستيلاء على القنفذة لاستعمالها كقاعدة ينطلق منها لفتح ثغـرات في دفاعات القوات السعودية ٠ الا أن الحملة لم تحقق أهدافها وفي تلك الاثناء توجه محمد على باشا الى الطـائف للاقامة بها والاشراف على العمليات بنفسه واستطاع أن يستميل الى جانبه قبائل هذيل وثقيف وبني سعد وجزء من قبيلة عتيبة وأقدم على تطبيق اجراءات تثبت مركزه وكسب المزيد الى جانبه فالغى الضرائب التي كان يدفعها المواطنون وتولى الصرف على العلماء والقائمين على المساجد والمدارس وغيرها ويختم حديثه في هذا الفصل عن

قواته بالتحرك نحو الجبهة وذلك في ٢٦ محرم ١٢٣٠هـالموافق ٧ يناير ١٨١٥م ٠ وعند وصول القوات التركية الى بسل وجد ان القوات السعودية كانت مستعدة لملاقاتهم وكانت تقدر بحوالى ٢٥ ألف مقاتل الا انها كانت تفتقر الى الاسلحة الثقيلة وهي بقيادة فيصل بن سعود وقد عدد أسماء رؤساء القبائل الذين اشتركوا معه بالفعل ٠ وبعد أن ألقى محمد على نظرة على القوات السعودية وشاهدهم يقاتلون أدرك أنه لن يستطيع أن يلحق هزيمة بهم الا باللجوء الى خدعة لكي يجبرهم على التخلي عن مواقعهم الحصينة ٠ ولذا فقد استخدم عدة طرق ولكنها جميعا باءت بالفشل مما دعاه الى اللجوء الى حيلة ماكرة بأن أمر قواته بالتقدم نحو مواقع القوات السعودية وعند الاحتكاك بهم يتظاهرون بالانهزام ، بينما كانت هناك قوات أخرى تقف على شكل كمين لمواجهة القوات السعودية عند نزولهم من مواقعهم بالجبال ٠ ولسوء الحظ انطلت الحيلة ووقعت القوات السعودية في الفخ حيث أصبحت في متناول مدفعية محمد على باشا وهكذا كسب المعركة ٠ وبعد هذه الموقعة تقدمت قوات محمد على نحو تربة التي أبدت مقاومة باسلة (٣٩) ٠

١٢ ـ وقد وصف انتصار قوات محمد على باشا في موقعه تربة ثم مواصلة انتصاراته فأصدر أوامره الى الشريف يحيى بالتوجه الى القنفذة مباشرة بعد موقعة بسل لكي يطبق على قوات الدولة السعودية من كل ناحية ٠ وبعد موقعة تربة أصبح الطريق مفتوحا الى منطقة عسير فاستولى على بيشة ومنها اتجه الى « طامى » أمير عسير والذي لم يلبث الا أن يقع في الأسر ٠

وأعطى بوركاردت وصفا لحالة الجيش المصري وما وصل اليه من انهاك وتعب ونقص في المؤن والمواد الغذائية ووسائل المواصلات الا أن شجاعة محمد على حولت الهزيمة الى نصر حيث واصل جهوده للسيطرة على المنطقة الجنوبية وبعد أن تم له هذا اتجه الى القنفذة ومنها الى مكة ثم الى مصر (٤٠) ٠

وعلى الجانب الاخر كان طوسون معسكرا في المدينة منتظرا أخبار انتصارات والده في الجنوب وعندما انتشرت أخبار تلك الانتصارات بين القبائل الشمالية أظهرت كثير منها رغبتها في الانضمام الى طوسون شجعته على الزحف نحو الدرعية وعندئذ قرر التوجه نحو القصيم متخذا الحناكية كقاعدة تنطلق منها قواته وبعد أن بقى بها مدة اتجه صوب الرس (٤١) ٠

١٣ ـ وأخيرا انصب حديثه عن موقف طوسون في الرس وعن استعدادات عبد الله بن سعود المناوئه مثل قطع مواصلات قوات طوسون ومهاجمة رجاله ثم أعطى نبذة عن المحادثات التي دارت بين الفريقين للوصول الى اتفاق الرس الذي بموجبه عاد طوسون باشا الى مصر بعد أن ضمن أن تبقى الأمور كما هي دون احداث أي تغيير (٤٢) ٠

ومما سبق نستطيع القول بأن مؤلفي « بوركاردت » قد تناولا بأمانة وصدق وبشكل لم يسبق له مثيل من قبل المواضيع التالية : ـ

أ ـ الحياة الاجتماعية للجزيرة العربية : مدنها وقبائلها ٠

ب ـ الحالة الاقتصادية والتجارية على المستويين المحلى والخارجي ٠

جـ ـ التنظيم الادارى بالنسبة لمنطقتي الحجاز ونجد ٠

د ـ التنظيم الحربي للدولة السعودية الاولى ٠

هـ ـ التنظيم المالى للدولة السعودية الأولى أيضا ٠

و ـ تاريخ الدولة السعودية الاولى وعلاقاتها مع كل من العراق والشام والحجاز وعمان وانجلترا والدولة العثمانية ثم مع محمد على باشا والى مصر ٠

وفي اعتقادى أن كتبا تحتوى على مثل هذه المعلومات قمينة بالاهتمام لأنها لا تعتبر مصادر تاريخية واقتصادية فقط ولكنها تعتبر سجلا مهما وقيما ومادة جديدة وأصيلة نادرة تساعد الباحثين على تكوين فكرة واضحة ومتكاملة عن حقبة من تاريخنا لم تعط ما تستحقه من الدراسة والبحث ٠

والله من وراء القصد

كتاب بوركـاردت

الهــــوامشـــــ

(١) من صفحة ٨ ـ ٤٥

(٢) من ص ٤٦ ـ ٥٢

(٣) من ص ٥٣ ـ ٩٣

(٤) من ص ٩٣ ـ ١٣٣

(٥) من ص ١٣٤ ـ ١٧٩

(٦) من ص ١٨٠ ـ ٢٤٥

(٧) من ص ٢٤٦ ـ ٢٩٠

(٨) من ص ٢٩١ ـ ٣١٦

(٩) من ص ٣١٧ ـ ٤٠٩

(١٠) من ص ٤١٠ ـ ٤٢٥

(١١) من ص ٤٢٦ ـ ٤٤١

(١٢) من ص ١ ـ ٣٢

(١٣) من ص ٣٣ ـ ٩٨

(١٤) من ص ٩٩ ـ ١٠٦

(١٥) من ص ١٠٦ ـ ٢٢٦

(١٦) من ٢٢٧ ـ ٢٨٢

(١٧) من ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨

(١٨) من ص ٢٨٨ ـ ٣٨٢ المجلد الاول

(١٩) من ١ ـ ٢٦ (المجلد الثاني)

(٢٠) ص ٢٦ ـ ٤٩

(٢١) ص ٥٠ ـ ٩٢

(٢٢) ص ٩٢ ـ ٩٩

(٢٣) ص ١٠٠

(٢٤) ص ١٠٠ ـ ١٢٠

(٢٥) ص ١٢٠ ـ ١٣١

(٢٦) من ص ١٣١ ـ ١٣٥

(٢٧) ص ١٣٥ ـ ١٥٠

(٢٨) ص ١٥١ ـ ١٦٢

(٢٩) من ص ١٦٢ ـ ١٧٩

(٣٠) من ص ١٨٠ ـ ١٩٧

(٣١) من ص ١٩٧ ـ ٢٠٠

(٣٢) من ص ٢٠٠ ـ ٢٠٧

(٣٣) من ص ٢١١ ـ ٢١٧

(٣٤) من ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

(٣٥) من ص ٢٢٢ ـ ٢٤٥

(٣٦) من ص ٢٤٦ ـ ٢٦٧

(٣٧) من ص ٢٦٨ ـ ٢٨٩

(٣٨) من ص ٢٩٠ ـ ٣٠٠

(٣٩) من ص ٣٠٠ ـ ٣٢١

(٤٠) من ص ٣٢٢ ـ ٣٣٦

(٤١) من ص ٣٣٦ ـ ٣٤١

(٤٢) من ص ٣٤٢ ـ ٣٥٧

رحلات الكابتن وليم آيرفن شيكسبير
في شبه الجزيرة العربية

أحمد العناني

تمهيـــد :

يعتبر وليم آيرفن شيكسبير المعروف بالكابتــن شكسبير من ابرز الرحالة المغامرين الاجانـب في شبـه الجزيرة العربية ، وان جاء دوره متأخرا فيما بين سنتي ١٩٠٩ - ١٩١٥ للميلاد ، ذلك بأنـــه يعتبر الرائـد الاوروبي الاول في مسافة تبلغ الفا ومئتي ميل ضمن كبرى رحلاته التي قطع فيها شبه الجزيرة ما بين الكويـت فالرياض فالجوف فالعقبة فالكونتلا قريبة من الحدود المصرية الفلسطينية في سيناء فالنخل فالسويس ٠ كما كانت له عدة رحلات اخرى بين الكويت وعدة أماكن شملت السدير وزلفي والرياض وغيرها كما قام بجولات بحرية عديدة كان خلالها جميعا يؤدي دور الرحالة والمساح والعالم الطبيعي ورسام الخرائط والسياسى المكلف بمهام بارزة كما يأتي شرح ذلك لاحقا ٠

ومع أن شكسبير لم يحظ بمثل السمعة الذائعة التي نالها بعض الذين سبقوه كدوتى ونيبور وبلجريف أو الذين عاصروه أو جاءوا بعده من الاوروبيين الرحـالة والسياسيين أمثال سينت جون فيلبي ولورنس الا ان المؤلف الاول والوحيد الذي اصدره عنـه المستر ونستون منذ عامـين ، يبرز للعيان قسمات رجل يجـب ان يعتبر أعظم وأهم من سائر الذين استأثروا من دونه بشهرة واسعة كما يصدق فيه فراسه المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود الذي يزعم المؤلف نفسه على لسانه بأنه اعتبره اعظم اوروبي عرفه في حياته كلها (١) ٠ ويعزى عدم ذيوع اسم هذا الرجل الى عدة اسباب منها أن سائر مذكـراته وخرائطـه وصوره قد أودعت في الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وظلت مقصاة عن اهتمامات الباحثين الى حين تعرض لها لاول مـرة دوجـلاس كاروترز الذي وضع بحثا عنوانه « الرحلـة الاخيرة لكابتن شيكسبير » نشره في العـدد الخـامس من المجلـد التاسع والاربعين للمجلة الجغرافية مستخلصا اياه من محفوظات شيكسبير المشار اليها آنفا ، وقـد تضمن البحث وصفا موجزا لرحلة شيكسبير الكبرى والاخيرة ونمـاذج من رسومـاتـه لطبوغرافية الارض في البـاطن (القسم الاسفل من وادى الرمه) فوق حفر ، ورسما آخر لجلاجل وشعيب جلاجل في السدير ولسهول دبدبة جنوب الكويت وللشارع الرئيسي للرياض من ناحية البوابة الشرقية فضلا عن بعض النقوش السبأية التي عثر عليها شكسبير في تاج وحنه قبل ثـلاث سنوات من رحلته الكبرى فرسمها بعناية فائقة عن النقش ٠

كذلك وردت نتف عن شيكسبير في النشرة العربية التي كان يصدرهـا طائفـة من السياسيين الانجليـز المعروفين في مكتب المقيم البريطاني في القاهرة ٠ كما يرد ذكره ورودا شبه عرضي في مؤلفات بعض الانجليـز كديكسون وفيلبي ، وفي بعض المؤلفات العربية ككتاب فؤاد حمزة عن قلب الجزيرة العربية ، وهذا كلام يصور مدى ذهابي في البحث عنه وان كنت موقنا أن أى متعرض لبحث تاريخ الكويت ونجـد في السنـوات الخمس السابقة للحرب العالمية الاولى لا يستطيع أن يتجاهل دور شيكسبير ولا مصرعه في معـركة جـراب اوائل عام ١٩١٥ ٠

من هو شيكسبير

ينفي ونستون أية علاقة بين اسم شيكسبير هذا واسم الشاعر الشهير وليم شيكسبير كمـا يعلل كيفيـة حذف آخر حرف زائد في اسم الشاعر من اسم هذا الرحالة السياسي ، وهو يستقصي تاريخ أسرتـه فيروى انها أسرة متوسطة الحال تخصصت في العمل للادارة الانجليزية في الهنـد ، أما والدتـه التي كـانت طبائعهـا تخالف كثيرا عن طبائع زوجها وهي تدعى آن كارولين ديفيد سون فقد كانت هي الاخرى من عائلة انجليزية استقرت ايضا في البنغال في الهند وكـانت تعمل في استغلال الاراضي الزراعية وفي التجـارة عمومـا ومنها

تجارة العبيد . وكانت شخصية أمه شخصية قوية وارادتها حديدية وأمرها في البيت نافذ على الجميع بما فيهم زوجها ، وقد ولدت شيكسبير هذا في الملتان بالبنجاب أواخر اكتوبر من عام ١٨٧٨ وبذلك فان شيكسبير لم يعش سوى ست وثلاثين سنة وبضعة أشهر .

لقد ولد شيكسبير بعد عامين من اعلان الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند بالاضافة الى لقبها كملكة بريطانيا ، وبذلك فهو قد ولد في أعقاب ما يسمى في التاريخ الانجليزى الحديث بالسنوات الطيبة حيث بلغ الانجليز أوج مجدهم الذي راح ينمو منذ انتصارهم على بونابرت . وكانت والدة شيكسبير تؤمن بتربية أولادها تربية أساسها القوة وعمادها تنوع الكفاءات وبعد المطامح وتتمنى أن تراهم مؤهلين للقيام بمنجزات شاقة تلفت اليهم الانظار ولذلك فقد بارحت الهند تاركة زوجها ومصطحبة أولادها الثلاثة الى بورتسماوث في جنوب انجلتره لتتيح لهم فرصة جيدة للتعليم ولتبعد عنهم ما يكون في الحياة السهلة مع الوالدين من ليونة وعواطف ضعيفة ، وكان وليم الذي نحن بصدده أحب اولادها الثلاثة اليها لانه اشدهم رغبة في ألعاب القوة ، وأصلبهم عزيمة ، واكثرهم ولعا بالمخاطرة واقتحام المجهول . ولما بلغ وليم سن الثانية عشرة واطمأنت بخاصة الى اندماجه فيما تريد له من تربية عادت الى الهند حيث زوجها وشدما سرها لاحقا أن تعلم أن ابنها وليم قد أصبح رئيس فريق كرة القدم في مدرسته ، وقد عادت الى بريطانيا ثانية عندما انهى وليم الثانوية لتختار له كلية في جزيرة مان تعرف بكلية الملك وليم عرفت باهتماماتها الرياضية وتربيتها العسكرية ، وفيها اصبح وليم شيكسبير رئيسا لفريقه في لعبة الرجبي الخشنة كما برز في لعبة الكريكيت ، ومن هناك التحق بكلية ساندهرست العسكرية ليتخرج منها ملازما ثانيا وعمره عشرون سنة ، وليلتحق بخدمة الجيش في بومبي .

وقد حدث اثناء انتشار الكوليرا التي لم تكن تبارح الهند أن قررت السلطات المحلية شن حملة مستميتة للقضاء على الجراذين ضمن حملتها ضد ذلك المرض الوبيل ، وقد اختير الضابط الطويل الصلب وليم آيرفن شيكسبير لقيادة الحملة فلم يكن يهدأ في ليل أو نهار عن اداء ذلك الواجب حتى وصلت أخباره الى سير هنرى مكماهون الذي كان اذ ذاك وزيرا لشئون الهند فأوصى به كوكس المعتمد البريطاني العام أو المقيم العام بالخليج ومن هنا جاءت خدمته في الخليج .

لكن وظيفة مساعد المقيم السياسي التي شغلها شيكسبير لاول مرة عام١٩٠٤ في مسقط ما كانت لتعطى له لمجرد لياقته البدنية خصوصا وان عمره لم يكن يتعدى عندئذ السادسة والعشرين وبذلك كان أصغر قنصل عرفته منطقة الخليج بين سائر الرسميين البريطانيين ولكن شيكسبير كما يقول دوغلاس كاروترز (٢) كان واحدا من اولئك الانجليز الذين كانوا ببادرة من انفسهم يكتسبون سلفا مؤهلات ترشحهم لمهام كبرى في اجهزة الادارة السياسية الحساسة التي حققت فصلا من أبرزفصول البطولات الغربية في تاريخ العلاقات بين آسيا وأوروبا على مدى التاريخ .

ويذكر ونستون (٣) أن شيكسبير كان الى جانب البنجابية يعرف باجادة ملحوظة اللغات الفارسية والاردية والبشتو والانجليزية طبعا والفرنسية كما لفت الانظار بنجاحه عام ١٩٠٢ في الامتحان العالي للغة العربية التي أتقن بعض لهجاتها البدوية اتقانا غريبا .

وليس من السهل ان يتصور المرء رجلا أجنبيا يقدم امتحانا عاليا في اللغة العربية وهو خالي الذهن من أية مناسبة أو فرصة أو تطلع الى العمل في بلاد العرب والاختلاط بهم لأمر ما ، أو مجرد بادرة محضة منه ، وأغلب الظن أن الادارة البريطانية في سملا بالهند كانت على علم بنشاط شيكسبير هذا ، وانها كانت تباركه معتبرة ذلك الشاب مرشحا للعمل في الخليج .

على أن هذا التحفظ الذي أوردته على كلام كاروترز لا ينفي عن شيكسبير شيئا من مزاياه كرجل قوى طلعة يحلم باقتحام المجاهيل وخوض الغمرات ، فقد كانت حمى المجد الامبراطورى تفعل اكثر من فعل الخمر وأشد في رؤوس الشباب الانجليز ولا سيما ابناء الجاليات الانجليزية في الشرق ٠ لقد كانوا يحسون بأنهم شيء يتمايز عن البشر ، وانهم هم الاماثل الذين تقع مسئولية العالم على كاهلهم ٠ كيف لا وقد كانت ابيات لفرجيل شاعر الامبراطورية الرومانية يتغنى فيها بالروماني الذي خلقه الله للحكم فيما خلق الاغريق وابناء الشعوب الاخرى للتعامل مع الخشب والمعادن في صناعةالادوات والتماثيل ، ومن يشأ ان يتفهم حقيقة ما كان يجول في اذهان هؤلاء الرجال فذلك ميسور في شهر تينسون الذي كان يتغنى بعولس أو يوليسيز البطل الاغريقي الذي كان ينشد السفر في البحار الى مطلع الشمس او في شعر روديارد كبلنج شاعر الامبراطورية ولسوف نرى أن شيكسبير كان يختار الاصعب من الامور والاخطر حتى يصل في ذلك حد الجنون ، بل هو لاقى حتفه نتيجة تلك النفسية المستكبرة حين نصح له الملك عبد العزيز بأن يتباعد عن معركة جراب ان كان مصرا على ارتداء ملابسه الاوروبية الامر الذي جعله هدفا سهلا للقتل ٠

أيما كان الحال فان هذا الرجل الذي عرف عنه انه لم يكن يستطيع أن يجلس على كرسي منصب أيا كان لمدة تزيد على خمس دقائق ، ما كاد يصل الى مقر وظيفتهفي مسقط حتى راح يطوف في كل اتجاه من المنطقة فقام برحلات في داخل عمان كما تجول في بلاد اللار وهرمز ولاراك وهنجام من بلدان الساحل الايراني على الخليج وجزر ذلك الساحل ٠

وكان من حسن حظه أن رئيسه في مقيمية الخليجالبريطانية في بوشهر كان رجلا كبير القلب واسع الادراك هو السير بيرسي كوكس الذي لعب دورا ملحوظا في سياسات بريطانيا في البلاد العربية خلال الحرب العظمى الاولى وبعدها ٠

لقد أدرك كوكس انه مع رجل مغامر ممتلىء حماسة ورغبة في الاندفاع والانجاز ناهيك عن مؤهلاته البارزة التي تدعم هدفه الكبير في تحقيق دور رنان في مجال توسيع ودعم النفوذ البريطاني ٠

شيكسبير ذلك المغامر

لم يجد ذلك الشاب الباحث عن المغامرة كبيرهم يشغله في بندر عباس التي كا ننقل اليها من مسقط ، فقد كانت ايران غير محتاجة الى مغامرين يعملون على زيادة تثبيت النفوذ البريطاني فيها فهي في الواقع كانت اوائل القرن الحالي قسمة بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني ، فالروس يبسطون ارادتهم في الشمال والبريطانيون في الجنوب بينما البلاد تعاني الامرين من احوال تعيا الكلمات بوصفها٠ لذلك فما كاد شيكسبير يسمع عن بداية استعمال السيارات في الهند على نطاق ملحوظ حتى سعى عام ١٩٠٧ للانتقال الى حيدر آباد ومن هناك قصد كراتشي واشترى سيارة قرر انيسافر بها برا من الهند الى بريطانيا عبر ايران فتركيا فأوروبا الشرقية ففرنسا ٠

واذا ما عرفنا أوضاع الطرق في تلك الايام ، ونوعية السيارات واذا ما علمنا أن معدل سرعة السيارة مئة كيلو متر باليوم اذا هي نجت من أعطال خطيرة على الطريق ، اذا ما عرفنا ذلك كله وأضفنا اليه مشكلات الأمن على الطريق لا سيما على الحدود الايرانية التركية فان العمل الذي انجزه شيكسبير يعتبر مغامرة بكل ما في الكلمة من معنى ، ومن يقرأ تفاصيل هذه الرحلة يأخذه الدهش من عزيمة ذلك الرجل ، فكم مرة هوت تلك السيارة التعسة بصاحبها وكم مرة توقف لاصلاحها وكم طريق مغمور بثلوج ذائبة او ضيق بلا تعبيد فوق نتوءات وثقوب ٠ وايما كان الحال فقد استأثر شيكسبير باعجاب السفير البريطاني المشهور في اسطنبول السير نيكولاس أوكونور ، كما واتته الفرصة اثناء استراحته بسويسره بالتعرف على عائلة بيارد من الانجليز المقيمين

بالهند والذين كانوا يقضون اجازة ، وهو تعرف افضى الى حب انعقد بينه وبين ابنتهم دوروثيا المثقفة ثقافة عميقة في شئون البلاد العربية فقد كان ابوها الكولونيل اندرو ولسون بيارد عسكريا ولغويا وعالما واداريا ممتازا · وسنجد ان ذلك الحب على عنفوانه لم يستطع ابدا ان ينتصر على حب اكبر منه هو حب المغامرة في نفس ذلك الشاب الطموح · ولم تدرك دوروثيا ولا أدرك هو الا بعد بضع سنوات أنحياتهما لنتكون سعيدة بزواجبينهما ما دام الرجل مشغولا ذلك الانشغال كله بمغامراته وفي نهاية ١٩٠٧ ظهر شيكسبير ثانية بسيارته اياها في حيدر آبـاد بعدما تلقى من والدته فيبريطانيا دفقات اخرى من التشجيع والتحميس لتحقيق انجـازات تجعله علمـا بارزا بين اعلام الامبراطورية ·

شيكسبير بعد ١٩٠٨

كانت اهتمامات بريطانيا وتركيا وروسيا والمانيا القيصرية والولايات المتحدة تتجه جميعا نحو منطقـة الخليج بعدما اتضحت حقيقة غناها بالزيت وكان التوتر الدولي قد بدأ مراحله المبكرة التي افضت الى قيـام الحرب العالمية الاولى · وكانت بريطانيا تحس طبعا بالمنافسة المحمومة لتلك الدول منذ زيارة كـرزون نائب الملك في الهند للمنطقة في اوائل سنوات القرن الحالي،وما ألقى من خطب تهديدية تجاه مساعي الدول الاخرى في الخليج · وبعيد تلك الزيارة عام ١٩٠٤ عينت بريطانيا أول وكيل سياسي لها في الكويت وهو الكولونيل نوكس وكانت الكويت بشكل خاص تبرز سريعا الى قمة الاهتمام عبر مساعي الالمان لايجاد نقطة نهاية للخط الحديدى المقترح توصيله لقطار الشرق السريع حتى الخليج · وفي نطـاق ذلك الاهتمـام ، عين شيكسبـير مساعـدا لبيرسي كوكس المقيم العام للخليـج وذلك لمنصب الوكيل السياسي في الكويت خلفا لنوكس غير انهقبلاستلام المنصبكانعليه قضاء فترة من الوقت فيبوشهر حيث مركز رئيسه ليواصل دراساته عن سياسات الجزيرة العربية وأوضاع المنطقة فيما كان في الوقت نفسه يتلقـى باستمرار رسائل دوروثيـا بيارد التـي اهدته كتاب بلجريف عن رحلـة سنة في أواسط وشرقي الجزيرة العربية ، وقصت عليه حيـاة الليـدى آن بلنت كبرى بنات الشاعر المعروف بايرون والتي كانت وصلت هي وزوجها الى عاصمـة آل رشيد في حـايل فضلا عما كان يتلقاه من والدته من تشجيع ·

وفي سنة ١٩٠٩ أصبح شيكسبير خلفا لنوكس يمارس صلاحياته كوكيل سياسي في الكويت ويطلع الناس على وجه جديد بكل معنى الكلمة ، فقد كان سلفه رجلا هادئا وان كـان فعـالا وفي مستوى المسئوليـة ، لكن الوكيل الشاب الجديد كان اشبه بالعاصفة في عنفوانه ، وقد ظهر بمظهر غاية في الرسمية والابهـة حين قصد لزيارة حاكم الكويت المشهور الشيخ مبارك ، وقبل انـيصبح الرجـلان صديقين اجتـازا فتـرة من التـوتر والاختلاف وقد شغل شيكسبير وظيفته هذه مدى ستسنوات كان في كل واحدة منها يقوم برحلة الى مناطق

٢ ـ المسح الحيواني والنباتي وشمل ذلك اسماء الحيوانات واوصافها ، والنباتات مع حفظ نماذج منها ٠

٣ ـ وصف المعالم الاثرية والبحث عن النقوش والاثار ٠

ثانيا :

عمله السياسي ويشمل

١ ـ المسئولية المباشرة عن العلاقات البريطانية الكويتية ٠

٢ ـ رصد الاوضاع وتغيراتها في الاقسام المجاورة من شبه الجزيرة العربية والاتصال بالزعماء السياسيين ورؤساء القبائل ٠

٣ ـ ترشيد خطى السياسة البريطانية بالنسبة للقوى المتصارعة في نجد وتأثير ذلك على العلاقات البريطانية ـ العثمانية ٠

ثالثا:

قيام صداقة شخصية ورسمية فيما بينه وبين « الملك » عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود نشأت عنها قناعة ثابتة لدى شيكسبير بأن أفضل طريقة لتعامل بريطانيا مع العرب هي قيام وجود عربي مستقل عن الدولة العثمانية وعبارة عن تحالف كونفيدرالي بزعامة الملك عبد العزيز وهي قناعة أدت الى انزعاج وزارة الخارجية البريطانية من شيكسبير وفتور واضح في معاملته الى حين قامت الحرب العالمية ودخلتها تركيا الى جانب المانيا القيصرية ٠

رابعا :

انبعاث الاهتمام بشيكسبير واعادة تعيينه ضابطا سياسيا لواجب خاص في الخليج ، وعودته للاتصال بالملك عبد العزيز ومصرعه في معركة جراب في ٢٤ يناير سنة ١٩١٥ وعمره ست وثلاثون سنة وبضعة أشهر ٠

ولما كانت حياته بعد سنة ١٩٠٩ هي في الواقع قصة رحلاته وعلاقاته السياسية فهي سترد من خلال الحديث عن تلك الرحلات والعلاقات ، التي هي في الواقع صلب الموضوع الذي نحن بصدده ، ولم يكن ما أوردناه سابقا عن حياته سوى التمهيد اللازم للحديث عن تلك الرحلات ٠ وحيث ان الرحلات نفسها كما سنرى لم تكن مجرد رحلات للمعرفة وحدها ولكن ايضا لاجراء الاتصالات السياسية على الطبيعة فانه لا معدى لنا عن افراد فصل خاص بتلك العلاقات ٠

رحلات الكابتن شيكسبير

تمهيد

يصعب تماما اعطاء صيغة واحدة ثابتة لدوافع الاوروبيين في الشرق فمن المعروف انه رغم بروز الدافع الاقتصادى لكسر احتكار العرب لتجارة الشرق الاقصى ، بل وللهيمنة على تلك التجارة وتاليا على بلدان المنشأ لتلك التجارة واستعمارها واستغلال مواردها الاولية من ناحية والافادة منها كأسواق لاستهلاك الصناعات الاوروبية من ناحية أخرى ، أقول انه رغم كل هذه الدوافع الاقتصادية التي واكبت الحروب الصليبية ، والهجوم البرتغالي على طرق التجارة العربية في الخليج والمحيط الهندي ، وتأسيس شركات الهند الشرقية البريطانية والهولندية والفرنسية الا أن أنماطا منوعة من الاوروبيين ممن كان الاستعمار يفيد من مجاهيدهم

فوائد مباشرة أو غير مباشرة قد قدموا خدمات ممتازة في نطاق الابحاث العلمية والتاريخية ، وفي مجالات الاثار واستقراء النصوص الاثرية والنقوش الحجرية والطينية وفي دراسات التاريخ السياسي والتاريخ الطبيعي بسائر فروعه عن الطبيعة والانسان والحيوان والنبات ٠

كذلك فان روح الاستكشاف والمغامرة واقتحام المجهول مما كان يملاء نفوس الكثيرين من الافراد الاوروبيين قد أدت الى منجزات ذات قيمة انسانية لا مراء فيها ٠ وقد اظهر هؤلاء المغامرون تصميما مذهلا في اصطناع كل الوسائل للوصول الى غاياتهم ، ومنها اشهار الاسلام والتزيي بزى أهله والدخول في تفاصيل حياتهم وتدوين أخبارهم وعاداتهم ، واحياء بعض تراثهم ومخطوطاتهم وكشف كثير من الغوامض عن تاريخهم وحضاراتهم ٠

غير ان الاهتمام بنجد ووسط الجزيرة العربية وبالربع الخالي قد جاء متأخرا في نطاق تلك المجاهيد التي أشرنا اليها فان قصة هذه البلاد مع الاوروبيين ما كانت لتبتدىء حتى ولو في مرحلة متأخرة في نهاية القرن الثامن عشر لولا قيام الحركة السلفية ، وتجدد موجة من موجات الانبعاث العجيبة لهذا الدين الحق الحنيف ، وهي لعمري تجسد عبقرية الاسلام وتشير الى خلوده باعتباره الرسالة القادرة على تطهير هذه الامة مما يعلق بها من لوثات الجهل والتخلف أو ينزع بها الى الردة والتفرق ، والى الاحتراب الداخلي والتمزق ٠

لقد شاءت عناية الله أن تنقذ داعية السلفية الجديدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أخطار متعددة بعد عودته من رحلته الدراسية في دمشق ، وحين أتاح الله له الشيخ محمد بن سعود ليؤمن بدعوته ويشد أزره رفع الله شأن الدعوة وحمايتها حتى امكن لهم في الفترة من ١٧٤٥ ميلادية الى حوالي ١٧٧٠ ـ أي خلال ربع قرن من الزمان انشاء دولة لها قوتها المهابة وما ان انتهى القرن الثامن عشر للميلاد حتى أصبحت عاصمتهم في الدرعية مركز دولة متحدة مؤمنة متطهرة من أثام الشرك تكاد تنتظم كامل شبه الجزيرة العربية ، واذا الاوروبيون الذين منذ عهد البرتغاليين قبل ثلاثمئة سنة ظلوا يعيثون فسادا وتدميرا واستغلالا في أرض المسلمين ومياههم أمام قوة مهيبة توشك أن تستنهض همم الموحدين في الارض ليعودوا قوة واحدة وكلمة واحدة ٠

كان ذلك قطعا هو الحافز لاهتمامات الاوروبيين واستغرابهم وتخوفهم وبالتالي قيام مغامرين ورحالين منهم لاستكناه حقيقة هذه القوة التي تفجرت من صحارى العرب ونجودهم ٠ ولعل من أشهر هؤلاء نيبور وسيتزن وبركهارت وسادلر وهيوبر وداوتي ولورد وليدى بلنت والبارون نولدي ونوكس وغيرهم ٠

الرحلة الاولى لشيكسبير

بدأ شيكسبير رحلته الاولى يوم الاثنين ٢٢ نوفمبر تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ فغادر مبنى الوكالة البريطانية الساعة العاشرة صباحا ومعه « الرفيق » خلق الذي لاقى حتفه لاحقا في الرحلة الثانية عام ١٩١٠، وجمدار الجمال والي محمد الهندي ومن أول يوم بدأ يسجل ملاحظاته بطريقة لم يحد عنها طوال رحلاته حتى لقي مصرعه اوائل سنة ١٩١٥ وهذا نص أول كتابة سطرها في مذكراته ٠

« الاتجاه جنوب شرقي فوق منخفضات عارية متموجة الى ان يصل المرء الى قمة عدان الواقع الى الجنوب الشرقي من سيرة ، ينحدر عدان بلطف وتدرج ناحية البحر ، وهناك عدة مجارى مياه جافة أما الارض فعارية حتى سره ، وبعد ذلك يبدأ في الظهور شيء من العرفج قليل ٠ توقفنا الساعة الحادية عشرة لشرب القهوة ٠ المشاهدة الظهرية ١١٦° ٦´ ٣٠″ واصلنا الى حين صلاة الظهر الساعة ٣٠ : ١٢ وفي الساعة

الواحدة عدلنا أحمال الامتعة على الجمال . في الساعة الرابعة والربع أنشأنا أول مخيم لنا في فنطاس والمسافة التي قطعناها خمسة عشر ميلا والمدة ست ساعات وربع معدل السير يعتبر جيدا » .

وعلى هذا الغرار كان هذا الرجل يقوم بقياسات دقيقة ويسجل وصفا علميا خاليا من كل حشو لكل منطقة يدخلها مع النطق البدوى الصحيح لاسماء المواقع وكانت الرحلة الاولى كما يقول كاروترز (٤) رحلة استطلاعية لمدة ٧٥ ميلا الى الجنوب من الكويت مرورا بالاراضي الواقعة بين السهل الساحلي الكويتي ومنخفض الشق .

وكان نوكس قد زار ذلك الجزء عام ١٩٠٨ ولكن شيكسبير قدم معلومات واضحة وجديدة عن منخفض الشق .

ويضيف وينستون بأن الرحلة لم تذهب الى ابعد من الفنطاس على الساحل ثم اتجهت داخلا الى أرض برقان المرتفعة في مسيرات مثلثية ومستطيلة حتى انتهت الى الشق وهو منخفض يتجه من الشمال الى الجنوب ويحوى بعض المناطق الوعرة .

وقبيل نهاية الشهر اتجه الركب شمالا على طول منخفض الشق ثم شرقا الى آبار الصبيحيه ثم شمالا ثانية على منخفضات رملية حتى تلة تسمى صعدة حيث نصبوا مخيمهم الثاني عشر وفي اليوم الثالث عشر التقى شيكسبير ببعض شيوخ المطير وعلى رأسهم فيصل بن الدويش كانوا خارجين للقنص وانعقدت صلة طيبة بين الرجلين شيكسبير وفيصل . وقد أطلق شيكسبير صقره للصيد مع صقور المطير .

ومع أن أبعد مدى للرحلة لم يزد على ٧٥ كيلو مترا لكن مجموعة مسيراتها بلغت ٢٣٦ ميلا قطعها ركب شيكسبير في ٨٢ ساعة .

وكان الرائد الانجليزي يستخدم لركوبه ناقةظلت معه الى نهاية رحلاته وكان يطلق عليها اسم ظبيه وقد جعل لها رحلا وحمائل مزخرفة ومفضضة كما كان مهتما بالقنص ولديه صقر ومجموعة من كلاب السلق المستخدمة في الصيد ، وكان يحرص على المظاهر الرسمية في لقاءاته مع شخصيات المنطقة .

الرحلة الثانية ولقاء « الملك » عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل عام ١٩١٠

بدأت هذه الرحلة في وقت متأخر من يناير ١٩١٠ متجهة من مدينة الكويت الى الصفا عبر قفار « دبدبة » الخالية من الماء والتضاريس ، ومن ثم الى آبار الحفر ثم عودا على امتداد الباطن وهو منطقة طويلة جافة تمتد من جنوب غربي البصرة الى أعماق نجد ، ولم يأخذ شيكسبير معه أية عدد للصيد هذه المرة ، ولكنه كان مجهزا بأدوات الدراسة وعمل الخرائط . وقبيل نهاية الشهر نفسه وصل الركب الى موقع يدعى « ثميلة التركي » شرقي وادى الشق في منطقة شملتها الرحلة الاولى ثم اتجه جنوبا غربيا لمسيرة مئة ميل عبر منخفض الشق وفي الصحراء المجهولة المفضية الى الصفا ، وكان شيكسبير يحدد موقع السير بالنظر للشمس ويدون كل ظاهرة يشاهدها ، وكل صغيرة وكبيرة بشأن التضاريس والمناخ والمواقع وسرعان ما هبت على السفر هناك ريح الشمال تذرو الرمال عليهم فصار الوقوف صعبا كما هو السير لأن أوتاد الخيام لا تستطيع الثبات في الرمل الناعم مع هبوب الريح ، وصاروا يتشبثون بقماش الخيام لئلا تطير مع الريح . ثم اتجهوا الى اليمين في منخفض كانوا يأملون أن يجدوا به ملاذا لكن الريح في الليل ازدادت شدة كما نزل المطر فزاد ذلك من صعوبة موقفهم كما كانت الخيام تتقوض بين فترة واخرى ولم يكونوا خلال الليل متأكدين من موقعهم وان كانوا يعلمون انهم متوجهون الى صحراء « القارة » .

رحلات الكـابتن وليم آيرفن شيكسبير

وفي اليوم الخامس من الرحلة بدأوا ينحدرون الى حـوض الصفا داخلين واديـا اسمه شعيب الفيصل غربي حوض أبو القـاع وبعد مسيرة ستين ساعـة لم تتخللها راحة أو طعـام معقولان للجمـال ارتحلـوا الى موقع « تل الفسقه » حيث المرعى جيد ٠

وخلال الليل وقع اعتداء على المخيم لكن حرسه من العجمـان لم يستطيعوا التفاهم مـع ابنـاء عمومتهم المهاجمين الا بعد أن اردت رصاصة طائشة الرفيق « خلق » الامر الذي تأثر له الجميع ولا سيما شيكسبير ٠ وبعد دفن القتيل اتجـه السفر الى موقـع الحفر عبر صحراء سبهان فقطعوا ستين ميلا في يومين ولم يمروا سوى بموقع واحد مأهول هو مسجد الرشيد وكانوا قد تزودوا بالماء جيدا من الحفر بعد أربعة عشر يوما مجهدة من السير في تلك الظروف المناخية المتعبه ٠

وأصر شيكسبير على مواصلة السير رغم اعتراضات بعض رجاله الى أن مروا على موقع « قصر بلال » وتلال « الخارجه » التي تفضي الى آبار الريغيه ، ومن ثم واصلوا السير حتى خيموا في يومهم السابع عشر على أطلال سد مائي فيه آثار لمجموعة برك قديمة في موقع قلبان ، وهنا يصبح الشق قليل العمق فاتجهوا فيـه نحـو الجانب الغربي حتى وصلوا الى موقع حلايبه ، وهنـاك توقف شيكسبير ليدرس آثار جدران مهدمة وآبار جافة وجذوع نخـل منقعر ، مما يدل جميعه على تواجد سكان ذات يوم في تلك التخوم ، وهكذا وصل شيكسبير الى موقع مخيم سلفه نوكس في عام ١٩٠٦ ٠ وفي ذلك الموقع التقى الركب بجماعة من الشيوخ بينهم الشيخ جابر بن مبارك كانوا تبعوهم لاخبارهم بأن الملك عبد العزيز بن سعود كان عندئذ في الكويت ، ومع اهتمـام شيكسبير بسرعة العودة لكنه لم يهمل شيئا من اهتمـامه بالمواقع وتضبيط تسجيلاته ٠ ولدى عودة شيكسبير الى الكويت سارع لحضور عشاء اعـده الشيخ مبارك لضيفه الكبير ، وسجل ليلتها اولى انطباعاته عن الملك السعودى بأنه شاب في سن الحادية والثلاثين طويل وجميل وانسان كبير القلب بالغ التهذيب كما أن وجهه يعكس ما في نفسه من قوة وصرامة ووضوح قصد ٠

وفي اليوم التالي اقام شيكسبير دعوة حافلة للملك وسجل يومها ايضا انطباعاته الاخرى عن الملك فكتب يقول « لقد وجدت في عبـد العزيز رجلا نبيلا كريمـا لا يمكن اطلاقا أن يسمح لخاطره بالانشغال بسفاسف الامـور » ٠

ويقول كـاروترز فـي تقييمـه لنتائج هـذه الرحلـة « ان شيكسبير الـذي وصل اولا الى الصفـا في منتصف الطريق الى زلفي حيث اتجه لا حقا الى حفر وهي احدى مصادر المياه الاساسية في الباطن ــ أو وادى الرمة الاسفل ــ متتبعا اياه الى النقطة التي يتدفق فيهاعلى سهل الزبير قد قدم لاول مرة فكرة حقيقية عن الجزء الاسفل لهذا المجرى الذي يمتد عبر ٨٠٠ ــ ٩٠٠ ميل في شبه الجزيرة العربية ٠ وقد بلغت مسافة المسيرة في هذه الرحلة اربعمائة وخمسين ميلا » ٠

جـولة قصيرة

ابتدأت هذه الجولة من الجهرا الى الروضتين حيثكانت الرياح شديدة والامطار تهطل واتجه الركب الى سلسلة تلال الحمر حيث الماء كان بمقربة منها في بوبيان ووصل السفر في اليوم الرابع الى مسافـة ميلين من موقع الزبير وهناك حصل سطو على جمال وامتعة القافلة وقد احتج شيكسبير لدى سلطات البلدية في الزبير وقرر العودة من هناك الى الكويت ٠

الرحلة الثالثـة

في ٧ يناير من عام ١٩١١ قام شيكسبير برحلـة ثالثة طويلة ليواصل اكتشافه في مناطق جديدة باتجاه الجنوب الشرقي لم يكن وصل اليها نوكس أو بيللي قبل ان يعـود على نفس الطـريق التي سلكهـا المقيـم السياسي في الخليج لويس بيللي اياه عام ١٨٦٥ وقد أخذ شيكسبير مراكزه الفلكية في هذه الرحلة من ١٦ نقطة من نقاط خط العرض بواسطة آلة السداسي والافق الاصطناعي ٠ وكان هدف شيكسبير هو ملاقاة الملك عبد العزيز لدى وصوله المقرر الى الاحساء ، وقد أعد نفسه اعدادا جيدا لعلمه بأنـه سيجتـاز منطقـة شبه مجهولة يحدها شرقا ساحل الاحساء وغربا حزام صحراء الدهناء ، وهي منطقة عرفها سترابـو وسمع عنهـا الاغريق والرومان من معلومات أتيمو دوروس الذي أشار الى موقع « الجرعـاء » وتحدث عن تواحد معدن الفضة

الرأى السائد بأنهم تأسسوا في شمال شرقي الجزيرة العربية قبل ان يظهروا في جنوبيها ـ الغربي ، ولكن هذه النقوش هي أول أثر منهم يعثر عليه في شمال ـ شرقي الجزيرة ·

حل النقش الاول « كهف وضريح شيبام ابنة لهي ابن وهب الذي أمرأته هي ابنة ··· » واسم شيبام معروف في جنوبي شبه الجزيرة وفي العربية الدارجة ، أما كلمة كهف فهي من شمال شبه الجزيرة وورودها في النقوش السبأية أمر مستجد اما كلمة زوجة فهي واردة في كل النقوش ولكنها ترد على شكل اسم جمع دون المفرد في سائر النقوش الاخرى ·

ويذكر ونستون ان هذه الرحلة شملت مسافة ٥٩٧ ميلا خلال مسيرات مجموعها ٢٠٥ ساعات ·

الرحلة الرابعة

في ٢٤ مارس من عام ١٩١٢ قام شيكسبير برحلة رابعة باتجاه جنوبي غربي وذلك لتأكيد بعض المعلومات الخاصة بالجزء الاسفل من منخفض الشق كما يقول كاروثرز وكان خط الرحلة من الكويت الى سيرة الى تلة يسميها واره ثم الى آبار القاع في النهاية الشمالية للشق ثم باتجاه الكويت الى الزور ثم على ساحل البحر الى الخويصات ·

واستغرقت هذه الرحلة خمسة عشر يوما حيث كانت العودة في نهاية الاسبوع الاول من ابريل (نيسان) ١٩١٢ ·

الرحلة الخامسة

تتضح منذ سنة ١٩١٢ خطوط العزيمة التي عقد شيكسبير قلبه عليها للقيام برحلته الكبرى عبر شبه الجزيرة العربية بهذه الرحلات التمهيدية ، وبالمعاونة التي قدمها للرحالة الدانماركي باركلي راونكاير Barklay Raunkiaer ليقوم برحلته حتى مجمع في منطقة السدير وكانت حكومة الهند قد رفضت طلبا للجمعية الجغرافية الملكية الدانيماركية لتمويل رحلة في هذه المناطق فقام رانكاير بمغامرته على مسئوليته الشخصية ولقى في ذلك دعما من شيكسبير وزميله المقيم البريطاني في البصرة ومؤلف دليل الخليج لوريمر الامر الذي استوجب تأنيبهما على ذلك ·

وايما كان الحال فقد انتفع شيكسبير كثيرا بتجربة راونكاير وملاحظاته ، كما كان يقوم برحلات بحرية ملاصقة للساحل الكويتي باتجاه الجنوب في صدد عزيمته تلك وكان يستخدم اليخت لويس بيللى وقد وصل الى جزيرة كبار ضمن ترتيباته للرحلة الكبرى ·

بدأت الرحلة الخامسة في ٨ آذار ١٩١٣ وهي تقصد الدهناء ذلك الحزام الرملي الواقع بين النفود شمالا ورمال نجد في الجنوب على هيئة هلال واسع · وقد عبر الركب الشق ثم انحدر الى السمان حيث تختلط التربة بين سهول رملية وتلال متغايرة العلو وفي الحالين كان التقدم بطيئا ، ولكن حالما دخل السفر الدهناء تقدمت خطاهم حتى قطعوا خلال ١٧ يوما مسافة ثلاثمئة ميل ·

ونرى شيكسبير يهتم بأصغر الملاحظات هنا حتى لون الرمال وهل هو قرمزي أو برتقالي ، وبمدى انتشار العوسج أو العرفج وانواع الخضرة النباتية وكثرة الغزلان في تلك المنطقة التي كانت تستخدم لرعي قطعان الجمال التابعة للملك عبد العزيز ، وقد استفاد في خلال هذه الرحلة بملاحظات بيللي وراونكاير اللذين سبقاه في الوصول الى مدينة مجمع الخصبة ، وهناك ترك شيكسبير رجاله في مخيمهم الخامس عشر وتوجه الى موقع حرمه المجاور حيث التقى بشخص كان على معرفة جيدة به في الكويت هو عبد الله بن عسكر الذي أعلمه ان الملك السعودى كان مخيما في خفس على بعد ستين ميلا الى الجنوب من مخيم شيكسبير ·

ويبدو انه لم يكن مخولا بالاتصال بالملك عبد العزيز فهو يعترف بأنه أوخذ كثيرا على توجهه عندئذ عبر اطراف التلال الى موقع التماير فسلسلة تلال عزه واخيرا الى خفس حيث مكث خمسة ايام من ٣٠ مارس ـ ٤ ابريل ·

ومع ان ونستون يقول ان احدا لم يعرف شيئا عما عساه يكون قد جرى من حديث مع الملك عبد العزيز الا أن احدى الوثائق الانجليزية (٥) تتضمن ما يمكن تسميته بمحاضر لقاءات شيكسبير مع الملك مما سنعرض له في مكانه من هذا البحث · والظاهر أن هذا القسم من احاديث شيكسبير مع الملك لم يكن بين ملاحظاته المودعة في الجمعية الملكية الجغرافية ·

الرحلة الكبرى السادسة عبر شبه الجزيرة العربية ٣ فبراير شباط ١٩١٤

كانت قد حدثت تطورات سياسية وتغيرات ملحوظة في المنطقة قبل البدء بهذه الرحلة التي أعقبت استعادة الملك عبد العزيز للاحساء ، وكان شيكسبير يعاني كثيرا من انتقادات توجه له لحماسته المتوقده للملك عبد العزيز ، وما يجد فيها البعض من احراج لسياسة الوفاق البريطانية ـ العثمانية ، ولكن شيكسبير كان ينظر الى الرحلة المزمعة بمنتهي الحماسة والاصرار وسيرد تفصيل هذه المقدمات في موقعها المتعلق بعلاقات شيكسبير بالملك لاحقا ·

وايما كان الحال فان رجلا يدعى الزعيم (الكولونيل) جراى كان قد عين خلفا لشيكسبير في الوكالة البريطانية في الكويت عندما بدأ شيكسبير مغامرته الكبرى ·

كان الركب هذه المرة يتألف من أحد عشر رجلا وسبعة جمال (رواحل للركوب) وأحد عشر جملا للحمل ، وبعض الخراف لذبحها للاكل على الطريق ·

فصلت العير من موقع الجهرة الى بندر الشيوخ ثم اخذت تتابع طريق القوافل المتجهة من الكويت الى بريده ، وكان خروجها في الساعة التاسعة والنصف صباح ٣ فبراير ١٩١٤ ولم تقطع في اليوم الاول سوى مسافة قصيرة نسبيا لاضطرارها للتخييم بسبب اشتداد المطر·

في ثالث أيام الرحلة اصبح الركب على بعد ستين ميلا من الريغية وقد سبقوا قافلة بريدة ورغم شدة الريح والمطر كان شيكسبير مواظبا في أخذ سائر قياساته التي اعتاد عليها وتشمل الحرارة والعلو والاتجاه فضلا عن الملاحظات الخاصة بوصف الارض ومختلف الظاهرات الملفتة للنظر أو الضرورية ، وكان دائبا على ذلك رغم قسوة الظروف الجوية الناشئة عن حركة الرياح والغبار والامطار ·

ولم يستطع شيكسبير وصحبه حين وصلوا الى آبار ريغية في ٨ فبراير أن يحصلوا على اكثر من قربة ماء واحده حيث كان رجال المطير يقفون بالسلاح على آبار ريغية ·

وهكذا فقد استمرت القافلة على امتداد الباطن عبر صحراء دبدبه وكل من فيها يشكو العطش والتعب والجوع ومع ان سقوط المطر كان ينعشهم الا ان الرياح كانت تؤثر على الخيام تأثيرا يؤدى الى زيادة اجهادهم· وفي هذه الاثناء فقدوا الاتصال مع قافلة بريده التي سبقتهم ·

وشهدهم يوم ١٢ فبراير وهم ما يزالون في دبدبه في تاسع أيام رحلتهم في أرض قاحلة خالية من التضاريس ينحدر فيها وادى الباطن حوالي مئتي قدم عن منسوب الصحراء من الجانبين وقد مروا بقصر بلال الى ان وصلوا الى حفر يوم ١٣ فبراير حيث يوجد أربعون بئرا موزعة في سهل دائرى ٠

وخرجوا من هناك ليجدوا أنفسهم في منطقة لم يصل اليها المطر منحدرين في نهاية منخفض الباطن الذي هو امتداد لوادى الرمه وراء حفر ٠

وفي يوم ١٧ فبراير مروا بقرية الارطاوية حيث تكثر الخرائب القديمة والابار المهجورة وعند نهاية الباطن انتهوا الى مجرى ماء جاف تغزر فيه الاعشاب وخيموا في قلبان حيث بدأوا يدخلون منطقة النفوذ ذات الرمال الحمراء ٠ وقد شاهدوا أطلال مخيم لبني طوالا من قبيلة شمر ٠

وقد قاس شيكسبير بئرا قديمة هناك فبلغ عمقها ٢٣٨ قدما وقد شاهدوا في المنطقة آثار بيوت كثيرة جدا وبركة على شكل خزان ماء دائرى ضخم قطره يتراوح بين ٧٠ ـ ٨٠ قدما وهو مبنى من الكلس والحصا بسماكة ٨ أقدام للجدار ٠

وفي يوم ٢٠ شباط وصلوا الى عجيبه فأصبحوا أمام عنق الحزام الرملي المسمى بالدهناء وامتداده ستمئة ميل ٠

في يوم ٢٢ شباط أخذوا يتجهون جنوبا على زوايا قائمة من مسيرتهم الاولى وشاهدوا راعي اغنام من عنيزه ، واستمر الحال شاقا في مسيرتهم وهم يجتازون تلال السيريات ورمال العصيه الحمراء الناعمة ويعانون من قلة الماء وبرد الصحراء ٠

في يوم ٢٥ شباط اقتربوا من زلفى واحة السدير الغنية فخيموا على حافة الطريق الذي يسميه بلجريف « قوقاز البلاد العربية » وفي يوم ٢٦ وقفوا على قمة طويق وقد امتد الوادى من تحتهم تطرز حواشيه هنا وهناك حدائق النخيل وصفرة سنابل القمح وقد بدتزلفى من امامهم ٠

ولاحظ شيكسبير بأسلوبه المدقق بعض ما فشل بلجريف في ملاحظته كحقيقة ارتفاع طويق ووصف القرى المجاوره ، وكون زلفي مؤلفة من قسمين كلاهماسور وهما متباعدان بمسافة ميل فالقديمة وتدعى شماليه قلعة تحيط بها مدينة مقصود بها الدفاع عن القرى من خلفها والاخرى كان اسمها القديم جمبرا وهي احدث من زميلتها وبها حدائق النخيل ٠ ويتحدث شيكسبير مطولا عن بعض الشخصيات الهامة ممن التقى بهم في قرى السدير ٠

وتأخذ الرحلة طريقها في ٢٨ شباط من الطويق الى النفود وسيق الغاط في أولى مراحل سيرها ويتحدث شيكسبير هنا ايضا عن سعد السديرى وعن الخير الذى يتقلب في اعطافه وكرمه الجم ، كما يكذب رواية بلجريف عن وجود فاكهة الرمان هناك حيث لا يوجد الا النخل علاوة على الخضروات ٠ وكان الطريق الذي سلكه من غاط الى مجمع عبر ممر ضيق لم يتحرك خلاله قبله احد من الاوروبيين وهناك اهتم شيكسبير برسم الخرائط الواضحة لثماني عشرة قرية سديرية كما عمل تسجيلات بارو مترية وهبسو مترية (اى قياس الارتفاع منسوبا الى درجة غليان الماء) كما قدم وصفا دقيقا لروافد وادى السدير الذي كانوقتها جافا مصححا الاعتقاد القائل بأنه اعلى من مرتفعات طويق ، ومبينا ان منابع الوادى تأتي من حدود الوشم والعارض وتمتد شمالا لمئة ميل الى ان تحتجزها رمال الدهناء وكانت قياساته من الدقة بحيث مكنت واضعي الخرائط من اتقان عملهم عن المنطقة ٠

وبحدود ٨ مارس كان الركب يتحرك على أرض قاحلة الى ان انتهـى الى بنيان حيـث وجدوا بئرا وستـة بيوت وعشرة رجال وبعض حقول القمح ٠ وفي ٩ مارس بدت لهم الرياض من البعد ورأوا رجالا ذاهبين لاحضار قطعان الملك من مرعاها في الدهناء وذلك معناه التهيؤ لحركة ما ، وكان دخول بلجـريف للريـاض من نفس الزاوية التي دخل منها شيكسبير ومن هنا فانه ترك وصف المدينة لسلفه الاقدر منه في هذه الامور ٠

ولاقى الركب ترحيبا جيـدا في الرياض وطفق شيكسبير يصور حركة عمـرانية ناشطة لاعادة بنـاء قصور الاسرة الحاكمة التي كان الرشيديون هدموها خلال فتـرة استيلائهم على الحكـم ٠ كمـا لاحظ اقبـال السعوديين على الكاميرا عكس ما كان في الكويت وثاج ٠

وتحرك الركب من الرياض في أعقاب حملـة غازية للملك لمدة ثلاثة أيام فلما فصلوا عنها منحهم الملك ٣ أدلاء ممتازين شمرى يدعى ثامر ومطيرى وعتيبي وعادوا أدراجهم الان الى بنيان ثم اتخذوا من هناك طريقهم الى ملحم وشعيب فجنه في طريق موحشة صادفهم فيها ثعبان صحراوى تغلبوا عليه ، ومـع ان كلا من رينـو دى شاتيون وسادلير وبيللي وبلجريف وراونكاير وليشمان قد سبقوا شيكسبير لتلك الارض لكنه هو الذي دون ورسم ليجعل من المنطقة أمرا معروفا علميا ، ويصف شيكسبير واحة ملحم طبوغرافية وسكانا وصفا جيدا ٠ وعلى مقربة منها وجد الرحالة ان سلفه تحدث عن جـرينا وحريمله على انهما مزدحمتان بالسكان واعطى الاخيرة عشرة آلاف نسمة بينما يصر شيكسبير على انهم يناهزون الثلاثة آلاف وحريمله كلهـا حديقة جميلـة حافلة بالليمون والبرتقال والتين والرمان عدا انواع التمر وهي مسقط رأس الامام محمد بن عبد الـوهاب مجـدد الفكر الديني مؤسس الحركة السلفية ٠

ومن هناك تحرك الركب الى تـادق التي يصفها شيكسبير بانها هضبة عالية عارية فيما تطوع بلجريف ليقول انها مركز تجارة واعمال ، وهي في الواقع قمة طويق التي تمتد بعيدا نحو الجنوب حتى تنماث في بداية الربع الخالي ٠

وشهد منتصف آذار ركب شيكسبير في منخفض شعيب ام سدر ومن ورائه تبدو رمال النفود وقد خيم في قرية شقره وقد سهر ليلة مع الامير محمد بن سعود وسمع في السهر احاديث لم يغفل تسجيل شيء منهـا وكلها تتحدث عن عادات القبائل وقصصهم ٠

ثم يدخل الركب اراضي عنيزة مواصلا سيره في نفود السير بمعدل ١٦ ميلا كل ست ساعات ويـدون مشاهداته عن قرى مبعثرة ومـزارع محصنة في تلك المنطقة المالحة الميـاه التي ربمـا كان البـارون نولدى الاوروبي الوحيد الذي سبقه اليها واشتدت أزمة التعب ونقصان الميـاه في مناخ مجهد بعد ذلـك حتى وصل الركب الى قرية مذنب ثم اجتاز أرضا مكسوة بقشرة كلسية صلبة حتى وصل الى شعيب الوزان ٠

وفي ٢٦ مارس شاهد الركب عنيزة التي يسميها المدينة العظيمة على حدود القصيم في الطرف الشرقي لوادي الرمه الذي يصل عرضه الى اكثر من ميل وعمقه الى ٩ أقدام غب المطر الغزير ولذلك تتوفر المياه هناك وكان مضيف الركب هو صالـح بن زامـل ٠ ويمتدح شيكسبير المستوى الحضارى لعنيزه ويقول انها اعادت له جو الحواضر الضخمة بكثرة رجال الاعمـال وتقدم مستوى المعيشة ٠

في ٢٨ مارس تحرك الركب الى بريده مدينـة القصيم الهامة الثانية وحيث كان الطقس قـد اشتدت حرارته فقد كان السفر مجهدا قبل الوصول ، وبينما كان دوتي قـد وصف مراعـي الجمال البكر بين عنيزة وبريده فان شيكسبير استخرج ادواته لمواصلة قياساته وفحوصاته ومع ذلك فلـم يفتـه ان يشيد بروعـة اخضرار البلد الذي فضله على كـل بلد سافر اليه حياته كلها ٠

وايما كان الحال فقد خرج الركب من القصيم الحضرية الى القصيم البدوية وكان قد اختار السفر من القصيم الى الجوف عبر سهول بطار وعصيه ثم من منطقة شرقي جبل شمر ثم على كامل امتداد الحدود الشرقية والشمالية لصحراء النفود مجتازا مئات الاميال من أرض قفر موحشه ومرض شيكسبير وبعض رفاقه من رداءة الطعام ، وقد تعرضوا لهبوب ريح الشمال مما أمرض حلوقهم كما كان طعامهم رديئا وأما الماء فكدر ملح ولكن لا سبيل الى شيء افضل فكان لا بد من السير مهما بلغ الضنا وقد مروا بموقع سماه الرحالة ستونهنج البلاد العربية (اشارة الى موقع أثرى قديم فيه صخور ضخمة في بريطانيا) ، وهو مكان يسميه البدو حصاة النساله ٠

وفي ٥ نيسان توغل الركب في رمال البطار عند مديرج وكان عليهم هنا شراء جمال ناشطه بدل جمالهم المجهده والحصول على ما يسمى في الرحلات بالعقيل ــ وعلى جمالين ، وما يزال الماء سيئا جدا ، وواصلوا السير فوق رمال البطار الى ان وصلوا الى موقع يسمى زرد على درب زبيده ــ في طريق الحجيج القديم ٠ وفي قلب النفود كان علو التموجات الرملية يصل الى ثلاثمئة قدم متشكلا منها سلاسل من التلال ثم اخذ الركب طريقا قطريا (مقاطعه) عبر جبل شمر الى الجوف وهنا لم تجد كثيرا التكهنات الناتجة عن حسابات شيكسبير واصبح الادلاء يلعبون الدور الاساسي في تسيير القافلة وهكذا وفي النصف الثاني من ابريل اصبح الركب متوغلا في منطقة شمر حيث لا يحصل على قطرة ماء بغير اذن حراس الابار من الرشيديين وكان تأثير الرحلة شديدا حتى فر بعض الرفقاء ووقع عبء كبير من العمل على العدد القليل المخلص من الرجال كما مرضت ناقة شيكسبير الظبيه فراح يعالجها بالادوية ٠

ولما وصلوا الى موقع الحبانية سمعوا اخبارا مذهلة عن مذابح الرشيديين في بعضهم وقد شملت الاحداث فيمن شملتهم زامل بن سبحان الوصي على مشيخة سعود بن رشيد الرشيدي ، ويشكو شيكسبير الذي قدم نفسه للناس في شمر على انه رجل ينشد شراء الخيل من تسرب الادلاء والجمال والعديد من مشكلات السير ولا سيما الريح التي اضطرتهم يوم ٢٢ ابريل لتقويض مخيمهم والمنام في العراء ومع ذلك ظل شيكسبير يواصل قياساته البارومترية وغلي المياه لقياس الارتفاعات ٠

واصبح اتجاههم في اخر المراحل الى الجوف شماليا شرقيا وقد وفقوا كثيرا حين التقوا بشاب من دمشق تاجر عرض عليهم ان يزودهم بالجمال والادلاء وسائر خدمات السفر وقد وفى بوعده وخفف كثيرا من المشكلات واجتاز الركب آبار خب لبه وبعض القرى المهجورة ومنها قصر اظفه حيث كانت هناك بئر واحدة ردمها ابن رشيد نكاية في منافسيه من فرع الروله من قبيلة عنيزة* المنافسة لال رشيد ابناء عمومتهم ٠ ويذكر شيكسبير انه التقى برجل اسمه محمد رواف يصفه بانه عابر سبيل فوجد انه كان مسؤولا عن قسم الجمال في معرض بشيكاغو قبل خمس عشرة سنة فأخبره ان اوروبيا قد سبقه الى المنطقة قادما من تبوك الى تيما فحايل في مهمة سياسية للاتراك الى ابن رشيد ٠

ثم انتهى بهم السير الى ارض رملية مواتية للسير فمروا بحجارة وقد وجد بعض البدو الذين معه ثمانية من صغار الذئاب فاختار شيكسبير واحدة منها ألحقها بالركب وصار يعطيها لبن الغنم ٠ وقد ساءت صحة الرحالة كثيرا في هذه المرحلة واضطر لقلع احد اضراسه بطريقة بدائية وقبل ان تنتهي مسيرتهم الى الجوف في ٢٨ نيسان لاقوا عنتا شديدا من هجمة سرب من الجراد ، وكان دخولهم الى البلدة عبر ارض فيها حجر شبيه بحجر مجمع ــ اي كلس ابيض ــ فيما كانت عروق اخرى من الحجارة تبدو في ألوان منوعة ــ رمادي واخضر وابيض كلسي ــ وحين دعاهم سلطان بن نواف بن نوري الشعلان زعيم الرولة منعرب عنيزة* الى وليمة من اللحم والارز احسوا لذلك بسعادة بالغة ٠

(★) كذا بالاصل « عنيزة » والصحيح « عنزة » القبيلة المعروفة (المحرر) ٠

ويشيد شيكسبير بقوة الرولة ولكنه يشير الى ان نزاعهم مع الشمريين ابناء عمهم كان مصدر ضعف لفرعي عنيزة ، ويتحدث شيكسبير باسهاب عن الرولة واعدادهم واعداد مواشيهم وفروع قبائلهم، وخلال اقامته بالجوف التي غادرها في الثلاثين من نيسان١٩١٤ تبرع بخدماته كطبيب لكنه وقف حائرا عندما عرض عليه مجنون من القبيلة لمعالجته .

وفي أيار (مايو) بدأ الركب يخرج من منطقة النفوذ ليدخل الحرات ذات الحجارة السوداء والبركانية ولم يكن سهلا عليهم متابعة السير وفق تقديرات شيكسبير وخرائطه ولذلك كان لا بد من الركون الى ادلاء القافلة من عرب الحويطات ميممين شطر مقر الشيخ عوده بن تايه شيخ تلك القبيلة وكانت المسيرة على سهل صواني مؤلم وقد احتملت ثلاثة ايام بدل يومين بسبب غدر بعض الادلة الذين اغروا بالقافلة بعض صعاليك قبيلة الحويطات مما جعلها تتخذ مسيرتها تحت جنح الظلام وباقصى ما هو ممكن من الاحتياط ، وهنا انفصل بعض خلصاء شيكسبير من خدم القافلة اخذين قسما من مهمات السفر الزائدة الى دمشق ولم يبق مع القافلة ممن خرجوا ابتداء من الكويت سوى شخصين .

ويقدم شيكسبير لعودة بن تايه صورة تغاير التي يرسمها لـه لورانس في اعمدة الحكمة السبعة ـ باستثناء حديثهما عن طمعه في المال وفي حالة شيكسبير فان عودة لـم يترك لـه سوى سبع جنيهات لتعينه على الوصول الى حدود مصر كما اخذ منه عدة ناقته ظبية وسرجها المفضفض ولذا نراه يرسم لعودة صورة قاتمة الخطوط .

وفي ٧ مايو اقتنع شيكسبير كما لم يقتنع لاحقا امام خطر معركة جراب التي صرع خلالها ، بأن يرتدي الكوفية والعقال كوسيلة من وسائل الحماية في وجه غارات بدو الحويطات المحتملة وقد اجتاز الركب وهو يحس بذلك الخطر وادى السرحان متوقفا عند ابار العرفجية حيث شربوا واستراحوا لكنهم لم يجرأوا على نصب الخيام خشية خطر المعتدين من البدو ، ولم يكن قد عبرذلك الوادي من الاوروبيين قبله سوى آيلمر AYLMER وبتلر سنة ١٩٠٧ ، وقد عاد الرحالة وكثير من رجاله الى المقاساة الشديدة في الطريق بين الجوف والعقبة فالارض ذات الحجارة الحمر والسود لا عشب فيها وانفه تقشر من مصادمة حرارة الشمس وجسمه اضحى مهلهلا. فيما كان في الليل يعاني من شدة البرد في حين كانت الرمال تملأ عينيه وشعر رأسه وفمه وانفه بذراتها المتطايرة .

ورغم ذلك كله فهو يواصل بلا كلل او ملالة عمله الدائب في رسم المواقع وتصويرها وقياساتها عند تلال طبيق التي افضت بهم الى ممر صخري صاعد الى موقع سنام الوعر حيث كان رجاله يرتجفون هلعا من توقع هجوم اللصوص عليهم فيما هم يختفون بالنهار ويسافرون ليلا .

وييمم الركب نحو سكة حديد الحجاز مارا ببيوت شعر قليلة متناثرة لعرب الحويطات تعرضوا بعد المرور عليها لهجمة كانوا متيقظين لها فأبعدوا اللصوص عنهم في الوقت المناسب ، ولم يكن الا حين وصلوا الى موقع البويب حين اخذت الجمال تجد حاجتها من الطعام من شجيرة شائعة في المنطقة وفي ١٢ مايو ولاول مرة اضاء الركب الفوانيس ليلا وهم يستشعرون بالامان لاول مرة منذ ستة ايام . وحيث المياه العذبة متوفرة كما توجد قطعان من المها كما يقول ولم يلبثوا ان انتهوا الى خط سكة حديد الحجاز .

ووراء السكة انداحوا في واد عميق مخيف المنحدرات تمر به طريق حجاج القاهرة الى مكة المكرمة وقد وجدوا كهفا اغناهم النزول به ليلتهم عن نصب الخيام وهم مجهدون .

لكن اسوأ ايام الرحلة كلها كان يوم ١٣ مايو حيث وصل بهم دليلهم البدوي الى النقب على علو اربعة الاف قدم عن البحر لمحوا منه بحر العقبة وضبابا يلف القرية ٠ كان المنحدر مخيفا يقف له شعر الرأس وقد التوى كاحل شيكسبير ثلاث مرات وعجز عن ركوب ناقته فمشى فأجهده المشى حتى تهالك على الارض غير مرة ٠ وكانوا جديرين بالاناخة لكن الدليل اصر على ضرورة قطع وادي موسى بصمت تحت جنح الظلام لان خطر اللصوص وارد ورودا اكيـدا هنـاك ٠ وتواصل السير بضنا مخيف وتعطلت بعض الجمال واضطروا للتخلى عن بعض الكراسى والاثاث والخيام وعدة حمام شيكسبير المتنقل واعيد توزيع الحمل الباقي على الجمال السليمة وذاق الرجال من صعوبة السير الليلي ما يصعب وصفه ٠ ولم يشعروا بالامان الا بعد ارتفاع الشمس في ضحى غد تلك الليلة الليلاء

لكن هذه الاصالة في حب العمل المنظم لا تحجب طبعا اهتمامه بواجباته كوكيـل سياسى لحكومتـه فـي الكويت . غير انه كان رجلا واضح الذاتية فلا يحجم عن القول والتصرف وفق ما يعتقد رضى من رضى وسخط عليه من سخط . لقد كان رجلا فكتوريا وفارسا وجنديا وبالتالى متشددا في معتقداتـه وطريقـة فهمـه للامور . وليس هناك من شك ابدا في انه اعجب اعجابا خاصا بشخصية الملك عبد العزيز بغض النظر عـن متطلبـات موقفه السياسى فهو قد رأى في الملك نموذجا حيا للفروسية والحزم ووضوح المقاصد وهو قد رأى بالتالى ان من الخير لبلاده ان يكون تفاهمها مع عبد العزيز دون سائر زعماء شبه الجزيرة .

وليس من شك في ان ذاتية شيكسبير الواضحة هي التي جعلته يخالـف حتـى آراء رئيسه واستـاذه السياسى السير بيرسى كوكس المقيم العام بالخليج . فانكوكس ما كان ليذهب قيد شعرة فيتصرفاته وراء اهداف وتعليمات حكومته ، لكن شيكسبير كان رجل ذاتية ومبادأة وهو لم يكوّنرأيه اعتباطا عن الملك السعودي فهو قد عاش من قبل في مسقط وعمان وبندر عباس والكويت بضع سنين قبل ان يلتقي بالملك السعودي وحين التقى به ورآه في سلمه وفي حربه وفي مجالسه رجلا يكره السفاسف وفارسا لا ينقصه الوضوح ولا مكـان فيـه لعقد النقص استهواه منه ذلك الخلق ورأى ان بامكان بلاده ان تتفاهم مع ذلك الرجل باعطاء تأكيدات قاطعة له في مقابل تأكيداته لها ... لكن السياسة الانجليزية لا تعرف عن مثل تلك الفروسيـة والاخلاقيـة في موضوعـات تمس المصالح البريطانية .

مقترحات تركية للانجليز

أحس الاتراك بالخطر على وجودهم كله في المنطقة فأخذوا زمام المبادرة في اقتراح عقد وفاق جديد بـين تركيا وبريطانيا يتضمن :

اولا : اعتراف بريطانيا بحق السيادة العثمانية على وسط الجزيرة والحجاز واعتراف مماثل من تركيا لبريطانيا في ساحل الخليج .

ثانيا : تخرج تركيا من الاحساء لصالح ابن سعود وتعترف به متصرفا لنجد والاحساء معترفـا بالسيادة العثمانية .

ثالثا : يعقد مبارك مع امراء المشيخات العربية تحالفا من نوع ما يتعهد فيه المتواثقون على ان يكونوا في علاقات جيدة مع تركيا .

ومع ان طالب النقيب نائب البصرة الذي لعب دورا هاما في الاتصالات الخاصة بهذا الوفاق المقترح كان ملتزما للصمت الا ان استخبارات مبارك الصباح الجيدة توصلت الى معرفة كل شيء .

وظلت بريطانيـا وتركيـا تواصلان مفاوضاتهما تمهيـدا للتوقيع على معاهـدة تفصيليـة تشمـل سائر المشكلات المعلقة على ضوء الاسس التي توصلتا لها .

وفي مارس سنة ١٩١٣ تم اللقاء الذي اشرنا اليه آنفا بين شيكسبير وعبد العزيز ودام اكثـر من اربعـة ايام وهو اللقاء الذي قيل ان شيكسبير لم يكن مخولا باجرائه كما ان شيكسبير ظل يصر على انه قام به للمجاملة حيث انتهت به رحلته في تلك السنة الى مكان قريب من مخيم الملك فذهب اليه للمجاملة .

في هذا اللقاء اكـد عبد العزيز انـه مسيطر على معظم القبائل متحالف مع بقيتها وانه لا يستثني من ذلك الا شريف مكة الذي كان يخشى على مركزه .

وبهذا فان الاتراك لا يستطيعون الاضرار به الا بحرا عن طريق الاحساء وبرا عن طريق مكة ، غير انه يود ان يؤكد بان الاتراك انفسهم اعترفوا بالسيادة على الاحساء للسعوديين ايام جاءت حملة مدحت سنة ١٨٧١ ، كما ان الانجليز على لسان بيلى سنة ١٨٦٥ اعترفوا بسيادة السعوديين على القطيف ·

وكتب شيكسبير تقريرا ضافيا عن ذلك الاتصال « غير الرسمي » مؤكدا فيه قناعته بأنه لو تم الاعتراف النهائى بسيادة ابن سعود على سائر نجد والاحساء فانه سيلتزم بعهد بعدم التدخل في الساحل العربى للخليج ·

وبهـذه الكيفية حصلت بريطانيا على وعد من كل من تركيا والسعودية بألايضار مركزها فيسواحل الخليج ولعل هذا كان اهم ما تسعى اليه ·

وفي ١٣ مايو ١٩١٣ أفاد المقيم السياسى بالخليج السـير بيرسى كوكس بأن ابن سعود قد اسـتولى على الاحساء دون أن يصادف مقاومة تذكر واقترح الاعتراف باستقلال ابن سعود في نجد والاحساء تحت سيادة الباب العالى ، وبحكم ذلك الاستقلال يكون لبريطانيا حق ارسال معتمد عنها للـرياض للتعاون مع السعودية في شئون منع تجارة العبيد ومراقبة تجارة الاسلحة وحفظ السلام البحـــرى ·

لكن حكومة الهند وبمباركة من السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية رأت انه من الافضل انتظار التطورات والتمسك بسياسة حكومة جلالته قدر الامكان ، والامتناع عن التدخـل مباشرة أو غـير مباشرة ، في شئون نجد وحيث أن الموقف العام لحكومة جلالته يستند الى اعتبارات السياسة الاوروبية ألاوهى تعزيز سلطة الحكومة المركزية في تركيا الاسيوية فان ما يقترحه كوكس من اتصال مباشر مع ابن سعود لابرام اتفاقيات معه كحاكم مستقل من شأنه أن يثير شكوكا قد تكون لها نتائج مؤسـفه ·
وهكذا واصل عبدالعزيز ضغوطه لاحداث الواقع الذى يسـعى اليه ، مع الاتصـال بكل من بريطانيـــا والعثمانيين لتأكيد عدم اضراره بمصالح الاولى في ساحل الخليج ، والسيادة الرسمية للثانية ·

الاتفاقية الانجلو ـ تركية ٢٩ يوليـو ١٩١٣

وقعت بين بريطانيا وتركيا بالاحرف الاولى اتفاقية تعهدت تركيا بموجبها بالاعتراف باسـتقلال الكويت · وتخلت عن حق السيادة في قطر (كان الشيخ قاسم آل ثانى قد توفى ١٧ يوليو من نفس السـنه) وأقرت الحـد الشرقى لسنجق نجد بموجب ما يسمى بالخط الازرق الممتد من نقطة مقابل جزيرة الزخنونيه حتى خط العرض العشرين في الربع الخالى ·

كان واضحا جدا أن بريطانيــا لم تكن بحال من الاحوال مسـتعدة لبحث اى أمر أو الالتزام بأى موضـوع يخالف القول بأن نجد والاحساء سيظلان تحـت السيادة العثمانية الاسمية وعبثا حاول شيكسبير بعد آخر لقاء له مع عبد العزيز في ١٦ ديسمبر سنة ١٩١٣ أن يظفر بأي شيء يخالف تلك السياسة البريطانية المعلنة ·

وقد ورد في محضر ذلك اللقاء الذي لم تتضمنه مذكرات شيكسـبير المحفوظة في الجمعية الجغرافيـة والموجود تحت رقم L/PA/18 Mem. B432 ان كل ما يبغيه عبد العزيز بعد أن أخذ الاحساء هو أن يبقى في سـلام ، وهو يرى ان بريطانيا مهتمة بالسلام البحرى فاذا كانت مستعدة للاعتراف الرسمى بحكمه للاحساء وتتعهد بالمحافظة على سلامة البحر ازاءه فيها والا فهو يعتمد علىسيفه للمحافظـة على سواحله ، وهو سـيكون مسرورا ان يتعاون في اخضاع القرصنة وتهريب الاسلحة المحظورة والحفاظ على الهدنة البحرية ، وأشار شيكسـبير الى أن لبريطانيـا تعهدات والتزامات لشيوخ الساحل المتصالح وقطر ·

وعزز لوريمر المقيم البريطاني في العراق اتجاهات شيكسبير فيضرورة الدعم البريطاني العلني لابن سعود لكن كل هذه التواصي وضعت على الرف ..

وفي مطلع ١٩١٤ تخلى شيكسبير عن منصبه كوكيل سياسي فيالكويت ليقوم برحلته بعد فشل سياسته في الطلب بعقد معاهدة مع ابن سعود لخمس سنوات .

وفي ٥ مايو سنة ١٩١٤ ، وقد تخلت بريطانيا عن الذهاب الى أبعد مما وصلت اليه مع عبد العزيز أبرم في البصرة اتفاقا مع العثمانيين قبل فيه لقب متصرف نجد ، فيما كان الاتراك يوالون تزويد ابن رشيد بمساعداتهم ويباركون الدعم الذى يلاقيه هذا من ابن سعدون زعيم المنتفك على أن أمر هذا الاتفاق غامض وغير مؤكد .

بعد قيام الحرب العظمى

فشلت مساعي بريطانيا في حمل تركيا على عدم دخول الحرب الى جانب الالمان رغم انها تمسكت بالحياد لمدة ثلاثة أشهر ، فلما ان دخلت تلك الحرب تبدل موقف بريطانيا تبدلا اساسيا بطبيعة الحال .

كان الاتراك بعد دخول الحرب يضغطون على سائر الزعماء العرب لاعلان الجهاد، وبادرت بريطانيا بانزال حملة عسكرية في البصرة ، وقررت ابلاغ ابن سعود بأنها ستكون على استعداد للاعتراف به حاكما مستقلا لنجد والاحساء وان تدخل معه في علاقات تعاقدية لمساعدته بحريا في الخليج .

استدعاء شيكسبير لمهمته الاخيرة

بدأ شيكسبير في لندن في الشهور القليلة التى سبقت دخول تركيا الحرب الىجانب الالمان وكأنه رجل مزعج يحاول تعكير صفو الوفاق الانجلو ـ عثماني لينجح آراءه الثابتة فيابن سعود وضرورة التعاقد العلني معه ، فلما أن تطورت الاحوال وبدا أن تركيا على وشك دخول الحرب استدعى شيكسبير وعين « ضابطا سياسيا لواجب خاص » مسئولا مباشرة، امام كوكس الذي اصبح وزير خارجية حكومة الهند، مهمته الاتصال بابنسعود للتأهب لمباشرة المهام الناتجة عن تحالف مع بريطانيا فيما لو تأكد دخول تركيا المتوقع عندئذ للحرب الى جانب الالمان . وأصر شيكسبير على القول بأنه لا بد من عقد معاهدة بريطانية مع ابن سعود ، لكن معارضته هذه لم تكن لتحول بينه وبين النهوض لواجبه تجاه دولته ، وفي يوم ١٠ اكتوبر ١٩١٤ استقل السفينة « أرابيا » وفي هذه الاثناء اتصل الانجليز بالشيخ مبارك في الكويت للاتصال بابن سعود ليؤكد له حسن نية بريطانيا تجاه العرب وكراهيتها محاربة الاتراك الا اذا اضطروها لذلك .

وفي ٧ ديسمبر ١٩١٤ وصل شيكسبير الى الكويت مجددا فوجد رسالة من الشيخ مبارك تنتظره وفيها انه قصد بمعية السيد طالب النقيب الى الرياض وذلك ضمن المناورات الخاصة بطلب الاتراك اعلان الجهاد ، وهو يطلب من شيكسبير التوجه عن طريق الباطن الى حفر حيث سيلاقيه هناك .

وفي ١٢ ديسمبر تحرك شيكسبير الى الباطن وفي ٣١ من نفس الشهر وصل الى معسكر الحرب السعودى فوجد عبد العزيز على رأس ٦ آلاف مقاتل من نجد والسدير والعارض ومعهم محاربون من القبائل ، وهو غاضب على الانجليز وعلى مبارك لانهم لم يتقدموا له بأى تأييد فيما كان الاتراك وحلفاؤهم ينتقمون من كل من يخشون أن يعطي ولاءه لابن سعود من القبائل المجاورة لهم . وقد أكد لشكسبير أن الوكيل الذى جاء بعده في الكويت وهو الكولونيل جراى كان رجلا أحمق وانه كان يسعى جاهدا ليقنعه بقبول لقب متصرف نجد فرفض ذلك فما كان من جراي الا أنه قال له : اذن لا تستطيع انتظار مساعدة من بريطانيا .

كان الاتراك قد قدموا دعما كبيرا لسعود بن رشيد الذي كان يتجه الان بقواته من عاصمته حايل الى زلفي وتقدم شيكسبير بوعود كثيرة حول تبدل موقف بريطانيا منه ، وبعث الى كوكس برسالة يطالب فيها بالحاح ابلاغ موافقة رسمية من بريطانيا بالاعتراف بمطالب ابن سعود وفيما كان ينتظر الجواب ، وردت اخبار بأن عبدالله بن حسين شريف مكة قد تقدم بقوات يريد بها الرياض واحتل موقعـا على طريـق المدينـة ـ الرياض يسمى شرعة ، وقد نصح عبد العزيز كثيرا لشيكسبير ان يباعد بنفسه عن المعركة ولكن هذا رفض لان مصلحة بلاده ومصلحته مع صديقه تأبى عليه ذلك ٠

وفي لحظة الاصطفاف لمعركة جراب اتخذ شيكسبير له مكانا وراء تلة وعنده مدفع ومعه ناظور وكاميرا وقد رفض طلب عبدالعزيز اليه بتبديل ثيابه الاوروبية ٠

لقد حصل في تلك المعركة ان العجمـان بدلوا موقفهم من تأييد ابن سعود خلال احتدام المعركة فكـان لانسحابهم اثر كبير في تقدم خيالة ابن رشيد الى مواقع مشاة ابن سعود ، وقد هرب الكثيرون من مواقعهم وكان من ضمنهم جنود المدفع الذي يقف عنده شيكسبير الى ان وصلت اليه الخيالة فاجتاحوه برصاصهم وذلك في ٢٤ يناير ١٩١٥ وعمره ست وثلاثون سنة وبضعة اشهر . وقبل ايام من اعلان منحه لقب فارس في الامبراطورية ٠

ولقد نجا مـن تلـك المعركـة الملك عبد العزيز ومستشاره ابن جلوى ولكنه فقد اخاه سعدا فيها ، غير ان خسائره تلك لم تحل دون تصميمه على مواصلة السير نحو غايته التي انتهت لاحقا بانتصاره على سائر معارضى سياسته في شبه الجزيرة العربية بعد فصول طويلة من الصراع لا تمس موضوعنا هذا ٠

الهـــــوامشـــــ

(١) **يذكر المؤلف بأن كلايتون سأل جلالة الملك عبد العزيز عند لقائه به في جدة عام ١٩٢٧ عن أعظم أوروبي عرفه في حياته فقال الملك بـلا تـردد الكـابتن شيكسبير** Winstone, *Captain Shakespear*. p. 224.٠

(٢) المجلة الجغرافية المجلد ٤٩ عدد ٥ مايو ١٩٢٢

(٣) الكابتن شيكسبير لاتش في اف ونستون ص ٣٧

(٤) المجلة الجغرافية عدد ٥ مجلد ٤٩ ص ٣٢٢

(٥) L/PA/18 Mem B437

(٦) كابتن شيكسبير ـ اتش ٠ في ٠ اى ونستون

المـراجـع

H.R.P. Dickson, *Kuwait and Her Neighbours*

N.V.F. Winstone, *Captain Shakespear*

Douglas Carruthers, *The Geographical Journal*, Vol. lix, No. 5 (May, 1922).

H.R.P. Dickson, *The Arab of the Desert*

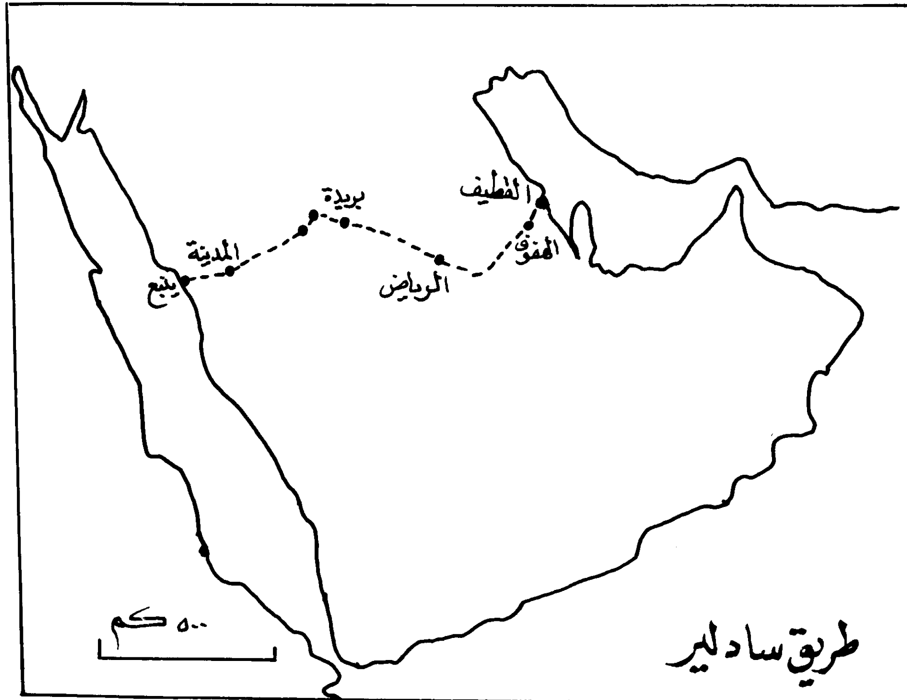
Indian Office Library L/PA/18 Mem. B437.

جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب (ترجمة قدري قلعجي) ٠

جاكلين بيرين ، تاريخ نجد ٠

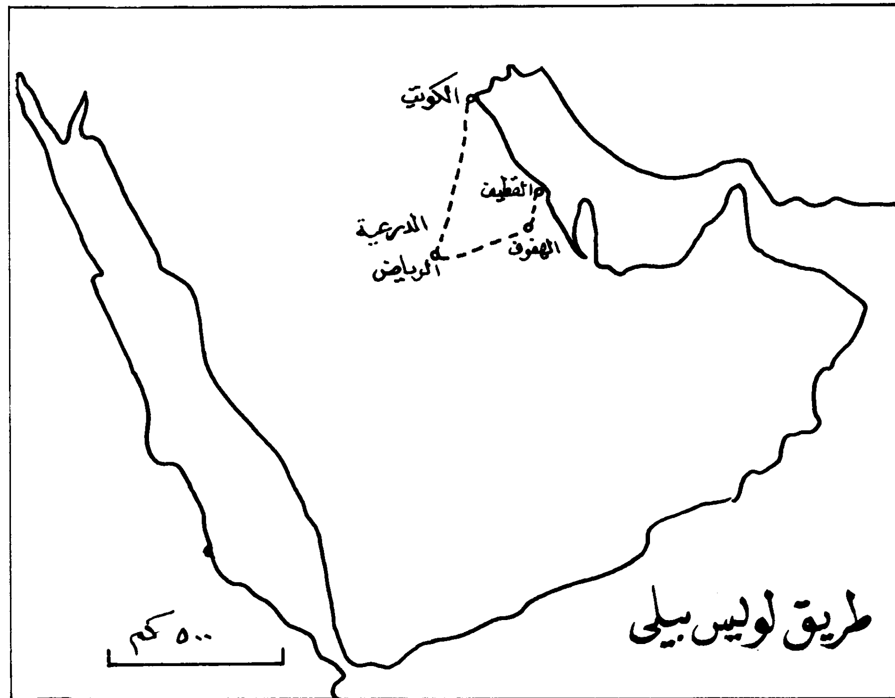
فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ٠

لوريمر ، دليل الخليج (الطبعة الجديدة المنقحة)٠



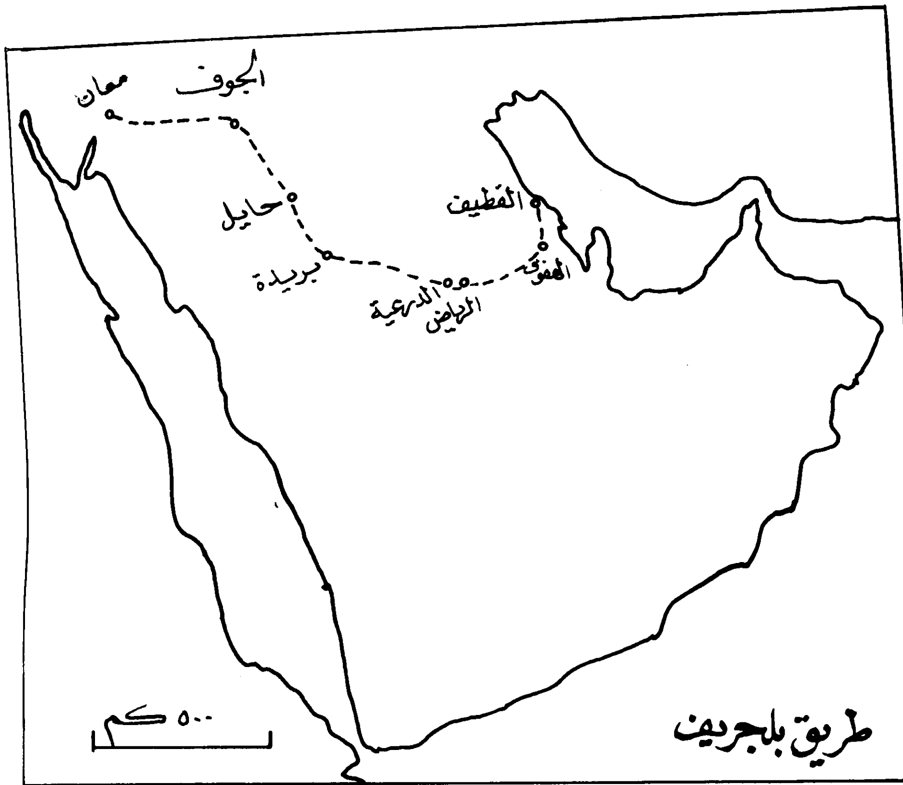
١٨١٩

الخـــارطـة رقـم (١)



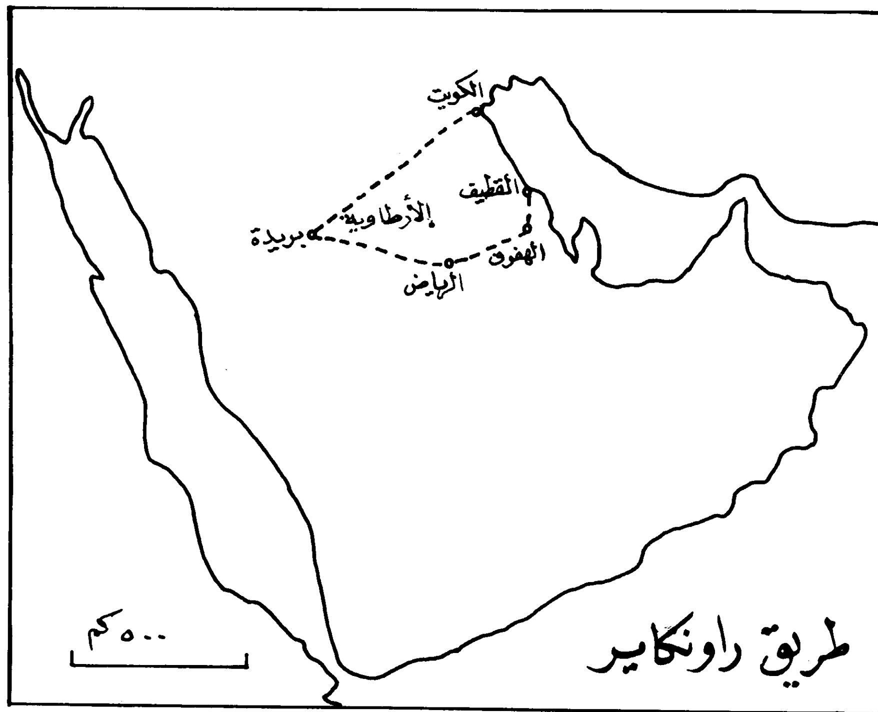
١٨٦٥

الخـــارطـة رقـم (٢)



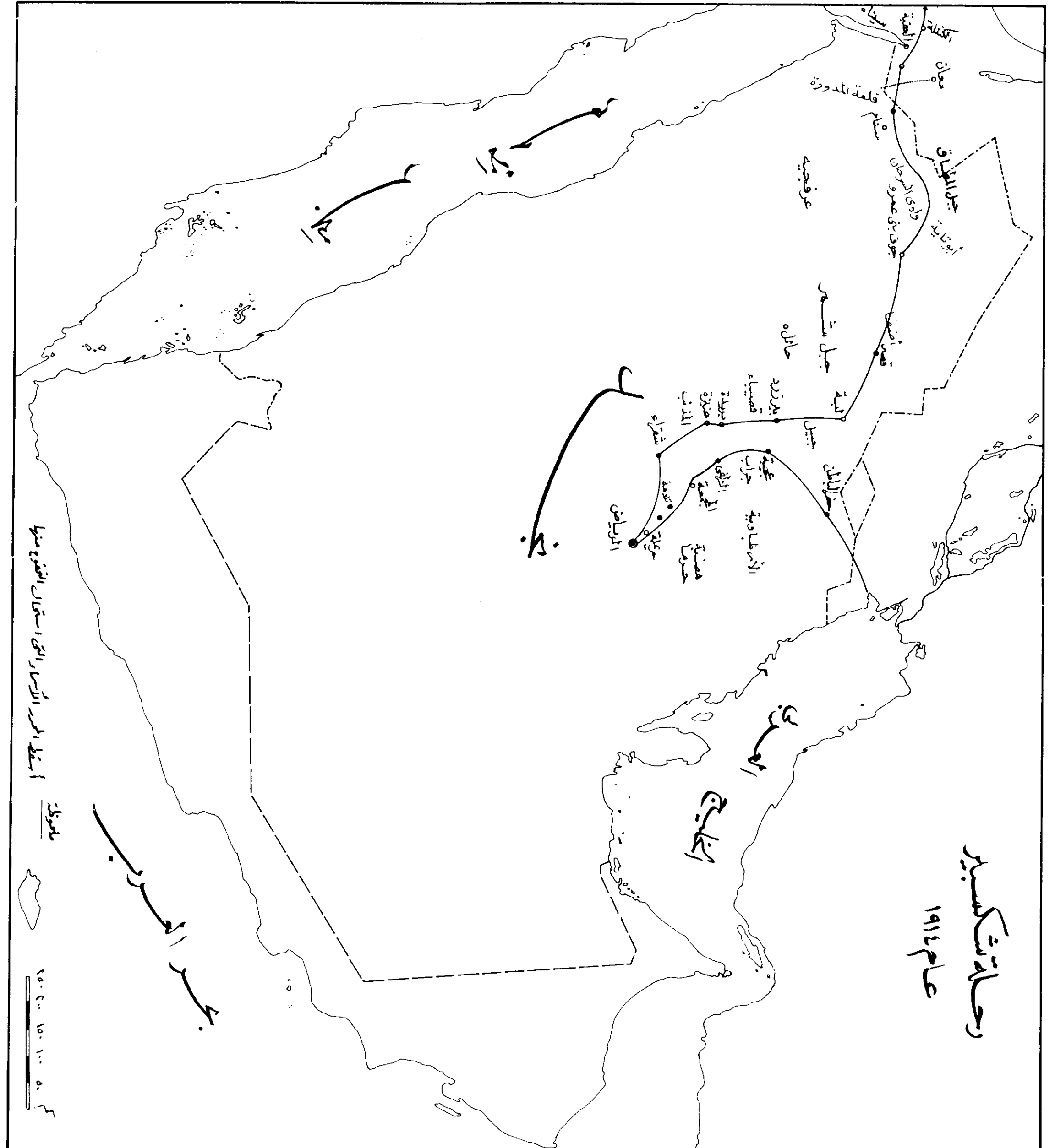
١٨٦٢

الخارطة رقم (٣)

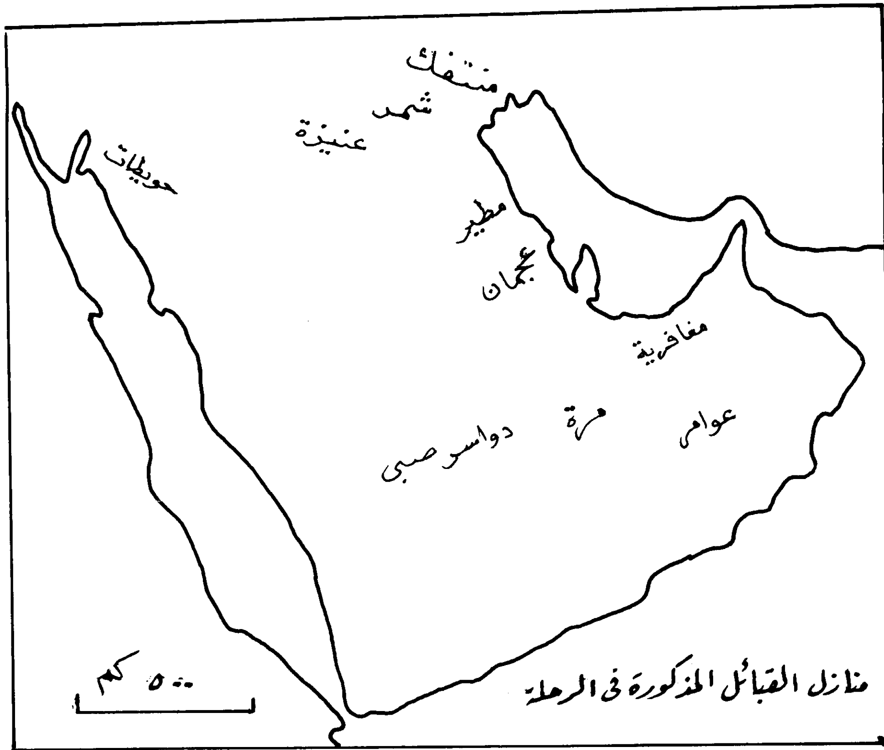


١٩١٢

الخارطة رقم (٤)



الخارطة رقم (٥)



الخـــارطـة رقـم (٦)